حياة
سيد العرب ﷺ
وتاريخ النهضة الإسلامية مع العلم والمدنية

تأليف
حسين عبد الله باسلامة
عضو مجلس الشورى بمكة

حقق هذا الكتاب وعلق عليه
الشيخ زكريا بن عبد الله بيلا
عضو مجلس إدارة الحرم المكي

الجزء الثالث

دار القبلة للثقافة الإسلامية
جدة

مؤسسة علوم القرآن
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

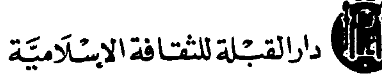
حياة

سيد العرب ﷺ

وتاريخ النهضة الإسلامية مع العلم والمدنية

الطبعة الأولى

١٤١٢هـ-١٩٩٢م



دار القبلة للثقافة الإسلامية

المملكة العربية السعودية - جدة - ص ب: ١٠٩٣٢ - الرمز: ٢١٤٤٣ - ت: ٦٦٥٢٤٠٦ / ٦٦٥٩٩٥١ / فاكس: ٦٦٥٩٤٧٦

مؤسسة علوم القرآن

دمشق - شارع مسلم البارودي - بناء خولي وصلاحي - ص ب: ٤٦٢٠ - ت: ٢٢٤٩ . - بيروت - ص ب: ١١٣/٥٢٨١

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي خلق الخلق ، فاختار منهم العرب ، واختار من العرب مضر ، واختار من مضر قريشاً ، واختار من قريش بني هاشم ، واختار من بني هاشم سيّد العرب محمداً ﷺ ، رسولاً ، ونبياً ، إلى الناس كافة ، بشيراً ونذيراً لقوم يفقهون . صلى الله عليه وآله وصحبه ، الذين اهتدوا بهديه ، واستضاءوا بنوره ، وسَمَوا بإرشاده ، وسلّم تسليماً كثيراً ، ما تداول الجديدان ، وتعاقب النِّيران .

أما بعد ، فقد رأيت كثيراً من علماء العصر ، قد دوّنوا سير بعض مشاهير الإسلام ، على أسلوب رائق ، سهل التناول ، يتسنى لناشئة العصر أن يقتطفوا من ثمارها ، ويجنوا من حكمها ، ما يفيدهم في معترك الحياة ، ولم أرَ من تصدّى لتدوين حياة سيّد العرب ﷺ ، التي عليها مدار الرابطة الإسلامية ، والتي هي نبراس التقدم ، ودستور النهوض ، وغذاء أرواح الأمم الراقية ، على ذلك الأسلوب العصري ، غير بعض مختصرات ، أشبه بفهرسة للحوادث والغزوات خالية من ضالّة القارىء المنشودة ، حيث أن الغرض من دراسة كتب التاريخ والسير والتراجم ، وما في معنى ذلك ، هو الوقوف على ما وقع في غابر الأجيال ، من تقدم ، ورقي ، ونهوض ، من مباراة الأبطال ، ومسابقة الأمم ، الذين خطوا خطوات واسعة ، في سبيل التقدم ، والرقي . وكيف سادوا العالم ، وتقدمت بمساعيهم أمتهم على سائر الأمم ، حتى علا منارهم ، وسما ذكرهم ، وتشيَّد مجدهم ، وتضخم بنيانهم ، وصاروا المثل الأعلى في الرقي والتقدم . وكذلك الوقوف على

أطوار طغاة العالم ، وبغاتهم ، وغطرسة المتغطرسين فيهم ، وهوس المتهوسين منهم ، وكيف حفروا عن حتفهم بظلفهم ، حتى اندكَّ صرحهم ، وتلاشى مجدهم ، وتدهورت عروشهم ، فشقيت بهم أمتهم ، واحترقت قلوبهم بشررهم ، وصاروا عظة لكل متعظ .

فبدراسة ذلك يتنور[1] القاريء فيكون خبيراً بما كان ، بصيراً بما سيكون ، فمن تصفح سيرة سيد العرب ﷺ ، وتأملها تأمل المسترشد ، عرف كيف تكون الدعوة إلى الإصلاح ، وكيف ترتبط الأمة برابطة الآخاء الصحيح ، وكيف تكون الثقة بالنفس ، والاعتماد على الله ، ثم الاعتماد على الأمة ، وكيف ينبغي أن يكون الفرد في الأمة ، طاهر الذيل ، شريف النفْس ، عالي الهمّة ، متمتعاً بحرية الضمير ، لا تأخذه في الحق لومة لائم ، لا يتخلى عن نصرة الضعيف ، ولا يتأخر عن الواجب ، متخلقاً بمكارم الأخلاق التي منها الشفقة ، والرحمة ، والنصح لكل مستنصح ، والإرشاد لكل مسترشد ، والذب عن دينه وأمته وقومه وعشيرته ، حيث أن سيرة سيد العرب ﷺ ، تحتوي على حياته التي هي أساس النهضة الإسلامية ، فيرى القارىء ، كيف نشأ ﷺ ، وكيف كابد من المشقة في التفاهم مع أمته ، وقومه ، وعشيرته ، وكيف توصل إلى نشر دعوته ، وكيف ثابر على الدعوة ، حتى وصل إلى التفاهم مع قومه ، وتمكن من نشل أمته ، من حضيض جهلها ، إلى سماء رقيها ، التي وصلت إليه ، وكيف قادها بحكمته ، وسلك بها سبيل الرشاد ، حتى أصبحت ـ بفضله ـ الأمة العربية كتلة واحدة ، إذا اشتكى منها عضو تداعت له الأمة بأجمعها ، وصارت بتعاليمه وإرشاده ، أعظم الأمم قيادة ، وعلماً ، ورابطة ، ومدنية ، وعمراناً ،

---

(١) التنور : الطلاء بالنورة وليس هذا ما أراده المؤلف بل أراد الاستنارة . . فالصحيح إذاً يستنير القارىء .

ومجداً ، وسؤدداً ، وفخراً ، سداها الإسلام ، ولحمتها الإيمان .

فلذلك اعتمدت على الله تعالى ، وقمت بتدوين حياة سيّد العرب ﷺ ، ولخصتها من كتب التفسير ، والحديث ، والسير ، والتاريخ ، والأنساب والتراجم ، ولم آل جهداً عن تصفح ما وقع في يدي من الكتب المتعلقة بهذا الموضوع ، فما رأيت روايتين متعارضتين ، إلا أخذت أصحهما ، ولا عبارتين مترادفتين ، إلا أثبتّ أرجحهما . وقد أسندت بعض الحوادث ، إلى مخرجيها ورواتها ، التي اقتضت الضرورة اسنادها ، كي يروق بال القارىء ، ويعلم شدة حرصي على التثبت في صحة النقل ، كما أني قد بذلت قصارى جهدي ، في تحرير نسب العرب ، حيث أن الروايات في الأنساب كثيرة جداً ، ومن أصعب الصعاب الوصول إلى نسب للعرب متفق عليه ، غير نسب النبي ﷺ . وإنما اعتمدت على أصح ما ظهر لي في ذلك ، وما وافق الحديث النبوي الشريف ، المذكور في محله . وكذلك اجتهدت كثيراً في الوصول إلى معرفة أسماء أول من أسلم من الصحابة ، قبل عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، وقبل دخول دار الأرقم[1] حتى أحصيتهم فرداً ، فرداً ، فبلغوا اثنين وتسعين صحابياً ، لأن أكثر أصحاب السير ، والتاريخ ، والتراجم ، يذكرون أن عمر رضي الله عنه ، لما أسلم ، كان تمام الأربعين ، فظهر بالاحصاء غير ذلك . وكذلك تتبعت من تسمى في عصر النبي ﷺ : محمداً ، لأجل النبوة ، وأحصيتهم ستة عشر ، حيث أن بعض المتأخرين ذكر في تاريخه ، أن هذا الاسم لم يكن شائعاً ومعروفاً ،

---

(١) دار الأرقم بن الأرقم ، هي الدار التي كان يجتمع فيها رسول الله ﷺ بأصحابه السباقين للإيمان بدعوته ، وكانوا يعبدون الله فيها سراً ـ خوفاً من قريش ـ وهي بمكة المكرمة بجوار الصفا إلى يمين الذاهب إلى المروة ، أي بأسفل جبل أبي قبيس . وقد أزيلت هذه الدار في مشروع توسعة الحرم وبنيت في محلها عمارة خصصت لتحفيظ القرآن الكريم .

عند العرب قبل الإسلام ، ولذلك لم يتسم به أحد غير النبي ﷺ . وأيضاً أحصيت أسماء من هاجر الهجرتين إلى الحبشة ، وأسماء الأنصار الذين بايعوا النبي ﷺ في العقبة الأولى[1] ، والثانية ، والثالثة ، وأسماء من حضر وقعة بد[2] الكبرى ، ومن استشهد بها ، وكذلك من استشهد بأُحُد[3] وغيرها . ولاحظت على كل اعتراض جاء من بعض المستشرقين ، والمبشرين ، والالحاديين ، والماديين ، والمشككين في صحة كتب الإسلام ، وتاريخ العرب ، والطعن في سيرة سيد العرب ، ونبي الإسلام ، والإعتراض على التنبؤ ، ونزول الوحي ، وسلام الجمادات ، على النبي ﷺ ، والمعراج ، والحكم على بني قريظة ، وغير ذلك مما وقفت عليه في بعض الجرائد والمجلات السيارة ، وكذلك حررت الغزوات ، ورتبتها ، وبيَّنت كل ما جرى فيها ، ولاحظت عليها ، بما يقتضي بيانه وغير ذلك ، مما لا يستغني عنه القارىء ، وصغته بحمد الله تعالى ، وسطاً بين التطويل الممل ، والإختصار المخل ، وسميته : (حياة سيد العرب ـ وتاريخ النهضة الإسلامية مع العلم والمدنية) ، فأسأله تعالى ، أن ينجح مقاصد المؤمنين ، ويعلي منار الموحدين ، ويلم شعث المسلمين ، ويجمع كلمتهم ، ويصلح فساد قلوبهم ، ويهديهم إلى صراطه المستقيم ، إنه بالإجابة جدير ، ولما يشاء قدير .

---

(١) العقبة الأولى : هي ربوة صخرية تقع في مدخل منى من ناحية مكة المكرمة وعندها ترمى جمار العقبة .

(٢) بدر : من المناهل المعروفة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة . وقد اشتهر هذا المنهل شهرة تاريخية عظيمة لحدوث الواقعة الفاصلة بين المسلمين والمشركين ، وفي هذه الواقعة انتصر الإسلام على الكفر ، والحق على الضلال . فشرف هذا المكان وخلد ذكره .

(٣) أحد (بضم أوله وثانيه) ، وهو جبل يقع شمالي المدينة المنورة ، وعنده حدثت معركة أحد المشهورة التي انهزم فيها المسلمون ، بسبب مخالفتهم لأمر القيادة النبوية العليا .

سرية محمد بن مسلمة الانصاري إلى القرطاء

القُرْطَاء بطْن[1] من بني بكر بن كلاب ، وكانت منازلهم بناحية ضَرِيَّة بالبَكْرات ، وذلك أن ثُمامة بن أُثال الحنفي اليمامي كان عرض لرسول الله ﷺ يريد قتله ، فبعث رسول الله ﷺ محمد بن مَسْلَمة الأنصاري رضي الله عنه ، في ثلاثينَ راكباً إلى القُرْطاء ، وهي تبعد عن المدينة سبعة أيام شرقاً ، فخرج محمد بن مسلمة في اليوم العاشر من شهر المحرم ، سنة ست من الهجرة ، وأمره رسول الله ﷺ أن يسير الليل ويكمن النهار ، فلما أغار عليهم هربوا جميعهم ، بعد أن قتل منهم عشرة أنفار ، وأُسر ثُمامة بن أثال ، وغنم مائة وخمسين بعيراً ، وثلاثة آلاف شاة ، وقدموا المدينة في نهاية المحرم سنة ست . فأمر رسول الله ﷺ بربط ثُمامة في سارية من سواري المسجد لينظر إلى صلاة المسلمين واجتماعهم عليها فيرق قلبه ، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال : « ماذا عندك يا ثمامة ؟ » قال : عندي خير يا محمد ، إن تَقْتُل تَقْتُل ذا دَم ، وإن تُنْعِم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت . فتركه رسول الله ﷺ حتى كان الغد . ثم قال له : « ما عندك يا ثمامة ؟ » فأعاد مقالته الأولى ، فتركه حتى كان الغد فقال : « ما عندك يا ثمامة ؟ » فقال : عندي ما قُلت لك . فقال النبي ﷺ : « أطلقوه » ، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد ، فاغتسل ثم دخل المسجد ، فقال : أشهد أن

---

(١) لكونه أراد الطائفة عبر بالبطن وإلا فكان الأولى بطون لأنهم أخوة . وفي القاموس : القرط (بالضم) من بني كلاب وهم أخوة . وقوله : البكرات - البكرة : ماء لبني ذؤيب من الضباب ، وعندها جبال شمخ يقال لها البكرات ، قاله الصنعاني .

لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . ثم قال : والله يا محمد ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك ، وقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إليّ ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك . فأصبح دينك أحب الأديان كلها إليّ ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك ، فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة ، فماذا ترى ؟ فبشره[1] النبي ﷺ وأمره أن يعتمر ، فلما قدم مكّة مُلَبيّاً بعمرته ، مظهراً وحدانية الله تعالى ، قال له قائل : صبأت[2] ؟ قال : لا ، ولكن أسلمت مع رسول الله ﷺ . ولا والله تأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ . ثم خرج إلى اليمامة ، فمنعهم أن يحملوا إلى مكّة شيئاً ، حتى أكلت قريش العِلْهِز[3] ، فجاء أبو سفيان إلى المدينة فقال للنبي ﷺ : أَلست تزعم أنك بُعثت رحمة للعالمين ؟ قال : « بلى » ، قال : فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناءَ بالجوع ، أنشدك اللّهَ والرحم ؟ قد أكلنا العلهز . فكتب رسول الله ﷺ إلى ثمامة بن أثال أن يخلي بينهم وبين الحمل[4] .

فحاصل هذه السرية هو أن ثُمامة بن أثال بن النعمان من بني حنيفة ، الحنفي أبو أمامة اليمامي كان عرض لرسول الله ﷺ ليقتله . فدعا رسول الله ﷺ ربه أن يمكّنه منه ، فمكّنه الله سبحانه وتعالى منه ، فلما تمكّن منه ربطه في السارية ليشاهد صلاة المصلين ، ويقف على عبادة الموحدين ، ثم أطلقه رسول الله ﷺ ، قبل أن يؤمن بالله وبرسوله ، ولم يقتله مقابل ما كان يحاول من قتل رسول الله ﷺ ، بل عامله بالشفقة والرحمة . ونتج من ذلك

(١) قال الحافظ : أي بخير الدنيا والآخرة أو بالجنة أو بمحو ذنوبه وتبعاته .
(٢) صبوت : أي خرجت عن دينك .
(٣) هي الوبر والدم .
(٤) أي الميرة والطعام .

أن تلك الشفقة والرحمة صادفت محلّها ، فأسلم الرجل بعد أن أُطلق سراحه ، وكان حرّاً فيما يريد ، فلو عاد إلى أهله وبقي على شركه لما عارضه أحد ، ولكن الرجل العاقل إذا رأى الحق قَبِلَه وخضع له ، فلما أسلم الرجل صار من أنصار رسول الله ﷺ ، وكان الإبقاء عليه خيراً من قتله ، فالمصلحون ، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ، لا يستعملون القتل إلاّ إذا أعيتهم الحيلة ، ولم تثمر النصيحة ، لأنه لا غرض لهم مع الناس غير الإصلاح والعدل ، وسلوك سبيل الهدى والرشاد .

وهذا أبو سفيان بن حرب ، الذي كان بالأمس رئيس الأحزاب ، وقد أتى بعشرة آلاف مقاتل لاستئصال رسول الله ﷺ ، ولو تمكّن من ذلك لما تأخر لحظة عن قتل رسول الله ﷺ ، يأتي اليوم إلى رسول الله ﷺ ، يسأله الشفقة والرحمة ، ويذكره الله والرحم ، فهل ذكّر بذلك نفسه قبل أن يُذكّر رسول الله ﷺ بها ؟ يأتي رسول الله ﷺ قبل أن تغمد سيوف الأحزاب من وقعة الخندق . أما خشي على نفسه من القتل ؟ يقدم المدينة على غير عهد ولا عقد مع رسول الله ﷺ ، ويخاطبه بالألفاظ الخشنة ، المجردة من المجاملة والملاطفة ، كأنما له عليه مِنّة يطالبه المكافأة عليها ، هل نسي ما وقع منه في حق رسول الله ﷺ ، من الأذى والتكذيب ، والمقاطعة التي قاطع هو وقريش رسول الله ﷺ ، وآله بني هاشم وبني المطلب قبل الهجرة ، وكان هو من دعاتها ثلاث سنين ، حتى أن الرجل من بني هاشم وبني المطلب يذهب إلى السوق ليأتي بشيء من الزاد لأهله وعياله ، فما يجد من يشفق عليه منهم ، ولا يبيعه أحد منهم لقمة واحدة ، فيرجع إلى أهله صفر اليدين ، ثم بعد فناء رؤساء قريش يترأس أبو سفيان الجيوش بنفسه ، فوقع منه في أُحُد من التمثيل بحمزة عم رسول الله (ﷺ) والمسلمين ، ثم ترأس الأحزاب أخيراً ، كما تقدم تفصيله في الجزء الثاني من هذا الكتاب ، ثم يأتي رسول الله ﷺ بنفسه ، ويسأله الله والرحم بقريش ، وأن يسمح

لثُمامة بن أثال أن يأتيهم بالميرة من اليمامة ، لأن قريشاً أصابها الجوع حتى أكلت العِلْهِز ، نسي كل ذلك أبو سفيان أم تناسى ؟ وهنا نتساءل ونعكس القضية : فلو كان ما طلبه أبو سفيان من رسول الله ﷺ طلبه رسول الله ﷺ من أبي سفيان ، فهل كان جيبه إلى طلبه في الحالة التي طلب فيها أبو سفيان من رسول الله ﷺ ، فماذا يكون الجواب ؟ . . حاشا لله ، ولكنْ أبو سفيان يعلم علم اليقين أن رسول الله ﷺ ، لا يغدر ولا يحقد ، وأنه شفوق رحيم بعموم الناس ، وهو الهادي إلى صراط الله المستقيم ، ولكن العظمة والكبرياء هما اللذان جعلا أبا سفيان لا يخضع ، ولذلك تأخر إسلامه إلى الفتح ، تلك سنّة الله في خلقه ، فمنهم السريع ، ومنهم البطيء .

غزوة بني لحيان

بنو لِحْيان[1] ، هم الذين قتلوا عاصم بن ثابت الأنصاري ورفاقه في وقعة الرَّجيع[2] ، فأراد رسول الله ﷺ أن يأخذ بثأرهم ، فخرج رسول الله ﷺ ، في مائتين من أصحابه ، ومعهم عشرون فرساً ، واستعمل على المدينة عبد الله بنَ أم مكتوم ، وأظهر أنه يريد الشام ، وذلك في منتهى ربيع الثاني وأول جمادى الأولى سنة ست من الهجرة ، فسلك على (غُرَاب)[3]

---

(١) لحيان (بكسر اللام وفتحها) : لغتان نسبة إلى لحيان بن هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر .
قال الحافظ : وزعم الهمداني النسابة أن أصل بني لحيان من بقايا جرهم دخلوا في هذيل فنسبوا إليهم .

(٢) وقوله : « الرجيع » هو (بفتح الراء وكسر الجيم) اسم ماء لهذيل بين مكة وعسفان . وقوله : « ورفاقه » وكانوا عشرة أو سبعة .

(٣) جبل بناحية المدينة على طريق الشام .

ثم على (مخيض) ثم على (البتراء) ثم صَفّقَ[1] ذات اليسار ، فخرج على (بَيْن) ثم على (صخيرات الثُّمَام) ثم استقام به الطريق على المحجة من طريق مكّة فأخذ السير سريعاً حتى نزل على (غُران)[2] وهي منازل بني لحيان ، إلى بلد يقال له (ساية) منازل بني لحيان أيضاً ، حيث كان مُصاب أهل الرجيع الذين قتلوا ، فترحّم عليهم ، ودعا لهم ، فسمعت به بنو لحيان ، فهربوا في رؤوس الجبال ، فلم يقدر منهم على أحد ، وأخطأ من غرتهم ، فأقام نحو يومين وهو يبعث السرايا في كل ناحية ، ثم خرج حتى أتى عُسْفان ، فبعث أبا بكر الصدِّيق في عشرة فوارس لتسمع به قريش فيذعرهم ، فأتوا كُرَاع الغميم)[3] ، ثم رجعوا ولم يلقوا أحداً . ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلق كيداً . فقال رسول الله ﷺ حين وَجّه راجعاً : « آيِبُونَ تَائِبُونَ إنْ شَاءَ اللَّهُ لرَبّنَا حَامِدُونَ ، أعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ وَعْثَاءِ السّفَرِ وكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ وَسُوءِ الْمَنْظَرِ في الأَهْلِ وَالْمَالِ » . وكان مدة غيابه عن المدينة أربع عشرة ليلة .

سرية عكاشة بن محصن إلى غمر

بعث رسول الله ﷺ عُكاشة[4] بن مِحْصَن الأسدي رضي الله عنه إلى « غَمْر مرزوق[5] » وذلك في شهر ربيع الأول ، سنة ست من الهجرة ،

---

(١) عدل ذات اليسار .

(٢) غران : واد بين أمج وعسفان .

(٣) بفتح الغين وكسر الميم ؛ واد أمام عسفان بثمانية أميال يضاف إلى كرع جبل أسود بطرف الحرة ممتد إليه .

(٤) بضم العين المهملة وتشديد الكاف وقد تخفف ، فشين معجمة .

(٥) هو ماء لبني أسد على بعد ليلتين من فيد ؛ قال في القاموس : قلعة بطريق مكة سميت بقيد ابن فلان .

في أربعين[1] رجلاً ، فنَذِرَ به القومُ ، فهربوا ، فنزل عُكاشة وقومه في عُلْيا بلادهم ، فاستاقوا مائتي بعير ، وقدموا على رسول الله ﷺ ، ولم يلقوا كيداً .

سرية محمد بن مسلمة الأنصاري
(إلى ذي القَصَّة[2])

وذلك أنه بلغ رسول الله ﷺ ، أن بني ثعلبة وأنماراً أجمعوا على أن يغيروا على سَرح المدينة ، فبعث محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه في ربيع الأول ، سنة ست من الهجرة ، إلى ذي القَصّة من طريق الرَّبَذة في عشرة رجال ، فورد عليهم ليلاً بمن معه ، فشعر المشركون بمجيئهم ، وكانوا مائة رجل ، فكمنوا لهم حتى ناموا ، فما شعر محمد بن مسلمة وأصحابه إلا بالنبل قد خالطهم ، فوثب وصاح في أصحابه : السلاحَ ، فتراموا بالنبل ساعةً من الليل ، ثم انحاز أصحابه إليه وقد قتل من المشركين رجلاً ، فحمل المشركون عليهم بالرماح ، فقتلوهم إلاّ محمد بن مسلمة فوقع جريحاً ، وظن المشركون أنه قُتِل مع قومه ، فجرّدوهم من ثيابهم وانطلقوا ، فمرّ رجل من المسلمين ، فوجد المسلمين صَرْعى ، ووجد بينهم محمد بن مسلمة فيه رمق ، فحمله حتى ورد به المدينة ، فبعث رسول الله ﷺ ، أبا عبيدة عامر بن الجرّاح[3] رضي الله عنه في أربعين رجلاً إلى

---

(١) منهم ثابت بن أرقم رضي الله عنه ، وقيل : إن ثابتاً رضي الله عنه هو الذي كان أميراً على هذه السرية . وقول ابن عائذ : أصيب فيها ثابت ؛ وليس بشيء لأنه استشهد أيام الردة ، قاله الشامي . وعليه فقوله : لم يلقوا كيداً ولم يصب منهم أحد مستقيم .

(٢) موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً .

(٣) أمين هذه الأمة ، أحد العشرة المبشرين رضي الله عنهم .

مصارع أصحابه ، فأغاروا على القوم ، فهزموهم ، وهربوا إلى الجبل ، وأصابوا رجلاً واحداً منهم ، فأسلم ، وتركوه ، وأخذوا النعم والشاء فاستاقوها ، وشيئاً من متاعهم ، وقدموا به المدينة . فأخرج رسول الله ﷺ الخُمس ، وقسم الباقي .

هذا ما حصل في هذه السرية .

فما أظن أن أمّة من الأمم ، أو ديناً من الأديان ، فيه من التسامح مثل ما في الإسلام . إن قوماً يقتلون أصحاب رسول الله ﷺ ، ثم يبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة ليأخذ بثأر من قتل من أصحابه ، فيصيبون رجلاً منهم ، فيسلم ، فيطلقونه لمجرد إسلامه فقط ؟ . . هذا مما لا يوجد مثله في غير الأمة الإسلامية . ومن ذلك يعلم أن دين الإسلام يتسامح في كل شيء إلّا في الدين ، ولا يقاتل أحداً إلا لأجل الدين ، ويترك المشرك المقاتل لأجل مجرد إسلامه ، ومتى أسلم صفح عن كل ما وقع منه قبل ذلك . وسيأتي أمثال ذلك كثيراً من هذا القبيل من تسامح الإسلام ، كما سبق من (وحشي) قاتل حمزة عم رسول الله وأسد الله وأسد رسوله ، ذلك الحبشي الذي أفقد الإسلام أعظم بطل من أبطاله ، وأبكى القلوب دماً على مصابه ، وقد أهدر النبي ﷺ دمه ، فلما أسلم أصبح كأن لم يحصل منه شيء ، ويمشي حرّاً بين عموم المسلمين ، وصفح عنه رسول الله ﷺ بمجرد إسلامه ، فهل يوجد ذلك في دين من الأديان غير دين الإسلام ؟ أو أمّة من الأمم ، تعامل أعظم سفّاك سفك دم أعظم رجل بالتسامح غير الأمّة الإسلامية ؟ . . الجواب على ذلك أنه لا يوجد ، وعلى من يدعي غير ذلك الإثبات عن طريق الكتب الصحيحة المسلّم بصحتها عند أهل العلم . فهذا التسامح هو الذي جعل الناس يدخلون في دين الله أفواجاً عن طيب خاطر .

سرية زيد بن حارثة
إلى نبي سُلَيم بالجَمُوم[1]

بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى بني سُلَيم بالجَموم في شهر ربيع الآخر ، سنة ست من الهجرة ، فأصابوا امرأة من مُزينة اسمها حليمة[2] ، فدلّتهم على مَحَلّة من محالّ بني سلَيم ، فأصابوا نَعَماً ، وشاء ، وأسرى ، فكان فيهم زوج حليمة المُزَنية ، فلما قفل زيدٌ بما أصاب وهبَ رسولُ الله ﷺ لحليمة نفسها وزوجها .

سرية زيد بن حارثة
إلى العيص[3]

بلغ رسول الله ﷺ أن عيراً لقريش قد أقبلت من الشام ، فبعث زيد بن حارثة رضي الله عنه في سبعين[4] راكباً إلى العيص ، على شمال غربي المدينة ليتعرضها ، وذلك في ربيع الآخر ، سنة ست من الهجرة ، فأدركها وأخذها وما فيها ، وكان فيها فِضّة كثيرة لصفوان بن أمَيّة ، وأسر منهم ناساً ، فيهم أبو العاص[5] بن الربيع بن عبد العزَّى بن عبد شمس ، وهو من رجال قريش الأبطال ، ومن أشرافهم ، صاحب تجارة وأمانة ومال ، وهو زوج

---

(١) الجموم : ناحية ببطن نخل بالمدينة على بعد أربعة أميال .

(٢) وتوقف بعضهم في ثبوت إسلامها ، وقال : ولا أعلم لها إسلاماً ولا صحبة ولا ترجمة وليس في الصحابيات حليمة إلا المرضعة رضي الله عنها ولم يذكروا عدة الإبل والغنم والأسرى .

(٣) العيص : موصع في بلاد جهينة بين رضوى والمدينة .

(٤) وقيل في سبعين ومائة وصوبه ابن سعد .

(٥) واسمه لقيط أو الزبير أو هشيم مهشم أو ياسر . وأمه هالة بنت خويلد أخت خديجة رضي الله عنها .

زينب[1] بنت رسول الله ﷺ ، وكانت زينب رضي الله عنها قد هاجرت إلى المدينة وتركت زوجها على دينه ، فلما قدم المدينة زيد بن حارثة بالغنائم ، استجار أبو العاص بزوجته زينب رضي الله عنها ، فدخلت المسجد حين صلى رسول الله ﷺ ، فنادت في الناس : أيها الناس ، إني قد أجرت أبا العاص ، فلما سمع رسول الله ﷺ أقبل على الناس فقال : « أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعت ؟ » قالوا : نعم ، قال : « والذي نفسي بيده ما علمت بشيء من هذا حتى سمعت ما سمعتم ، المؤمنون يد واحدة ، يُجير عليهم أدناهم ، وقد أجرنا مَن أجارَتْ » ، ثم دخل رسول الله ﷺ منزله ، فدخلت عليه زينب فسألته أن يردّ عليه ما أخذ منه . فقال النبي ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم : « إنّ هذا الرجل منّا حيث علمتم ، وقد أصبتم له مالاً ، فإن تُحْسِنوا وتردوا عليه الذي له فإنا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو الفيء الذي أفَاء عليكم ، فأنتم أحق به » فقالوا : يا رسول الله ، بل نرده عليه . فردوا عليه ماله بأسره . فذهب إلى مكّة ، فأدّى إلى كل ذي مال ماله ، ثم قال : هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه ؟ قالوا : لا . قال : هل أوفيت ذمتي ؟ قالوا : اللهم نعم فجزاك الله خيراً فقد وجدناك وفيّاً كريماً . قال : فإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوفاً أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما ردَّها الله عليكم وفرغت منها أسلمت .

ثم خرج من مكّة وقدم المدينة ، وردّ عليه رسول الله ﷺ زينب بنكاح[2] جديد .

---

(١) وهي أكبر بناته ﷺ .

(٢) وقيل بالنكاح الأول ، وكونه بنكاح جديد هو الذي عليه العمل ؛ لأن الإسلام فرق بينهما ، قال الله تعالى : ﴿ لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾ . وقيل : إن هذه الآية متأخرة عن هذه الواقعة فلم يكن اختلاف الدينين مقتضياً للتحريم إلا بعد نزولها .

فهذا تكاتف المسلمين ، فهل من مجدد له ؟

سرية زيد بن حارثة
إلى الطَّرِف[١]

بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة رضي الله عنه في جمادى الآخرة سنة ست من الهجرة (إلى الطَّرِف) وهو ماء عين لبني ثعلبة ، في خمسة عشر رجلاً ، فأصابوا نعَماً وشاء ، وهربت الأعراب ، لأنهم خافوا أن يكون رسول الله ﷺ سار إليهم بنفسه ، وأن هؤلاء المقدمة ، وأصبح زيد في المدينة بالنعم[٢] وهي عشرون بعيراً ، ولم يلق كيداً ، وغاب أربع ليال .

سرية زيد بن حارثة
إلى حِسْمى

بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى حِسْمى ، وهو وراء وادي القرى في موضع قريب من المدينة ، على طريق الحاج من جهة الشام ، وذلك في جمادى الآخرة سنة ست من الهجرة[٣] . وسببها أنه أقبل دِحْيَةُ الكلبيّ من عند قَيْصَر[٤] ملك الروم ، وقد أجازه وكساه ، فلقيه الهُنَيْد في ناسٍ من جُذام[٥] بحِسْمى ، فقطعوا عليه الطريق ، فسمع بذلك نفر من بني الضُّبَيب ، فنفروا لإنفاذ دِحْيَة إليهم ، فاستنقذوا لدحية متاعه .

---

(١) اسم ماء على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة بطريق العراق شرقاً بشمال .

(٢) وترك الغنم لم يسقها لضعفها وعدم قوتها على السير واحتياجها لسائق .

(٣) وقيل سنة سبع فتكون بعد الحديبية ، لأنها بعد رجوع دحية من عند قيصر . وبعث دحية إلى قيصر كان آخر سنة ست بعد الحديبية .

(٤) لقب لكل ملك من الروم واسمه هرقل .

(٥) قبيلة من معد بجبال حسمى .

وقدم على رسول الله ﷺ دحية ، فأخبره بذلك ، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ، ومعه خمسمائة رجل ، ورَدّ معه دحية ، فكان زيد يسير الليل ويكمن النهار ، فأقبل بهم حتى هجموا على القوم مع الصبح ، وأغاروا عليهم ، فقتلوا فيهم وأثخنوهم جراحاً فقتلوا الهُنَيد وابنَه ، وأغاروا على ماشيتهم ونَعمهم ونِسائهم ، فأخذوا من النعم[1] ألف شاة ، ومن النساء والصبيان مائة . فرحل زيد بن رِفاعة الجذامي[2] في نفر من قومه إلى رسول الله ﷺ ، فدفع إليه كتابه الذي كان كتبه له ولقومه ليالي قدم عليه فأسلم ، وبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب إلى زيد بن حارثة يأمره أن يُخلى بينهم وبين حُرَمِهم وأموالهم ، فردّ زيد عليهم كل ما أخذه منهم .

• فهكذا يكون الوفاء بالعهد ، لأجل كتاب كتبه رسول الله ﷺ لزيد بن رفاعة حين قدم عليه ردَّ عليه وعلى قومه أموالهم ونساءهم ، وذلك بمجرد اطلاع رسول الله ﷺ على ذلك الكتاب أمر بإعادة كل ما أخذه زيد وأصحابه إليه ، وذهبت أتعاب زيد بن حارثة وخمسمائة صحابي معه هباءً ، لأجل الوفاء بالعهد ، مع أنهم هم الذين بدأوا بالعداء على دحية الكلبي ، ولكن الوفاء بالعهد فوق كل شيء في نظر الإسلام والمسلمين ، فهذا شأن الإسلام وأهله ، وبذلك تقدّم الإسلام وبتركه تأخر ، فالوفاء بالعهد أساس الإجتماع ، وهو شعار الإسلام ، وبه نزل الكتاب العزيز : ﴿ **وأوفُوا بِالْعَهْدِ** ﴾ .

---

(١) لعله سبق قلم أو تحريف مطبعي ، والصواب ألف بعير بدل شاة ومن الشاء خمسة آلاف شاة .

(٢) كذا عند ابن سعد وفيه قلب ؛ فعند ابن إسحاق رفاعة بن زيد ، وصححه اليعمري .

سرية زيد بن حارثة
إلى وادي القُرَى

بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى وادي القُرَى شمال المدينة ، على طريق الحاج من جهة الشام ، وذلك في رجب سنة ست من الهجرة، فلقي به بني فزارة ، وقاتلهم ، فقتل منهم ، وقُتِل من المسلمين قتلى ، منهم وَرْد بن مِرْداس رضي الله عنه ، وجُرِح زيد بن حارثة جَرحاً بليغاً ، وحُمِل على بعير إلى المدينة وبه رَمَق .

سرية عبد الرحمن بن عوف
إلى دُومَة الجَنْدَل

دُومَة الجندل ، هو حصن وقرى من طرف الشام ، على بعد خمس عشرة ليلة من المدينة ، وبينها وبين الشام خمس ليال ، وهو المسمى اليوم « بالجَوْف » وذلك في شعبان سنة ست من الهجرة .

أحضر رسول الله ﷺ عبدَ الرحمن بن عَوْف رضي الله عنه ، فأقعده بين يديه ، وعَمّمَه[1] بيده الشريفة وقال له : « أغزُ باسمِ الله ، وفي سبيل الله ، فقاتِلْ مَن كفر بالله ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا وليداً ، فهذا عهد الله وسيرة نبيه فيكم » ، ثم أمر بلالاً أن يدفع إليه اللواء ، وبعثه إلى كَلْب بدومة الجندل ، وقال له أيضاً : « إن استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم » . فسار عبد الرحمن بن عوف رضيْ الله عنه بجيشه ، حتى قدم « دومة الجندل » ، فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام ، فلم يجيبوه إلى

---

(١) وأرسل من خلفه أربع أصابع أو نحو ذلك ثم قال : هكذا يا ابن عوف فاعتم فإنه أحسن وأعرف . قال السيوطي : وأقل ما ورد في الذؤابة أربع أصابع ، وأكثر ما ورد ذراع وبينهما شبر .

الإسلام ، بل أجابوه أن لا يعطوه إلاّ السيف . ثم في اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي ، وكان نصرانياً ، وكان ملكهم ورئيسهم ، وأسلم معه ناس كثير من قومه ، وأقام من بقي على إعطاء الجزية . فكتب عبد الرحمن بن عوف مع رافع بن مكيث الجُهَني إلى رسول الله ﷺ ، بخبره . فكتب إليه رسول الله ﷺ أن يتزوج ابنة الأصبغ فتزوجها ، وهي تُماضِرُ بنت الأصبغ ، وقدم بها المدينة ، فولدت له أبا سَلَمَة[1] .

وهذه صورة من صور الإسلام ، فأوجّه نظ ر القارىء إلى وصاية رسول الله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه في عدم الغُلُوّ والتمثيل والغدر ، وكذلك الزواج بابنة رئيسهم ، فإن في المصاهرة من الألفة والرابطة والعلاقة ما يغني عن الشرح .

سرية علي بن أبي طالب إلى بني سَعْد

بلغ رسولَ الله ﷺ أن بني سعد بن بكر يريدون أن يمدّوا يهود خيبر لقتاله بجمع منهم . فبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه في مائة رجل ، فصار يسير الليل ويكمن النهار ، حتى انتهى إلى (الغَمِج) ، اسم ماء بين فَدَك وخيبر ، فوجد رجلاً ، فسأله عن حاله ، فقال : إنه يطلب ضالة ، فقال : هل لك علم بما وراءك من جمع بني سعد ؟ قال : لا علم لي به . فشدد عليه ، فأقر أنه عين لهم بعثوه إلى خيبر يعرض على يهودها نصرهم ، على أن يجعلوا لهم من تمرها كما جعلوا لغيرهم ، ويقدمون عليهم ، فقال له علي : أين القوم ؟ قال : تركتهم قد

---

(١) قيل اسمه   ، وقيل عبد الله ، ولم تلد لعبد الرحمن غيره وهو الحافظ الثقة ، كثير الحديث ، إمام العلماء .

تجمّع منهم مائتا رجل . قال : فَسِرْ بنا حتى تَدُلّنا ، قال : على أن تؤمنوني ؟ قال : إن دللتنا عليهم أو على سرحهم أمّنّاك وإلا فلا أمان لك ، قال : فذاك . فخرج بهم دليلاً حتى ساء ظَنّهم به ، ثم أقضى بهم إلى أرض مستوية ، فإذا نعم كثيرة وشاء . فقال : هذه نعمهم وشاؤهم . فأغاروا عليها . فقال : أرسلوني ، قالوا : حتى نأمن الطلب ، وهرب الرعاء إلى جمعهم فحذروهم ، فتفرقوا ، فقال الدليل : علام تحبسني وقد تفرقت الأعراب ؟ قال علي رضي الله عنه : حتى نبلغ معسكرهم . فانتهى بهم إليه ، فلم ير أحداً ، فأرسلوه ، وساقوا النعم والشاء معهم ، وكانت خمسمائة بعير ، وألفي شاة . فهربت بنو سعد بالظعن ، وقدِم عليّ رضي الله عنه ومَن معه المدينة ، ولم يلق حرباً .

سرية زيد بن حارثة
إلى أم قرفة

وسبب ذلك أن زيد بن حارثة رضي الله عنه خرج إلى الشام في تجارة ، وكانت معه بضائع لبعض الصحابة رضي الله عنهم ، فلما وصل وادي القرى ، وهو على سبع ليال من المدينة ، لقيه ناس من فزارة من بني بَدْر ، فضربوه وضربوا أصحابه ، وأخذوا كل ما كان معهم ، فقدِم زيدٌ على رسول الله ﷺ وأخبره بما جرى ، فبعثه رسول الله ﷺ في شهر رمضان ، سنة ست من الهجرة ، في جيش ، وأمرهم أن يسيروا الليل ويكمنوا النهار ، وأخذوا معهم دليلاً من فزارة ، فعلمت بهم بنو فزارة ، فجعلوا لهم عيناً على جبل عالٍ على الطريق يرقب قدومهم ، فلما كانت الصحابة على نحو ليلة من القوم أخطأ الدليلُ الطريقَ ، فأتوا القوْمَ من طريق آخر ، ولم يشعر بهم النذير ، فصبّحهم زيد وأصحابه وكبّروا ، وأحاطوا بمن وجدوا من بني

فزارة ، فقتلوهم ، وعمد قيس بن المُحَسّر إلى ملكتهم أمّ قِرْفَة[1] فقتلها ، وأسر سلمة بن الأكوع ابنتَها جارِيَةَ بنت مالك بن حُذيفة بن بدر ، وقدم زيد بن حارثة المدينة ، فقرع باب رسول الله ﷺ ، فخرج إليه يجرّ ثوبه حتى اعتنقه وقبّله ، وأخبره بما ظَفّره الله به ، فاستوهب رسول الله ﷺ جارية مِن سلمةَ بن الأكوعِ رضِي الله عنه ، فوهبها له ، ثم وهبها ﷺ لخاله حَزْن بن أبي وهب ، أسلم يوم الفتح ، وشهد اليمامة مع خالد بن الوليد رضي الله عنهما .

سرية عبد الله بن عتيك لقتل ابن أبي الحُقَيق

كان أبو رافع عبد الله ويقال له سلّام بن أبي الحُقَيق النَّضِيرِي من بني النَضير الذين حاربوا رسول الله ﷺ وأرادوا قتله غِيْلَةً ، وعفى عنهم من القتل ، وأجلاهم إلى خَيْبر . وكان أبو رافع من أشدّ اليهود إيذاءً لرسول الله ﷺ ، فهو الذي قام مع حُيَي بن أخطب بتحزيب الأحزاب في وقعة الخندق ، وأعطى المال الكثير لغطَفان لقتل النبي ﷺ . وكان الأوس والخزرج يتبارون ويتنافسون على نصرة رسول الله ﷺ ، والذبّ عنه ، والنيل من كل من عاداه ، أو أضمر له كيداً ، ويتسابقون إلى تنفيذ أوامره ، فكانت لا تفعل إحدى القبيلتين شيئاً مما فيه مكرمة عند رسول الله ﷺ إلاّ قامت

(١) وهي امرأة عجوز كبيرة واسمها فاطمة بنت ربيعة بن بدر الفزارية ، وهي التي جرى فيها المثل : أمنع من أم قرفة ، لأنها كان يعلق في بيتها خمسون سيفاً لخمسين رجلاً كلهم لها محرم ؛ كنيت بابنها قرقة . وقتلها كان عنيفاً ، ربط رجليها بحبلين ثم ربطهما إلى بعيرين حتى شقها . وإنما قتلها كذلك لسبها رسول الله ﷺ . وقيل لأنها جهزت ثلاثين راكباً من ولدها وولد ولدها وقالت : اغـزوا المدينـة واقتلوا محمداً .

الأخرى جادّة في عملٍ يكون فيه مُضاهاة لتلك القبيلة الأخرى أو ما يفوق عنها ، فلما بعث رسول الله ﷺ محمدَ بنَ مَسْلمة رضي الله عنه الأوسيّ الأنصاريّ لقتل كعب بن الأشرف ، فتوفق لذلك وقتله ، كما تقدّم تفصيله ، غَبطَت الخزرجُ الأوسَ على ذلك ، وقالوا : والله لا تذهب الأوس بهذه فضلاً علينا . فلما ظهر من أبي رافع بن أبي الحُقَيق مِن سَعْيه في إبادة النبي ﷺ وأصحابه ، ذهبت الخزرج إلى رسول الله ﷺ فاستأذنته في قتل ابن أبي الحُقَيق ، فأذِن لهم ، وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن عَتِيك الخَزرجيّ الأنصاريّ رضي الله عنه ، وبعث معه مَسعود بن سِنان ، وعبد الله ابن أنيس ، وأبا قَتادة الحارث بن ربعيّ ، وعبد الله بن عتبة ، وخُزَاعيَّ بن الأسود حليفاً لهم من أسلم ، وكلّ هؤلاء الرهط من الخزرج ، رضي الله عنهم .

فخرجوا في شهر رمضان ، سنة ست من الهجرة ، إلى أبي رافع بخَيبر ، فأمرهم رسول الله ﷺ بقتله ، ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة ، وأمّر عليهم عبد الله بن عَتيك[1] . فلما دَنَوْا من الحصن بخيبر ، وقد غربت الشمس ، وراح الناس بِسَرْحهم[2] ، فقال عبد الله بن عتيك لأصحابه : اجلسوا مكانكم ، فإني منطلق ومتلطف للبوّاب لعلي أن أدخل . فأقبل عبد الله بن عَتيك حتى دنا من باب الحصن ، فوجدهم فقدوا حماراً لهم وخرجوا بِقَبَسٍ يطلبونه . فخشي أن يُعْرَف ، فغطّى رأسه ورِجْله كأنه يقضي حاجته ، ثم نادى صاحبُ الباب : من أراد أن يدخل فليدخل قبل أن أغلقه ، يعني باب الحصن . فدخل عبد الله بن عتيك ، واختبأ في مربط حمار عند باب الحصن ، فلما دخل الناس أغلق الباب ، ثم علّق المفاتيح على وتد . فذهب أهلُ الحصن عند أبي رافع وتعشوا وسمروا ، فلما ذهبوا من عنده إلى

---

(١) وكانت أمه بخيبر يهودية أرضعته وهو يرطن باليهودية .

(٢) أي رجعوا بمواشيهم التي ترعى وتسرح وهي السائمة من إبل وبقر وغنم .

أماكنهم ، أخذ عبد الله بن عتيك المفاتيح ، وأغلق أبواب أماكن القوم عليهم من الخارج ، كي لا ينجده ويغيثه أحد منهم ، ففتح باب الحصن ، فصار كلما فتح باباً أغلقه عليه بعد دخوله منه ، ثم صعد إلى أبي رافع ، فقال عبد الله بن عتيك : إن نَذِروا بي أهلُ الحصن لم يصلوا إليّ حتى أقتله . فلما انتهى إليه ، وجد البيت مظلماً قد أطفىء سراجه . فلم يدر أين أبو رافع ، وكان يعرف لغتهم ، فقال : يا أبا رافع . قال أبو رافع : مَن هذا . فهوى عبد الله نحو الصوت فضربه ضربةً بالسيف وهو دَهِش ، فما أغنتْ شيئاً ، فصاح أبو رافع ، فخرج عبد الله ثم جاءه كأنه يغيثه ، وغيّر صوته ، فقال له : مالك يا أبو رافع ؟ فقال : ألا أعجبك ، لأمِك الويلُ ، دخل عليّ رجل فضربني بالسيف . فعمد إليه عبد الله فضربه ضربة أخرى بالسيف فلم تغن شيئاً . فصاح أبو رافع ، وقام أهله . ثم جاءه الثالثة ، وغيّر صوته كهيئة المُغيث ، فوجد أبا رافع مُستلقياً على ظهره ، فوضع ذُبابةَ السيفِ في بطنه وتحامل عليه حتى سمع صوتَ العظم ، فعرف أنه قتله[1] ، فخرج وجعل يفتح الأبواب باباً باباً ، حتى انتهى إلى دَرجة ، فوضع رجله يظن أنه قد انتهى إلى الأرض[2] ، فوقع على الأرض فانخلعت رِجْله ، فعصبها بعمامته ، وكانت الليلة مقمرةً ، ثم انطلق إلى أصحابه وهو يحجل على رجل واحدة ، فقال لهم : انطلقوا فبشِّروا رسول الله ﷺ ، فإني لا أبرح حتى أسمع الناعية . فلما كان وجه الصبح ، صعد الناعي ، فقال : أنْعي أبا رافع . فقام عبد الله بن عتيك يمشي حتى أدرك أصحابه قبل أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فانتهى إلى النبي ﷺ ، فحدّثه بما وقع ، فقال له : « ابسُط

---

(١) ووقع في الروايات أي الذي قتل أبا رافع عبد الله بن أنيس والصواب أن القاتل عبد الله بن عتيك وهو ما في صحيح البخاري وكفى به من مرجع يعتمد لا يقاومه غيره .

(٢) لأنه كان ضعيف البصر كما عند إبن إسحاق .

رِجْلك » فبَسطها ، فمسحها له رسول الله ﷺ ، فشفاه الله تعالى وعادت كما كانت .

هذه القصة لخصتها من صحيح البخاري وشرحه للحافظ ابن حجر العسقلاني لأنها عجيبة جداً فاعتمدت على أصح المصادر فيها .

فهذا عبد الله بن عتيك الأنصاري الخزرجي ، الذي اجترأ هذه الجرأة النادرة التي قلَّ أن يوجد لها نظير في التاريخ ، ولما رأيتها في كتب السير لم أطمئن لنقلها ، لشدة غرابتها ، حتى وجدتها في صحيح البخاري الذي هو أصح كتاب عند(٣) المسلمين بعد كتاب الله تعالى ، هذا عبد الله بن عَتِيك الذي حيّر الأفكار بجرأته ، وأدهش الأبطال بشجاعته ، اقتحم الحصن المملوء بالحرس وأهله ، وأخذ يُقفل الأبواب على نفسه حتى لا يحول أحد بينه وبين فريسته ، وهو مع ذلك يجهل حال الحصن ومداخله ، وفوق هذا لم يستعن بأحد من أصحابه أيضاً ، لكونه لم يفكر في السلامة ، بل كان جُلّ قصده قتل أبي رافع ، ولو ضحى حياته في سبيل ذلك . ثم يضرب أبا رافع الأولى ويخطىء المقتل . ويصرخ أبو رافع يستنجد أهل القصر ، فيجعل نفسه منجداً ، ثم يخطىء الثانية حتى قام أهل الحصن من صراخ أبي رافع ، ولم يَحُل كل ذلك بينه وبين قتل أبي رافع ، حتى ضربه بالسّيف الضربة القاضية ، وهو رابط الجأش ثابت القلب ، ولم يكتف بذلك ، بل إنه حين نزوله من الحصن انخلعت إحدى رجليه ، وقد انتهى من أبي رافع ، ثم يُدرِك أصحابه ، وهو فاقد إحدى رجليه التي يستعين بها على الهرب ، فيقول

---

(١) وفي تدوين الراوي نقلها عن ابن الصلاح قال : وأما ما رويناه عن الشافعي من أنه قال : ما أعلم في الأرض كتاباً أكثر صواباً من كتاب مالك ، وفي لفظ عنه : ما بعد كتاب الله أصح من موطأ مالك ، فذلك قبل وجود الكتابين يعني صحيح البخاري وصحيح مسلم .

لهم : اذهبوا وبَشِّروا رسول الله ﷺ بقتل أبي رافع ، ودعوني أسمع الناعي حتى أطمئن ، ألم يخطر بباله أن أهل الحصن إذا أصبحوا يبحثون على القاتل فيدركونه ورجله منخلعة ، فيقع في أيديهم ، ولا يستطيع الهرب ؟ . . وفوق ذلك لم يبعَث أحدَ رِفاقه الأربعة[1] يبَشِّر رسول الله ﷺ ويبْقي الباقين معه ليعينوه على الهرب ، ثم لم يبرح من خيبر حتى يسمع الناعي ، ويطمئن بقتله . ثم بعد ذلك يخرج من خيبر ويعود إلى المدينة ، فهل حدَّث التاريخ بمثل هذه الجرأة ؟ وهذا الثبات ، وقوّة الإرادة التي هي فوق طاقة البشر والله لو وقعت في هذا العصر من أحد الذين سمّوا أنفسهم بالفدائيين أو ما يقرب منها لغنّت له الجرائد والمجلات ، ولرقصت له أدوار التمثيل ، ولأصبح حديث المجتمعات والأندية ، ولأتعب ألسنة الناس حديثُه ، فلذلك اعتبرنا عمل عبد الله بن عَتيك هذا مُنْبِئاً على قوة الإيمان ، ولهذا اعتبرنا أيضاً أن جرأته فوق كل جرأة ، وشجاعته أعظم من كل شجاعة ، وهكذا تكون البطولة فأصبح ذكره مُسطّراً في أصح المصادر ، وفضله فوق كل فضيلة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . وليحيى ذكره مخلداً مدى الدهر .

سرية عبد الله بن رواحة إلى أُسَير[2] بن رِزَام اليهودي

بلغ رسول الله ﷺ أن يهود خيبر ، بعد قتل ابن أبي الحُقَيق ، أمّرَتْ عليها أُسَيْر بن رزام اليهودي ، فقال أُسَيْر : والله ما سار محمد إلى أحد

---

(١) الذين ذكرهم مبعوثين معه خمسة لا أربعة بذكره عبد الله بن عتبة .

(٢) بضم الهمزة وفتح السين المهملة وسكون التحتية وبالراء بقوله ابن سعد وابن إسحاق يسير بضم الباء وفتح السين .

من يهود ولا بعث أحداً من أصحابه إلّا أصاب منهم ما أراد ، ولكن سأصنع ما لم يصنع أصحابي ، فقالوا : وما عسيت أن تصنع ؟ قال : أسير في غطفان ، فأجمعهم ، ونسير إلى محمد في عُقْر داره [١]، قالوا : نِعْم ما رأيت ، فسار في غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب رسول الله ﷺ .

وجّه رسول الله ﷺ عبد الله بن رَواحة الخزرجيّ الأنصاريّ رضي الله عنه في ثلاثة نفر ، في شهر رمضان ، سنة ست من الهجرة ، سرّاً ، ليستكشف له الخبر ، فأتى ناحية خيبر ، ففرّق أصحابه في ثلاثة أماكن ، فدخل كلّ واحد منهم حائطاً ، فوعوا لما سمعوا من أُسَيرٍ وغيره ، وبعد ثلاثة أيام عادوا إلى المدينة ، وأخبروا رسول الله ﷺ بكل ما رأوه وسمعوه ، وقدم على رسول الله ﷺ خارجة[٢] بن سُهيل ، فاستخبره ﷺ عما وراءه ؟ فقال : تركت أُسَيْر بن رِزَام يسير إليك في كتائبَ من يَهود . فبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة في ثلاثين رجلاً إلى خبر ، في شهر شوال ، سنة ست من الهجرة ، فقدموا على أسَيْر بن رزام فقالوا له : إنك إن قدمت على رسول الله ﷺ استعملك على خيبر ، ويُحسن إليك . فشاور اليهودَ فخالفوه في الخروج ، وقالوا : ما كان محمد يستعمل رجلاً من بني إسرائيل ، قال : بلى ، قد مللنا الحرب . فخرج وخرج معه ثلاثون رجلاً من اليهود ، مع كل رجل رديفٌ من المسلمين ، فحمل أُسَيْر عبد الله بن رواحة[٣] ، حتى إذا كانوا (بِقَرْقَرَة) ، موضع على ستة أميال من خيبر ، ندم أُسَير على مسيره إلى رسول الله ﷺ ، وأراد الفتكَ بعبد الله بن رواحة ومَن معه ، ففطن له عبد الله

---

(١) بفتح العين وضمها وسكون القاف أي أصلها .

(٢) قال الشامي : لم أر خارجة في كتب الصحابة ، نقله عنه الزرقاني .

(٣) في السيرة الحلبية : عبد الله بن أنيس وكذلك في المواهب وسيرة ابن هشام وما هنا يطابق كتاب السيرة النبوية وعبد الله بن أنيس كان من المبعوثين .

وهو يريد السيف ، فاقتحم به عبد الله ، فضربه أُسَير بِمِخْرَشٌ[1] في يده فشجّه[2] ، ثم دفع بعيره ، فقال عبد الله : غدراً أيْ عدو الله ؟ فنزل فساق بالقوم حتى انفرد له أُسَير فضربه ابن رواحة بالسيف قطع ساقه مع فخذه ، فسقط عن بعيره ، ومال أصحاب رسول الله ﷺ على أصحاب أُسَيْر فقتلوهم ، لظهور الغدر منهم ، غير رجلٍ واحد أعجزهم جَرْياً ، فهرب على رجليه ، ولم يصب من المسلمين أحد غير الشجة التي في يد عبد الله بن رواحة ، ثم قَدِموا المدينة على رسول الله ﷺ ، فقال : « قَدْ نَجّاكُمُ اللّهُ مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِين » .

هذا ما كان من قصة أُسَير بن رِزام اليهودي مع عبد الله بن رواحة الخزرجي الأنصاري وأصحابه رضي الله عنهم . قاتل الله اليهود حيث ما حلّوا وارتحلوا ، فإنهم لا يتركون الغدر ، لأنه سلاحهم الوحيد الذي يعتمدون عليه في كل أعمالهم وأفعالهم ، فلو لم يغدروا وذهبوا مع عبد الله بن رواحة إلى رسول الله ﷺ لرأوا منه كل حفاوة وإكرام ، ولم أكن مبالغاً في قولي هذا أو مُحابياً ، فقد عفا رسولُ الله ﷺ عمن أراد قتله حين كان نائماً تحت الشجرة ، فسلّ سيفه وقال : يا محمد من يمنعك مني ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « الله يمنعني » ، فوقع السيف من يده وأخذه رسول الله ﷺ وقال له : « من يمنعك مني ؟ » فقال : لا أحد ، فعفا عنه ، وذلك لأن النبي ﷺ ما جاء لسفك الدماء ، بل جاء لحقنها ، وليجعل الناسَ أمّة واحدة ، تعبد الله تعالى وتكُفّ عن الأذى . ولكن مَن كان قلبه مملوءاً غدراً وخيانة يظن أن الناس كلهم على شاكلته ، كما أن المؤمن المتقي يظن أن الناس مثله ، ولأن اليهود لا يعرفون من أمور الإجتماع غير المكر والخدعة ،

---

(١) المخرش : المحجن ؛ وهو عصا معقوفة يجذب بها البعير ونحوه .
(٢) في رأسه ما صوبه وانظر قوله في يده .

فقد جعلهم الله تعالى على الدوام مخذولين ، لا تقوم لهم قائمة مدى الدهر ، ولا يحيط المكر السيء إلا بأهله . كان أُسَيرٌ وقومه هم أصحاب الركائب ، وهم يومئذ على الأشدة ، والمسلمون مشاة غير عبد الله بن رواحة كان رديف أُسَير ، فالقوة والمنعة كانت في هذه الوقعة في جانب اليهود ، فلما علموا أنهم أصحاب القوة والتفوق على المسلمين غدروا بهم ، ولم يعلموا أن قوة الإيمان فوق كل قوة ، فلذلك كان الفوز في جانب المؤمنين على الكافرين ، فمكّنهم الله تعالى من رقابهم ، ونالوا جزاء الغادرين ، وهم يعرفون ذلك من أنفسهم ، وقد صرَّح به أُسَير ، كما جاء في أوّل هذه السرية ، فقال : والله ما سار محمد إلى أحد من يهود ، ولا بعث أحداً من أصحابه إلا أصاب منهم ما أراد . ومن الغريب أنهم يعرفون ذلك ويعتقدونه ، ولكنهم لا يسلمون ولا يُسالمون ، مع علمهم بحالة من أسلم منهم ، وكيف بلغ من الرفعة عند نبي الإسلام والمسلمين ، ولكن من جُبِل على الخبث ، والمكر ، والغدر ، فلا علاج له غير السيف .

سرية كرز بن جابر الفهري
(إلى عُكْل وعُرَينة)

جاء إلى رسول الله ﷺ ثمانية أشخاص من (عُكْل) وهم حيٌ من قُضاعة ، و (عُرَيْنَة) وهم حيٌ أيضاً من بَجِيلة ، وأظهروا الإسلام ، وكانوا مصابين بمرض في بطونهم ، فقالوا : يا نبي الله ، كنا أهل ضَرْع ، ولم نكن أهلَ ريف ـ واستوخموا[1] المدينة ـ فاستأذنوا من رسول الله ﷺ بالخروج إلى الإبل . وكان من صفاته ﷺ التلطّف بالغرباء ، والشفقة على الفقراء ، وعنايته بهم أكثر من غيرهم ، فأمر لهم رسول الله ﷺ بِذَوْد ـ نحو عشرة من

---

(١) أي كرهوا الإقامة بها لما فيها من الوخم أو لم يوافقهم طعامها .

الإبل ـ ومعها راعٍ لها ، وهو مولاه يسار ، وأمرهم أن يخرجوا إليها فيشربوا من ألبانها وأبوالها[1] ، فانطلقوا ، حتى إذا كانوا بناحية الحَرَّة[2] ، فشربوا حتى صحّت أجسامهم وسمنوا ، ثم كفروا بعد إسلامهم ، وخانوا الله ورسوله ، واستاقوا الإبل ، فأدركهم يسار الراعي ، فقاتلهم ، فقطعوا يديه ورجليه ، وسَمَلوا عينيه ، وغرزوا الشوْكَ في لسانه[3] فمات . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فبعث كُرْزَ بن جابر الفهريّ القرشيّ الشجاع الفارس الشهير ، رضي الله عنه ، في عشرين فارساً ، في طلبهم ، وذلك في شهر شوال سنة ست من الهجرة ، فساروا في طلبهم ، فوجدوا امرأة تحمل كَتِف بعير ، فقالت : مررت بقوم قد نحروا بَعيراً ، فأعطوني هذا ، وهم بتلك المفازة . فساروا إليهم ، فوجدوهم فأسروهم . وأتوا بهم إلى رسول الله ﷺ ، فأمر عليهم بالقصاص ، فقُطعت أيديهم ، وسملت أعينهم ـ فقؤوها بحديدة محماة ـ وأُلقوا في الحَرَّة حتى ماتوا ، فنالوا جزاءهم . وهذه سنة الله تعالى في خلقه ، فكل من يطلب الخير يجده ، وكل من يطلب الشر يناله ، وجعل عاقبة الظالمين والباغين والمعتدين والمتمردين على الإنسانية ومكارمِ الأخلاق الرّدى ، وعاقبة المتقين الخير والسعادة والرشد والفلاح في الدنيا والآخرة ، فلو أن هؤلاء اعترفوا بالجميل ، وشكروا رسول الله ﷺ على حُسْن عنايته بهم في كونه أمر لهم بعشرة من الإبل وخادم يخدمها لما نالهم

---

(١) فيه دلالة لمذهب أحمد ومالك ومن وافقهما القائلين بطهارة بول مأكول اللحم ، وخالفهم أبو حنيفة والشافعي والجمهور فذهبوا إلى نجاسة الأبوال سواء مأكول اللحم وغيره وحملوا الحديث على التداوي فلا يفيد الإباحة . والمناسبة دعت إلى ذكر المسألة وإلا فالبحث عنها وإقامة الأدلة في كتب الفقه ليس هذا موضعها .

(٢) الحرة (بفتح الحاء المهملة وشد الراء) : أرض ذات حجارة سود بظاهر المدينة كأنها أحرقت بالنار .

(٣) في سيرة ابن هشام ، في عينيه لا لسانه ؛ وعند ابن سعد : في لسانه وعينيه .

مما نالهم شيء ، ولكنهم أبَوْا إلا أن يكونوا مثال الشر والخيانة ، وأمثال هؤلاء كثير ، ولا يخلوا منهم زمان ولا مكان ، وتراهم مخذولين غير ناجحين ، ومنبوذين غير مرضيين ، فهم في شقاء مستمر في الدنيا والآخرة .

سرية عمرو بن أمية الضِّمري
(إلى أبي سفيان)

كان أبو سفيان بن حرب لا يترك وسيلة من وسائل النكاية برسول الله ﷺ إلا عملها ، ولا حيلة من حيل الفتك به إلا ارتكبها ، حتى ضاع فكره ، وذهب رشده ، ولم يظفر ببغيته ، فقال يوماً لقريش : يا معشر قريش ، ألا أحد يغدر محمداً ، فإنه يمشي في السوق وحده ؟ فأتاه رجل من الأعراب في منزله فقال : قد وجدت أجمَعَ الرجال قَلْباً ، وأشدهم بطشاً ، وأسرعهم جَرْياً ، فإن أنت قويتني خرجت إليه حتى أغتاله ومعي خنجر مثل خافية[1] النسر ، وإني هادٍ بالطريق . فقال له أبو سفيان بن حرب : أنت صاحبنا . فأعطاه بعيراً ونفقة ، وقال له : إطْوِ أمرك . فخرج ليلاً ، فسار على راحلته خمساً ، وصَبّح ظهر الحرة في اليوم السادس ، ثم أقبل يسأل عن رسول الله ﷺ حتى دُلّ عليه ، فعَقَل راحلته ، ثم أقبل على رسول الله ﷺ وهو في مسجد بني عبد الأشهل ، فأقبل الرجل ومعه الخنجر ليغتاله ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « إن هذا ليريد غدراً ، واللّهُ حائلٌ بينه وبين ما يريد » . فذهب لينحني على رسول الله ﷺ فجذبه أُسَيد بن حُضَير رضي الله عنه بداخلة إزاره[2] ، فإذا بالخنجر سقط في يد أُسيد بن حضير ، فقال

---

(١) الخافية : ريشة صغيرة في جناح النسر دون العشر ريشات من مقدم الجناح .
(٢) أي طرفه وحاشيته من داخل . وقوله : دمي دمي . أي أتركوا دمي ، أو خلوا دمي .

الأعرابي : دمي ، دمي . فأخذ أُسيد بن حضير بِلَبّته وخنقه أشد الخنق ، فقال له رسول الله ﷺ : « أصدقني ما[1] أنت » ، قال : وأنا آمن ؟ قال : « نعم » . فأخبره ، فخَلّى عنه ، فأسلم ، وقال : يا محمد ، والله ما كنت أخاف الرجال ، فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي وضعفت نفسي ، ثم إنك اطلعت على ما هممت به مما لا يعلمه أحد ، فعرفت أنك ممنوع ، وأنك على حق ، وإن حزب أبي سفيان حزبُ الشيطان . فجعل ﷺ يبتسم .

هذا ما كان من غدر أبي سفيان ، وفشل الإعرابيّ وإسلامه ، فإذا أردنا أن نتكلم حول هذه الحادثة بإنصاف ، وقسناها على غيرها من الحوادث أمثالها . فهل يوجد أحد في الدنيا من الملوك ، أو السلاطين ، أو الأمراء ، أو الوزراء ، يرى رجلاً يقدم على قتله ويتركه بدون أن يذيقه أنواع العذاب ، وأصناف البلاء ، وأشكال الموت ؟ كلا والله ، ثم كلا والله . إن النفس البشرية لا تسمح عمن أراد بها شراً مهما كانت صفته ، ومهما بالغ في الصفح والتسامح . ولم تكن هذه الحادثة الأولى في بابها ، بل قد سبقها حوادث مثلها . وقد عفا رسول الله ﷺ عن فاعلها . غير أن رسول الله ﷺ استعظم ذلك من أبي سفيان بن حرب ، بعد أن وصل إلى المدينة مستجيراً برسو الله ﷺ أن يسمح لثمامة بن أثال أن يمدهم بالميرة من اليمامة ، كما تقدم تَفصيلُه ، ولم يقابل الحسنة بمثلها ، ولا الجميلَ بالشكر ، بل إنه عَمّدَ ذلك الإعرابيّ على قتل رسول الله ﷺ لا لشيء سوى الحسد المحض الذي مكّنه الشرك بالله تعالى في نفسه . فأراد رسول الله ﷺ أن يقابله بالمثل .

فبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضَّمْري ، وكان شجاعاً ذا جُرأة ونجدة ، ومعه سلمة[2] بن أسلم الأنصاري ، رضي الله عنهما ، إلى أبي

---

(١) لفظ ما عند الأصوليين لغير العاقل غالباً ، وخوطب بها لأن فعله فعل ما لا يعقل .
(٢) وقيل جبار بن صخر الأنصاري .

سفيان بن حرب وقال : « إن أصبتما منه غِرَّةً فاقتلاه » فقدِما مكّة ، وجلسا بشِعْب[1] ، ثم دخلا مكّةَ ليلاً ، فقال سلمة الأنصاري لعمرو بن أمية الضمري : لو أنَّا طفنا بالبيت وصَلّينا ركعتين ؟ فقال عمرو : إن القوم إذا تعشوا جلسوا بأفنيتهم ، وإنهم إن رأوني عرفوني ، فإني أعْرَف بمكّةَ من الفرس الأبلق ، فقال سلمة : كلا إن شاء الله . وأبى أن يطيع عمراً في رأيه . فطافا بالبيت ، وصلّيا ، فخرجا يُريدان أبا سفيان ، فرأى معاوية بن أبي سفيان عمروَ بن أمية الضمري فعرفه ، فقال : ما قدم مكة عمرو إلا لشر ، فقال عمرو لصاحبه : النجاة فقد عرفنا القوم . فخرجا يشتدان ، حتى صعدا في جبل ، وخرجت قريش في طلبهما ، فلما علا عمرو وصاحبه الجبل يئست قريش منهما ، فدخلا كهفاً في جبل ، فأخذا حجارة ورضماها[2] دونهما ، وباتا فيه . فلما أصبحا غدا عبدُ الله بن مالك التّيْمي يقود فرساً له ، فغشيهما في الغار فقال عمرو : إن رآنا صاح بنا فأُخِذنا وقُتلنا . وكان معه خنجر قد أعدّه لأبي سفيان ، فخرج إليه عمرو فضربه على ثديه ، فصاح صيحة أسمعَ أهلَ مكّة ، ورجع عمرو فدخل مكانه ، وجاءت قريش يشتدون وهو بآخر رمق ، فقالوا : مَن ضَرَبك ؟ فقال : عمرو بن أمية . . وغلبه الموت ، فمات مكانه ، ولم يَدْلُلْ على مكانيهما ، فاحتملاه ، فقال عمرو لصاحبه لما أمسيا : النجاة . فخرجا من مكّة قاصدين المدينة ، فمرّا بحرسٍ وهم يَحرسون جُثّة خُبَيْب بن عَدِيّ الأنصاري رضي الله عنه ، بعد ما قتله المشركون صبراً ، وهو أحدُ العشرة القُرّاء الذين كانوا مع عاصم بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه ، خشية أن يأخذها المسلمون فيدفنوها ، فلما حاذى عمروٌ[3] الخَشَبة التي عليها خُبيب شَدّ عليها

(١) الشعب (بتشديد الشين المكسورة) : الطريق الخفي بين جبلين .

(٢) أي جعلا بعض الحجارة فوق بعض لتكون حاجزاً بينها وبين من يطلبهما .

(٣) وفي رواية أنه ﷺ بعث الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود لإنزال خبيب ؛ وعلى

فاحتملها ، وخرج يشتدّ ، فخرجوا وراءه ، فأتى[1] جُرُفاً ، فرمى الجثة فيه ، فهال عليها التراب ، فتوارت الجثّة ، وغيّبها الله تعالى عنهم ، فلم يقدروا عليه ، فقال عمرو لصاحبه : النجاة . ومضيا ، ثم أتيا إلى جبل ودخلا في كهف ، فبينما هما فيه إذ دخل عليهما شيخ من بني الدِّيل أعور في غنيمة له ، فقال : مَن الرجل ؟ فقلت : من بني بكر ، فمَن أنت ؟ قال : من بني بكر ، فقلت : مرحباً ، فاضطجع ، ثم رفع عقيرته فقال :

وَلَسْتُ بِمُسْلِمٍ ما دمْتُ حَيّاً   وَلَسْتُ أدِينُ دِينَ المُسْلِمِينَا

ثم أمهلَه عمرو حتى نام ، فأخذ قوسه فجعل طرفه في عينه الصحيحة ، ثم تحامل عليه حتى بلغ العظم ، ثم خرج ومعه صاحبه حتى جاء العَرْجَ[2] ، ثم سلك حتى هبط النَّقيع[3] ، فالتقى بجاسوسين من قريش ، كانت بعثتهما عيناً إلى المدينة ، فقال عمرو لهما : استأسرا ؟ فأبيا ، فرمى أحدهما بسهمٍ فقتله ، وأسر الآخر ، فقدما به المدينة ، وأخبرا رسول الله ﷺ الخبر ، فضحك .

هذا ما كان من أمر عمرو بن أمية الضمْري وسلامةِ أبي سفيان بن حرب ، على يد سلمة بن أسلم الأنصاري ، وذلك لأنه خالف سلمةُ رأيَ عمرو بن أمية ، وصمَّم على الطواف ، فلما طاف رآهما معاوية بن أبي سفيان فاحترز منه ، لما يعلم من بأس عمرو بن أمية ، ذلك الجريء المدهش ، والشجاع المحير ببأسه الأفكار . وكان القتل نصيب عبد الله بن

تقدير صحة الروايتين والجمع ممكن بأنْ عمرو بن أمية التقى معهما حين إرسالهما لإنزال خبيب وكان هو راجعاً من مكة فحصلت منه المشاركة .

(١) أي مهبط ، مسيل .

(٢) في القاموس : العرج ، اسم منزل بطريق مكة أو واد بالحجاز .

(٣) النقيع : موضع ببلاد مزينة على ليلتين من المدينة .

مالك التيمي والشيخ الأعور الدِّيلي ، ودفن جثّة خُبيب بن عَديّ الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ فسلم أبو سفيان من القتل ، وذلك لأمر أراده الله تعالى ، فلا رادّ لقضائه ، ولأجل أن تختم له السعادة بالإسلام ، ويكون في عداد الصحابة ، بعد أن ناصل رسول الله ﷺ وحاربه وآذاه ومكر به وغدر . فأبقاه الله تعالى حتى يرى عزّ الإسلام وفتح مكّة ، وذل المشركين ، ومعاملة رسول الله ﷺ أهل مكّة بعكس ما كانوا يعاملونه وأصحابه ، حيث عاملهم بالرفق واللطف والإحسان ، وائتلاف قلوبهم بالعطايا الجزيلة ، وفي مقدمتهم أبو سفيان نفسه ، وابنه معاوية ، وزوجته هند بنت عتبة ، آكلة كبد حمزة عم رسول الله ﷺ ، كما سيأتي تفصيل ذلك في فتح مكة .

عمرة الحديبية[1]
وبيعة الرضوان
وصلح قريش

لما عزم رسولُ الله ﷺ أن يعتمر ، ندب أصحابه المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم ، للعمرة ، واستنفر العربَ ومَن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه ، وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب ، أو يصدّوه عن البيت ، وقدِم عليه في ذلك الحين بشر بن سفيان بن عمرو الخزاعي ، في أواخر شوّال ، مُسْلِماً ، فقال له رسول الله ﷺ : « يا بِشْر ، لا تبرح حتى تخرج معنا ، فإنّا إن شاء الله معتمرون » فأقام ، وابتاع رسول الله ﷺ بُدْناً ، فكان يبعث بها إلى (ذي الجدر) حتى حضر خُروجُه ،

(١) بتخفيف الياء وتشديدها ، وهي بئر كما ثبت في الصحيح عن البراء ، سمي المكان بها ، وقيل شجرة ، وقال المحب الطبري : قرية قريبة من مكة ، أكثرها في الحرم ، وسبب خروجه ﷺ أنه رأى في النوم أنه دخل البيت وحلق رأسه وأخذ مفتاح البيت وعرف مع المعرفين ، فعزم على العمرة واستنفر الصحابة .

فأمر بها فَجُلِبَتْ إلى المدينة ، وسلمها إلى ناجية بن جُنْدب الأسْلَمي ، فقدمها إلى (ذي الحُلَيفة) . ثم لما آن وقت السفر ، دخل بيته فاغتسل ولبس ثوبين من نسج صحار ، وخرج رسول الله ﷺ من المدينة يوم الاثنين ، هلال ذي[1] القعدة ، سنة ست من الهجرة ، قاصداً مكّة يريد العُمرة ، ولا يريد قتالاً ، وخرج من أصحابه المهاجرين والأنصار ألف وخمسمائة[2] ، وأخرج معه زوجته أم سَلَمة رضي الله عنها ، وساق سبعين بَدَنة[3] ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم[4] . فلما أتى (ذا الحليفة[5]) صلى الظهر ، ثم دعى بالبُدْن فجُلِّلَت[6] ثم أشْعرَ منها عِدة[7] وهي موجّهات إلى القبلة ، في الشّق الأيمن ، بيده الشريفة ، ثم أمر ناجية بن جُنْدب فأشَعر ما بقي ، وقلّدَهن نَعْلاً . وأشْعر المسلمون بُدْنَهم وقَلّدوها وكان معهم مائتا فرس ، وبعث رسول الله ﷺ بُسْرَ بن سفيان الخزاعي عيناً له إلى قريش ليأتيه بخبرهم ، وقَدّم عَبّاد بن بشر طليعةً في عشرين فارساً ، ثم صلّى ركعتين ، وركب ناقته القَصْواء من باب المسجد بذي الحليفة . فلما انبعثت به راحلتُه

---

(١) وهذا عند الجمهور ، وجاء عن هشام بن عروة عن أبيه : أنه خرج في رمضان واعتمر في شوال ، وهذا وهم كما ذكره ابن القيم ، إنما كانت غزاة الفتح في رمضان . وفي الصحيحين عن أنس : اعتمر ﷺ أربع عمر كلهن في ذي القعدة فذكر منها عمرة الحديبية .

(٢) وفي رواية ألف وأربعمائة وأخرى ألف وثلاثمائة . قال ابن القيم : والقلب أميل إلى رواية ألف وأربعمائة . والبيهقي مال إلى ترجيحها لاتفاق البراء وجابر وسلمة بن الأكوع ومعقل بن يسار والمسيب بن حزن عليه .

(٣) البدنة : ما يهدى إلى البيت الحرام من إبل وبقر .

(٤) ويقال أبو رهم كلثوم بن الحصين . وقال ابن هشام : استخلف غيلة بن عبد الله الليثي فيحتمل أنه استخلفه وكلثوماً على المصالح والامام ابن أم كلثوم .

(٥) ميقات أهل المدينة .

(٦) جلل البدن : ألقى عليها برداً أو غيره .

(٧) بأن ضرب صفحة السنام اليمنى بحديدة فلطخها بدمها اشعاراً بأنه هدي .

مستقبلةً أحرم بالعُمْرة ، ليأمن الناس حربه ، وليعلموا أنه إنما خرج زائراً لهذا البيت ومعظِّماً له ، وأحرم غالب أصحابه وأمّ المؤمنين أمّ سلمة بإحرامه ، ومنهم من لم يحرم إلا بالجُحْفَة ، وسلك طريق البيداء ، ومرّ فيما بين مكّة والمدينة بالأعراب من بني بكر ، ومزينة ، وجهينة ، فاستنفزهم ، فتشاغلوا بأموالهم ، وقالوا فيما بينهم : يريد محمد يغزو بنا قوم مُعِدّين في الكُراع والسّلاح وإنما محمدٌ وأصحابه أَكْلَةُ جَزور[1] ، لن يرجع محمد وأصحابه من سفرهم هذا أبداً ، قوم لا سلاحَ معهم ولا عُدّة . وذلك لمّا رأوا رسول الله ﷺ محرِماً ولم يكن معه وأصحابه من السلاح شيء إلا السيوف في القُرَب[2] ، ظَنّوا أنهم قادمون لحرب قريش بغير سلاح ، وكذلك كلّ من لحقه من العرب لا يَشكُّون في الفتح . ثم قدّم رسول الله ﷺ ناجية بن جُنْدب بالهَدْيِ مع فِتْيانٍ من أسلم ومعهم هَدْي المسلمين . ولقي رسول الله ﷺ طائفة من بني نَهْد ، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ، وأهدوا له لبناً من نعمهم ، فقال : « لا أقبل هَدِيّةَ مُشرِك » ، فابتاعه المسلمون منهم وابتاعوا منهم ثلاثة « أضبّ »[3] ، فأكل قوم أحِلّة ، وسأل المحرمون رسول الله ﷺ عنها فقال : « كلوا . فكل صيد البر لكم حلال في الإحرام تأكلونه إلا ما صدتم أو صِيد لكم » . ثم سار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بغدير « الأشطاط[4] » قريباً من عُسفان ، أتاه بُسْر بن سُفيان الخزاعي وقال : إن

---

(١) هذا كناية عن قلة عددهم فإن أكلة الجزور لا يزيدون على العشرة .

(٢) الأغماد ، وهو بضمتين : جمع قراب ؛ ويجمع أيضاً على أقربة .

(٣) أضب ، وضباب : جمع ضب ، وهو حيوان بري . وكانت الأعراب يحرصون على صيده وأكله . وحكم أكله الحل ؛ روى الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قيل له : أحرام هو؟ قال : « لا ، ولكنه لم يكن بأرض قومي فأجدني أعانه » ، وفي رواية المسلم : « لا آكله ولا أحرمه » .

(٤) جمع شط ؛ وشط الوادي جانبه . قال السهيلي : وبعضهم يقول فيه الأشظاظ بالظاء المعجمة وهو ماء بقرب عسفان .

قريشاً جمعوا لك جموعاً ، وقد جمعوا لك الأحابيش[٢] وغيرهم ، وهم مُقاتِلوك وصادُّوك عن البيت ، ومانعوك من دخول مكّة ، فإنهم قد سمعوا بمسيرك ، فخرجوا ومعهم العُوذُ والمَطافيل[٣] ، ولبسوا جلود النَّمر ، وقد نزلوا بذي طُوىً يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً ، وهذا خالد بن الوليد في خَيْلهم قَدّموها إلى كُراع الغَميم في مائتي فارس . فقال رسول الله ﷺ : « يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب ، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوّة ، فما تظن قريش ، فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالِفَة[٤] » . ثم قال : « أشيروا أيها الناس عليّ ، أترون أن أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يَصدّونا عن البيت ، فإن يأتونا كان الله عزَّ وجلّ قد قطع عيناً من المشركين ، وإلا تركناهم محروبين » ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله ، خرجت عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد ، فتوجّهْ له ، فمن صدّنا عنه قاتلناه . فقال رسول الله ﷺ : « أُمضوا على اسم الله » . فمضوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال رسول الله ﷺ : « إن خالد بن الوليد بالغَمِيم ـ موضع قريب من مكّة ـ في خيلٍ لقريش طليعةً ، فخذوا ذات اليمين » ، فما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقَتَرَةِ الجيش ، فانطلق يركض نذيراً لقريش ، وسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بالثنية[١] التي يهبط منها عليهم بَرَكَتْ راحلتُه ، فقال

---

(١) وهم جماعة من قبائل شتى من العرب حلفاء قريش ، وابتداء حلفهم كان على يد قصي بن كلاب .

(٢) العوذ ، جمع عائذ ، وهي الناقة ذات اللبن ، والمطافيل : الأمهات الي معها أولادها .

(٣) السالفة : صفحة العنق .

(٤) الطريق المرتفع في الجبل وهي ثنية المرار ، طريق بالجبل مشرف على الحديبية .

الناس : حَلْ[٢] ، حَلْ ، فألَحّتْ ـ أي تمادت على عدم القيام ـ فقالوا : خَلأت[٣] القَصْواء ، خَلأت القَصْواء[٤] ، وما ذاك لها بخُلُق ، ولكن حبَسَها حابِس الفيل ـ أي حبسها الله تعالى عن دخول مكة كما حبس الفيل عن دخولها . ومناسبة ذلك أنه لو دخل رسول الله ﷺ مكّة وأصحابه على تلك الصورة وصدّتهم قريش عن دخولها لوقع بينهم القتال الغَضّ الذي لا يُبقِي ولا يذر ، ولسُفكت الدماء أنهاراً ونُهِبت الأموال ، كما لو قدر دخول الفيل وأصحابه مكّة ، لكن السابق في علم الله تعالى أن سيدخل في الإسلام معظمُ قريش ، وسيخرج من أصلابهم الطيِّب الطاهر من النسل ، الذين يجاهدون في الله حق جهاده ، ويفتحون الممالك والأمصار ، وينشرون دين الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها ، وينظمون المشاريع العمرانية ، وكذلك كان بمكة جمع كثير مؤمنون من المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، لو دخلها حرباً لما أمن عليهم من أن يصاب منهم أناس بغير عمد ، ثم قال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يسألوني خُطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » . ثم زجرها فوثَبَت[١] وكره أن يلقاهم . وكان بهم رحيماً ، لأن غرضه الوحيد إصلاحهم ولم يقصد هلاكهم ، بخلاف غرض المشركين السيء ضد رسول الله ﷺ وأصحابه ، واستعمالهم كل وسيلة على النكال برسول الله ﷺ وأصحابه بكل ما إستطاعوا .

ثم قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَجل يخرج بنا على طريقٍ غير طريقهم الّتي هم بها » ، فقال ناجية بن جُنْدب بن عُمير الأسلمي سائق البدن : أنا

---

(١) بفتح الحاء المهملة وسكون اللام : كلمة تقال للناقة إذا بركت لتسير .

(٢) خلأت : حرنت وبركت من غير علة .

(٣) بفتح القاف وصاد مهملة تمد وتقصر : اسم ناقته ﷺ لأن طرف أذنها كان مقطوعاً وقيل لا تجارى في الجري .

(٤) أي قامت بسرعة .

بأبي أنت وأمي يا رسول الله . فسلك بهم طريقاً وعرة جرداء[٢] بين شِعابٍ . فلما خرجوا منه وقد شَقّ ذلك على المسلمين ، وأفْضَوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي قال رسول الله ﷺ للناس : « قولوا نستغفر الله ونتوب إليه » فقالوا ذلك ، فقال : « والله إنها للحِطّة التي عُرِضت على بني إسرائيل فلم يقولوها » ، فأمر الناس فقال : « اسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمْض »[٣] في طريقٍ على ثَنِيّة المُرارِ مَهْبط الحُدَيْبِية من أسفل مكّة ، فسلك الجيش ذلك الطريق ، فلما رأت خيلُ قريش قَتَرَة الجيش قد خالفوا عن طريقهم رجعوا راكضين إلى قريش ، وخرج رسول الله ﷺ حتى سلك في ثنية المُرار بركتْ ناقتُه بأقصى الحُدَيْبِية على بئر فيها ماء قليل . فصار الناس يأخذون منه قليلاً قليلاً ، فلم يلبث حتى نَزَحوه ، وشكَوْا إلى رسول الله ﷺ العطش ، فنَزع سهماً من كنانته[٤] وأعطاه ناجية بن جندب[١] الأسلمي ، فنزل البئر فغرزه في جوفه ، فجاش الماء ، فشربوا وسَقَوْا . وما زال يجيش[٢] بالرّيّ حتى صَدَروا عنه ، أي ارتووا من الماء .

فبينما هم كذلك إذ جاء بُدَيل بن ورقاء الخُزاعي ، من أهل تهامة[٣] ، في نفر من قومه خُزاعة ، منهم عمرو بن سالم ، وخراش بن أمية ، وخارجة بن كُرْز ، ويزيد بن أمية ، وكانت خزاعة عَيْبَة[٤] نُصْحٍ

---

(١) أي كثير الحجارة .
(٢) اسم موضع .
(٣) وعاء من الجلد يكون فيه النشاب .
(٤) وقيل ناجية بن أعثم . أخرجه ابن سعد في الطبقات من طريق أبي مروان قال : حدثني أربعة عشر رجلاً من الصحابة بذلك ، وقيل البراء بن عازب .
(٥) أي يفور ويرتفع .
(٦) لبيان الجنس لأن خزاعة كانوا من جملة أهل تهامة ومكة وما حلوها ؛ أصله من التهم وهو شدة الحر وركود الريح .
(٧) بفتح العين : هو موضع سرك وأمانتك .

لرسول الله ﷺ حيث كانوا قد تحالفوا مع بني هاشم في الجاهلية وبقي ذلك إلى الإسلام ، فقال بُدَيل : إني تركت كعب بن لؤيّ وعامر بن لؤيّ نزلوا على أعداد[1] مياه الحُديبية ، معهم العوذ والمطافيل ، وهم مُقاتلوك وصَادُّوك عن البيت ، فقال النبي ﷺ : « إنا لم نجيء لقتال أحد ، ولكنا جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نَهكتهم الحربُ وأضرّت بهم ، فإن شاؤوا مادَدْتُهم مدّة ويُخْلُوا بيني وبين الناس ، فإن أظهر فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا ، وإلا فقد جَمّوا - أي استراحوا - وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي - أي تنفصل رقبتي - أو ليُنْفذنّ اللّهُ أمرَه » ، فقال بُدَيْل : سأبلغهم ما تقول .

فانطلق بُديل حتى أتى قريشاً فقال : إنا قد جئناكم من هذا الرجل ، وسمعناه يقول قولاً ، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلْنا . فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء . وقال ذو الرأي منهم : هَاتِ ما سمعته يقول . قال : سمعته يقول كذا وكذا ، فحدّثهم بما قال النبي ﷺ ، فقام عروة بن مسعود الثقفي فقال : يا معشر قريش ، ألستم بالوالد ؟ قالوا : بلى ، قال : أولست بالولد ؟ قالوا : بلى[2] ، قال : فهل تتهمونني ؟ قالوا : لا ، قال : ألستم تعلمون أني استنفرت أهلَ عُكاظَ لنصرِكم ، فلما بَلّحوا علّي - أي امتنعوا - جئتكم بأهلي وولدي ومَن أطاعني ؟ قالوا : بلى ، قد فعلت ، ما أنت عندنا بمتّهم . قال : فإني لكم ناصح وعليكم شفيق ، لا أدخر عليكم نُصحاً . فإن بُديلاً قد جاءكم بخُطّة رُشْد لا يردّها أحد أبداً إلا أخذ شراً منها ، فاقبلوها منه ، فابعثوني حتى آتيكم بمصداقها من عنده وأنظر

---

(١) بفتح الهمزة : جمع عد ، بكسر العين وتشديد الدال : وهو الماء الذي لا انقطاع له .

(٢) هذا هو الصواب لأن أم عروة سبيعة بنت عبد شمس منهم .

إلى من معه ، وأكون لكم عيناً آتيكم بخبره . فبعثته قريش إلى رسول الله ﷺ ، فجاء إلى النبي ﷺ فجعل يكلمه النبي ﷺ نحو قوله لبُدَيل ، وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً . فقال عروة عند ذلك : أي محمد أرأيت إن استأصلت أمر قومك هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ، وإن تكن الأخرى فإني والله لأرى وجوهاً وإني لأرى أشواباً من الناس ـ أخلاطاً ـ خليقاً أن يفرّوا عنك ويدعوك . فقال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه : امصص بظر[1] (اللات) أنحن نَفِرّ ونَدَعه . فقال عروة : من هذا الذي أجابني ؟ قالوا : أبو بكر ، قال : أما والذي نفسي بيده لولا يدٌ كانت لك عندي لم أجْزِك بها لأجَبْتُك . وقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه أعانه في دِيَة كانت عليه بعشرة قلائص . وجعل يكلم النبي ﷺ ، فكلما تكلم أخذ بلحيته[1] ، وكان المغيرة بن شعبة قائماً على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المِغفر ، فكلّما أهوى عُرْوَة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضربَ يدَه بنعْلِ السيف ، وقال له : أخِّرْ يدك عن لحية رسول الله ﷺ فإنه لا ينبغي لمشرك أن يمسه . فلما أكثر عليه غَضِب عُروة وقال : ويحك ما أفظعك وأغلظك ليت شعري مَنْ هذا الذي آذاني من بين أصحابك ؟ فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة » ، فقال عروة : وأنت بذلك يا غُدَر ، والله ما غسلت سوأتك بعكاظ إلا أمس ، ولقد أورثتنا العَداوة مِن ثقيف إلى آخر الدهر . وكان المغيرة بن شعبة بن أخ عُروة بن مسعود الثقفي ، وكان المغيرة صحِب قوماً في الجاهلية من ثقيف من بني مالك لما خرجوا زائرين المُقوقس ملك مصر فأحسن إليهم وقصّر بالمغيرة ، فحصلت له الغَيْرة منهم لأنه ليس

---

(١) البظر : قطعة تبقى معه بعد ختان المرأة ؛ وقيل ما تقطعه الخافضة . واللات : اسم صنم كانوا يعبدونه .

(٢) جرياً على عادة العرب لا سيما عند الملاطفة ، والمغيرة يمنعه إجلالاً للنبي ﷺ .

من القوم ، فلما كانوا بالطريق شَرِبوا الخمر ، فلما سكروا وناموا غَدَر بهم المغيرة فقتلهم وأخذ أموالهم ، فلما بلغ ثقيفاً فعلُ المغيرة تداعوا للقتال فسعى عُروة عمّ المغيرة حتى أخذوا منه دِية ثلاثة عشر نفساً واصطلحوا ، فهذا هو سبب قول عروة للمغيرة أي غدر ، ثم جاء المغيرة إلى المدينة وأسلم ، فقال له أبو بكر الصديق رضي الله عنه : ما فعل المالكيّون الذين كانوا معك ؟ قال : قتلتهم وجئت بأسلابهم إلى رسول الله ﷺ لتُخْمَس أو يرى رأيه فيها : فقال النبي ﷺ : « أما الإسلام فأقبلُ ، وأما المال فلست منه في شيء » . وكان إسلامه قبل الحُدَيْبِية بقليل[1] . ثم إن عروة جعل يَرْمُق أصحابَ النبي ﷺ بعينيه ، قال : فوالله ما تنخّم رسولُ الله ﷺ نخامة إلا وقَعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده ، ولا يسقط من شَعره شيء إلا أخذوه ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحدُّون إليه النظر تعظيماً له .

فرجع عروة إلى قريش فقال : أي قوم ، والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت على قيصر ملك الروم ، وكسرى ملك الفرس ، والنجاشي ملك الحبشة ، والله إني ما رأيت ملكاً قط يُعظِّمه أصحابه ما يعظِّم أصحاب محمدٍ محمداً ، والله إن تنخّم نُخامة وقَعت في كفِّ رجل منهم فدَلَك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحِدّون إليه النظر تعظيماً له ، وإنه قد عرض عليكم خُطّةَ رشدٍ فاقبلوها ، قد حَزَرْت القوم . واعلموا انكم إذا أردتم منه السيف بذلوه لكم ، وقد رأيت قوماً لا يُبالون ما يُصْنَع بهم إذا مَنعوا صاحبهم . والله لقد رأيت معه ناساً ما كانوا لِيُسلموه أبداً على حال ، فرَوْا رأيكم ، فما دونه يا قوم ، واقبلوا ما عرض عليكم فإني لكم

(١) أسلم عام الخندق ومات بالكوفة وهو أميرها سنة خمسين .

ناصح ، مع إني أخاف أن لا تُنْصروا على رجل أتى زائراً لهذا البيت معظماً له ، معه الهدْي ينحره وينصرف . فقالت قريش : لا تتكلم بهذا يا أبا يَعفور ، لو غيرك تكلم بهذا ، ولكن نرده عامنا هذا ويرجع إلى قابل ، فقال : ما أراكم إلا استصبيتم . فانصرف هو ومن تبعه إلى الطائف .

فقام الحُلَيس[1] بن عَلْقمة الكناني سيِّد الأحابيش فقال : دعوني آتيه ؟ فقالوا : ائته ، فلما أشرف على رسول الله ﷺ وأصحابه قال رسول الله ﷺ : « هذا فلان وهو من قوم يُعظِّمون البُدْن ، فابعثوها له » فبُعِثَت ، واستقبله الناس يُلبُّون . فلما رأى الكنانيّ ذلك قال : سبحان الله ، ما ينبغي لهؤلاء أن يصدّوا عن البيت ، فيأبى الله أن تَحجّ لخم ، وجُذام ، وكِنْدة ، وحِمْيَر ، ويُمنع ابن عبد المطلب . فصاح وهو على بُعْدٍ فقال : هلكت قريش ورب الكعبة ، إن القوم إنما أتوا عُمّاراً ، فقال رسول الله ﷺ : « أجل يا أخا بني كِنانة » . فلما رجع إلى قريش قال : إني رأيت ما لا يَحِلّ منعُه ، رأيت الهَدْيَ في قلائده قد أكل أوباره مَعكوفاً عن مَحِلّه ، والرجال قد نقلوا وقملوا ، فما رأى أن يُصدُّوا عن البيت . وغضب وقال : يا معشر قريش ما على هذا عاقدناكم ، أيُصدّ عن بيت الله من جاء مُعَظِّماً له مؤدّياً لحقه والهدي معكوفاً أن يبلغ محلّه ، والذي نفسي بيده لتخلُنّ بينه وبين ما جاء له أو لأنْفِرنّ بالأحابيش نفرَةَ رجلٍ واحد . فقالوا : كُفّ عنا يا حُلَيس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به . ثم قام رجل منهم يقال له مِكْرَز بن حفص من عامر بن

---

(١) الحليس بن علقمة أرسل بعد الرجل الذي من بني كنانة ، فلما جاء قال رسول الله ﷺ : « هذا من قوم يتألهون » ، وفي الرجل الذي هو من بني كنانة : « هذا من قوم يعظمون البدن » . والحليس رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى . . . فليتأمل وليراجع تفسير ابن كثير الدمشقي وتفسير البغوي وغيرهما .

لؤي القرشي فقال : دعوني آتِه ، فلما أشرف عليهم قال النبي ﷺ : « هذا مِكْرَز ، وهو رجل فاجر[1] » وذلك أن مِكْرزاً أراد أن يُبَيِّتُ المسلمين بالحُدَيْبِية ، فخرج في خمسين رجُلاً ، فأخذهم محمد بن مَسْلَمة الأنصاري رضي الله عنه وهو على الحرس ، وانفلت مِكْرَزٌ وجاء إلى النبي ﷺ وجعل يكلمه بنحو ما كلّم به بُدَيْلاً وعروة ، فرجع إلى أصحابه فأخبرهم بما دعاهم إليه رسول الله ﷺ .

وقد أصاب رسول الله ﷺ وأصحابه مطر ، فقال عبد الله بن أبيّ بن سلولَ : هذا نَوْءُ الخريف مُطِرْنا بالشِّعرى ، فلما صلى بهم رسول الله ﷺ الصبح أقبل عليهم بوجهه فقال : « أتدرون ماذا قال ربكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « قال الله عزَّ وجلّ : أصْبَح من عبادي مؤمن بي وكافر بالكواكب ، وأما من قال مُطِرنا بنجم كذا وكذا فهو مؤمن بالكواكب كافر بي » .

وأهدى إلى رسول الله ﷺ عمرو بن سالم ، وبِشْر ابن سفيان الخزاعيان رضي الله عنهما بالحديبية غنَماً وجزَوراً ، وأهدى عمرو بن سالم لسعد بن عُبادة رضي الله عنه جَزوراً ، وكان صديقاً له ، فجاء سعدُ بالجزور إلى رسول الله ﷺ وأخبره أن عَمْراً أهداها له ، فقال : أو عمرو ، وقد أهدى لنا ما نرى ، فبارك الله في عَمْرٍو . ثم أمر بالجزور ينحر ويقسم في أصحابه ، وفرّق الغنم فيهم عن آخرها وشرك فيها ، فدخل على أمّ سلمة من لحم الجزور كنحو ما دخل لرجل من القوم وشرك ﷺ في شاته ، فدخل على أم سلمة ببعضها وأمر ﷺ للذي جاء بالهدية بكسوة .

فبعث رسول الله ﷺ إلى قريشٍ خرَاشَ بن أميّة على جملٍ رسول الله ﷺ يقال له الثعلَب ، ليبلغ عنه أشرافهم إنما جاء معتمراً ، فعقر

---

(١) هو المائل عن الحق المكذب به .

عِكرمةُ بن أبي جهلٍ ذلك الجمل وأرادوا قتله ، فمنعه الأحابيش فخَلّوا سبيله حتى أتى رسولَ الله ﷺ ، فأخبره ﷺ بما لقي . ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليبعثه إلى قريش ، فقال : يا رسول الله ، إني أخاف قريشاً على نفسي ، قد عرفَتْ قريشٌ عداوتي لها ، وليس بها من بني عَدِيّ من يمنعني ، وإن أحببتَ يا رسول الله دخلت عليهم . فلم يقل له رسول الله ﷺ شيئاً ، فقال عمر رضي الله عنه : ولكن أدُلك على رجل أعزَّ بمكة مني وأكثر عشيرةً وأمنع ، وإنه يبلغ من ذلك ما أردت ، عثمان بن عفّان . فدعا رسول الله ﷺ عثمان رضي الله عنه فقال : « اذهب إلى قريش وأخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عُمّاراً ، وادْعُهم إلى الإسلام » . وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين ونساء مؤمنات فيدخل عليهم ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله تعالى وشيكٌ أن يُظْهِر دِينه بمكّة حتى لا يُسْتَخْفى فيها بالإيمان . فانطلق عثمان رضي الله عنه إلى قريش ، فمرّ عليهم ببلْدَح فقالوا : أين تريد ؟ فقال : بعثني رسول الله ﷺ إليكم لأدعوكم إلى الإسلام وإلى الله جلَّ ثناؤه ، وتدخلوا في الدين كافّة ، فإن الله تعالى مُظْهِر دينه ومعزّ نبيّه ، وأخرى تَكُفّون ، ويكون الذي يلي هذا الأمر منه غيركم . فإن ظُفر برسول الله ﷺ فذلك ما أردتم ، وإن ظَفِر كنتم بالخيار بين أن تدخلوا فيما دخل فيه الناس أو تقاتلوا وأنتم وافرون جامُّون ، وإن الحرب نهكتكم وأذهبت الأماثل منكم ، وأخرى إن رسول الله ﷺ يخبركم أنه لم يأت لقتال أحد ، إنما جاء معتمراً معه الهدي عليه القلائد يَنْحر ويَنصرف . فقالوا : قد سمعنا ما يقول ، ولا كان هذا أبداً ، ولا دخلها علينا عنوة فارجع إلى صاحبك فأخبره أنَّه لا يصل إلينا . ولقيه أبانُ بن سعيد ـ وأسلم بعد ذلك ـ فرحّب به أبان وأجاره ، وقال : لا تُقَصّر عن حاجتك ، ثم نزل عن فرس كان عليه ، فحمل عثمانَ على السرج وردف وراءه وقال :

أقْبِلْ وأدْبِرْ ولا تَخَفْ أحَداًا بَنُو سَعِيدٍ أعِزَّةُ الحَرَمِ

فدخل به مكّة ، فأتى عثمان أشراف قريش رجلاً رجلاً ، فجعلوا يردون عليه : إن محمداً لا يدخلها علينا أبداً . ودخل على قوم مؤمنين من رجال ونساء مستضعفين بمكة فقال : إن رسول الله ﷺ يقول : قد أظلكم حتى لا يستخفى بمكة بالإيمان . ففرحوا بذلك وقالوا : اقرأ على رسول الله ﷺ السلام . ولما فرغ عثمان من رسالة رسول الله ﷺ إلى قريش قالوا : إن شئت أن تطوف بالبيت فُطفْ . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ .

وكان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بالحراسة بالليل ، فكانوا ثلاثة يتناوبون الحراسة : أوس بن خَوْلي ، وعبّاد بن بشر ، ومحمد بن مَسلَمَة على حرس رسول الله ﷺ ، وكانت قريش بعثت مع مِكْرَز رجالاً فأخذهم محمد بن مسلمة وأفلت مكرز ، كما تقدّم ، وعثمان بمكة ، وكان رجال من المسلمين قد دخلوا مكة بإذن رسول الله ﷺ ، وهم :

(١) كُرْز بن جابر الفهري .
(٢) عبد الله بن سُهيل بن عمرو بن عبد شمس .
(٣) عبد الله بن حُذافة السهمي .
(٤) أبو الروم بن عُمير العَبْدَرِي .
(٥) عيّاش بن أبي ربيعة .
(٦) هشام بن العاص بن وائل .
(٧) حاطِب بن عمرو .
(٨) عمَير بن وهب الجُمحي .
(٩) حاطِب بن أبي بَلْتَعة .
(١٠) عبد الله بن أمية .

فلما بلغ قريشاً حَبْس أصحابهم الذين أسرهم محمد بن مسلمة أخذوا

هؤلاء الرهْط وحبَسوهم . وجاء جمع من قريش إلى النبي ﷺ وأصحابه حتى تراموا بالنبل والحجارة . وأسرَ المسلمون مِن المشركين أيضاً اثني عشر فارساً ، وقُتِل من المسلمين ابن زُنَيم ، وكان قد طلع الثنيّة من الحُديبية ، فرماه المشركون فقتلوه .

ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو العامري ، وكان خطيب قريش ، فقال النبي ﷺ : « لقد سهل لكم من أمركم »[1] وذلك أن قريشاً دعت سُهَيل بن عمرو ، وقالت له : اذهب إلى هذا الرجل وصالحه . فلما انتهى إلى النبي ﷺ برك على ركبته ، وجلس النبي ﷺ متربعاً ، وقام عبّاد بن بشر وسلمة بن أسلم الأنصاريان على رأسه مقنّعين بالحديد ، وجلس المسلمون حوله ، فجرى بينهم القول ، وأطال سُهَيل الكلام ، وتراجعا ، فقال له عبّاد بن بشر الأنصاري : خَفِّضْ صوتك عند رسول الله ﷺ ، فخفَض صوته . ولم يزالا يتراجعان حتى تقارب بينهما الصلح ، فرجع سهيل بن عمرو إلى قريش ، وأخبرهم بما تم بينه وبين رسول الله ﷺ من التقارب في أمر الصلح إجمالاً .

شروط صلح الحديبية

فقال أهل الرأي من قريش : ليس خير من أن نصالح محمداً على أن ينصرف عنا عامَه هذا ، ولا يخلص إلى البيت حتى يسمع من سمع بمسيره من العرب أنّا قد صددناه ، ويرجع قابلاً فيقيم ثلاثاً ، ينحر هديه وينصرف ، ولا يقيم ببلدنا ، ولا يدخل علينا . فلما اجتمعت قريش على

(١) وهذا من الفأل الحسن الذي كان عليه الصلاة والسلام يعجبه . وفي منظومة الأنساب :

وكان لا يعتاف إلا أنه ... يعجبه الفأل إذا عن له

الصلح والموادعة بعثتْ سُهَيل بن عمرو وبعثت معه حُوَيطب بن عبد العُزّى ليمضوا الصلح . ولما أقبل سهيل قال رسول الله ﷺ : « أراد القوم الصلح حيث بعثوا هذا الرجل » فجاء سهيل فقال : هات أكتب بيننا وبينكم كتاباً . فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فقال : « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال سهيل : أما الرحمن الرحيم فوالله ما أدري ما هو ، ولكن اكتب : باسمك اللهم ، كما كنت تكتب . فقال المسلمون : والله لا تكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم . فقال النبي ﷺ : « اكتب : باسمك اللهم » ثم قال : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » ، فقال سهيل : لا تكتب محمد رسول الله ، فلو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب : محمد بن عبد الله . فقال ﷺ : « أنا رسول الله ، وأنا محمد بن عبد الله » ثم قال لعلي : « امْحُ رسول الله » قال علي : لا والله لا أمحوها . فقال رسول الله ﷺ : « أرني مكانها » ، فأراه مكانها ، فمحاها وكتب : « هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله » فقال ﷺ : « على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به » ، فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنا أُخذنا ضغطة[1] ، ولكن ذلك من العام المقبل ، وأن تقيم بها ثلاثة أيام ولا تدخلها إلا بِجُلّبان السلاح : السيف والقوس ونحوه ، وأن لا تخرج بأحد من أهلها إن أراد أن يتبعك ، وأن لا تمنع أحداً من أصحابك إن أراد أن يقيم بها ، وأنه لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا ، وخلّيت بيننا وبينه ، ومن أتانا من المسلمين لم نرده إليك ، وأن بيننا عَيْبَة مكفوفة ـ أي تكون صدورنا سليمة من كل حقد ـ وأنه لا إسلال[2] ولا إغلال ـ أي نترك كل خيانة وغل ـ وأن مَن أحب أن يدخل في عَقْد محمد وعهده دخل فيه ، ومَن

---

(١) بضم الضاد وسكون الغين المعجمة ثم طاء مهملة : أي قهراً .

(٢) الاسلال : السرقة والخسة ونحوها . والاغلال : الخيانة ؛ يقال : فلان مغل الأصبع : أي خائن اليد .

أحب أن يدخل في عَقْد قريش عهدهم دخل فيه . فتواثبت خزاعة وقالوا : نحن في عقد محمد وعهده . وتواثبت بنو بكر وقالوا : نحن في عقد قريش وعهدهم . قال سُهَيل : وأن توضع الحرب عشر سنين ، تأمن فيها الناس ، ويكفّ بعضهم عن بعض . فلما أبى سهيل أن يقاضى رسول الله ﷺ إلا على ذلك كاتبه رسول الله ﷺ . فكره المؤمنون ذلك وامتعضوا ، فقالوا : سبحان الله ، كيف يُرَدّ إلى المشركين مَن قد جاء مسلماً ؟ وكان ممن قال ذلك عمر بن الخطاب ، وأُسيد بن حضير ، وسعد بن عُبادة ، وسهل بن حنيف رضي الله عنهم .

ثم إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى رسول الله ﷺ فقال : ألست نبي الله حقاً ؟ قال : « بلى » . قال : ألسنا على الحق ؟ وعدوّنا على الباطل ؟ قال : « بلى » . قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال : « بلى » . قال : فعلى مَ نُعطي الدّنيّة في دِيننا ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إني عبد الله وسوله ، ولست أعصيه ولن يُضيعني وهو ناصري » . قال عمر : أوليس كنت تحدّثنا أنّا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : « بلى ، أفأخبرتك أنّا نأتيه العام ؟ » قال : لا . قال : « فإنك آتيه ومُطّوف به » . فذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي بكر رضي الله عنه متغيّظاً ولم يصبر ، فقال : يا أبا بكر ، أليس هذا نبيّاً حقّاً ؟ قال : بلى . قال : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . قال : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال : بلى . قال : فلِمَ نُعْطِي الدنية في دِيننا ونرجع ولم يحكم الله بيننا وبينهم ؟ فقال أبو بكر لعمر : أيها الرجل ، إنه رسول الله ، وليس يعصي ربّه ، وهو ناصره ، فاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِه[1] ، فوالله إنه على الحق . قال عمر : أوليس كان يحدّثنا

---

(١) بفتح الغين المعجمة وسكون الراء بعدها زاي ، وهو للإبل بمنزلة الركاب

أنّا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ قال : لا . فقال : إنك آتيه كمُطّوف به . فقال له أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : ألا تسمع يا ابن الخطاب رسول الله ﷺ يقول ما يقول ، تَعَوّذْ بالله من الشيطان الرجيم واتّهم رأيك . فقال عمر : فجعلت أتعوّذ بالله من الشيطان حيناً فما أصابني شيء قط مثل ذلك اليوم ، فما زلت أتصدّق وأصوم وأصلّي وأُعتق مِنَ الذي صنعت يومئذ مخافةَ كلامي الذي تكلمت به حتى رَجوت أن يكون خيراً . وكذلك الصحابة رضي الله عنهم أخذوا يتساءلون في ذلك حتى كادوا يهلكون ، وشقّ عليهم أمر الصلح على هذه الشروط .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من شروط الصلح أشهد عليه رجالاً من المسلمين ، وهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وأبو عبيدة بن الجراح ، ومحمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنهم ، ومِن المشركين حُوَيْطب بن عبد العُزى ، ومِكْرَز بن حَفْص[1] .

وما تَمّ الصلح إلا بعد توقّف كثيرٍ من المسلمين ، وصاروا يراجعون النبي ﷺ ويسألونه أن لا يوافق على تلك الشروط ، وكتب عليّ بن أبيَ طالب شروط الصلح ، ونقل صورتها محمد بن مسلمة الأنصاري لقريش .

وكان في ظاهر هذه الشروط ضغط وإجحاف على المسلمين ، ولكن في باطنها من الحكمة والفائدة والإصلاح ما ظهر لهم بعد ذلك من النتائج

للفرس ، والمرادُ : التمسك بأمره وترك مخالفته كالمتمسك بركاب الفارس لا يفارقه .

(١) في سيرة ابن هشام : أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن سهيل بن عمرو وسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة ومكرز بن حفص وهو يومئذ مشرك .

الحسنة والخير العميم . وقد قلنا غير مرة إن النبي ﷺ لم يبعث لإبادة البشر ولهلاك الناس ، بل بعث بالحكمة والموعظة الحسنة وتألُّف القلوب ، وجلب الخواطر ، فكان معظم قريش نافرين من النبي ﷺ ومباغضين لأصحابه ، وذلك لأنهم يجهلون حالة النبي ﷺ وما هو عليه من الشفقة والتودد للناس ، ومواساة أصحابه وتفانيهم بعضهم لبعض . فأحب رسول الله ﷺ أن يجاري المشركين مؤقتاً ، وأعطاهم كل ما طلبوا ، رغم ممانعة أصحابه له ، فاطمأنت قلوبهم من جهة ، وعلموا أنه لم يكن بالفظّ الغليظ ، ولا بالسفّاك الأشر ، ثم بعد أن تم الصلح اختلطوا مع بعض مَن ارتاحت نفوسهم إليه من المسلمين ، وذهب كثير منهم إلى المدينة ، ورأوا حال النبي ﷺ مع أصحابه وشدة عطفه على الفقراء والمساكين وأهل الحاجة منهم ، وما هو عليه من مكارم الأخلاق . واطلعوا على حالة المؤمن ، بعد انسلاخه من الشرك ، وما ذهب إليه من طهارة النفْس والصدق والوفاء . وكذلك بسبب الصلح ذهب كثير من المسلمين إلى مكّة ، واختلطوا بأهلها عموماً ، واختلوا بأهليهم ، وأصدقائهم خصوصاً ، فظهرت لمعظمهم حكمة الإيمان ورابطة الإسلام ، وغير ذلك من ثمرات الدين الحنيف فآبوا إلى رشدهم ، ونبذوا الغيّ من نفوسهم ، وحاكموا أنفسهُمْ بأنفسِهِم . وظهر لهم ما هم عليه من فساد الرأي ، ورداءة الطباع ، وخساسة النفْس ، وشراسة الأخلاق ، بسبب الشرك ، فمالت بعد ذلك نفوسهم إلى الإيمان بالله وبرسوله ، وبادر أبطالهم من تلقاء أنفسهم مثل عمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد ، وعثمان بن طلحة ، إلى الهجرة والإلتحاق برسول الله ﷺ والإيمان بالله تعالى وبرسوله وبما جاء به من ربّه ، وتتابع ساداتهم على ذلك ، قبل الفتح في مدة الهدنة ، وفي يوم فتح مكّة أسلم باقيهم . ولما تم إسلام عموم قريش تواردت العرب من جميع الآفاق ومن عموم القبائل على رسول الله ﷺ ، ودخلوا في الإسلام أفواجاً أفواجاً . فكان قبول النبي ﷺ هذه الشروط المجحفة لهذه الحكمة

الباهرة ، ومهما تكن درجة الصحابة من الذكاء والفطنة والإدراك لا تبلغ درجة النبي ﷺ ، حيث لم تظهر لهم هذه الفائدة إلا بعد ذلك ، فزادتهم إيماناً على إيمانهم ، وتيقّنوا أنهم لو تشبثوا برأيهم وجاراهم عليه النبي ﷺ ورفضوا الصلح ، لوقع القتال ، وسُفِكتْ الدماء ، وضاعت هذه الحكمة القيِّمة الباهرة ، وأصبحت القضية على غير مبادىء الإسلام من بث الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة « ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِه مَنْ يَشَاءَ مِنْ عِبادِهِ » .

فبينما هم على تلك الحال من كتابة معاهدة الهدنة إذ دخل أبو جَنْدَل العاص بن سُهَيل بن عمرو ، كان قد أسلم بمكّة قبل ذلك ، فحبسه أبوه ومنعه من الهجرة وأوثقه بالقيود ، فلما سمع بأن النبي ﷺ وأصحابه بالحُديْبِيَة احتال لنفسه حتى خرج من السجن وتنكّب الطريق وركب الجبال حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فقال سهيل : هذا يا محمد أول ما أقاضيك[1] عليه ، أن تَرُدّه إليّ . فقال رسول الله ﷺ : « إنا لم نقض الكتاب بعد » . فقال سهيل : فوالله إذاً لا أصالُحكَ على شيء أبداً ، قال النبي ﷺ : « فأجِزْه لي[2] » ، قال : ما أنا بمُجيز ذلك ، قال ﷺ : « بلى فافعل » ، قال : ما أنا بفاعل ، قال مِكْرَز : بلى قد أجَزْنَاه لك . فلما رأى أبو جندل أباه مُصَمّماً على أخذه قال : يا معشر المسلمين ، أرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مُسلماً ؟ ألا ترون ما قد لقيت . وكان قد عُذِّب في الله عذاباً شديداً ؟ فأثار مجيء أبي جندل غضب أصحاب رسول الله ﷺ مرة ثانية ، بعد أن سكنوا

---

(١) قاضي : من القضاء ، وهو الحكم والفصل . وقوله : لم نقض : أي لم ننته من إحكامه .

(٢) بالجيم والزاي ؛ أمر من الاجازة أي : إجعله لي جائزاً . وروي بالراء بدل الزاي ؛ أي إجعله في جواري وحمايتي .

نوعاً مما أصابهم من شروط الصلح ، وزادهم هياجاً على ما بهم ، فقال النبي ﷺ : « يا أبا جندل إصبر واحتسب ، فإنا لا نغدر ، وقد تم الصلح قبل أن تأتي ، تلطّف بأبيك فأبي ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرَجاً ومخرجاً » . فوثب عمر بن الخطاب إلى أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول : اصبر يا أبا جندل ، فإنما هم المشركون ، وإنما دم أحدِهم كدم الكلب : ويدني له السيف يرجو أن يأخذ السيف منه فيضرب به أباه ، وجعل يقول له : إن الرجل يقتل أباه ، والله لو أدركنا آباءنا لقتلناهم في الله . فقال له أبو جندل : ما لك لا تقتله أنت ؟ قال : نهاني رسول الله ﷺ عن قتله وقتل غيره . فقال أبو جندل : ما أنت أحقّ بطاعة رسول الله ﷺ مني . فكان عمر رضي الله عنه متهيجاً شديد الانفعال والغيرة ، ولولا قوة إيمانه وانقياده لأمر رسول الله ﷺ لفتك بسهيل بن عمرو مهما كانت العاقبة وحَرَجِ الموقف .

بيعة الرضوان

وبعث رسول الله ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه بكتاب الصلح ليدفعه إلى قريش ، فأمسك المشركون عثمان والعشرة الأصحاب الذين تقدّم ذكرهم ، فيمن أسرهم محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه ثلاثة أيام ، وأشاع الناس أنهم قتلهم المشركون بمكة ، فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك الخبر ، قال : « لا نبرح حتى نناجز القوم » ، فنادى منادي رسول الله ﷺ أن الله تعالى أمرني بالبيعة ، وصادف ذلك ما كان كامناً في نفس أصحابه . فهرع المسلمون إلى رسول الله ﷺ تحت الشجرة[1] في

(١) التي كان عليه السلام يستظل بها . ولما ولي عمر رضي الله عنه الخلافة قطع هذه الشجرة التي عقدت البيعة تحتها خشية أن يقدس المسلمون هذه الشجرة حفاظاً على عقيدتهم .

الحُدَيْبِية ، ويسمى الموضع الآن (الشميسي) على ثلاثة عشر ميلاً من مكة وهو حد الحرم من الجهة الغربية ، فأول من بايع رسول الله ﷺ من الصحابة أبو سنان[1] عبد الله بن وهب الأسدي ، قال لرسول الله ﷺ : أبسط يدك أبايعك ، قال : « على ماذا ؟ » قال : على ما في نفسك ، قال : « وما في نفسي ؟ » قال : فتح أو شهادة ، قال : « نعم » فبايعه . ثم بايعه سلمة بن الأكوع الأسلمي على الموت . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه آخذاً بيد رسول الله ﷺ وصار الناس يتهافتون على بيعة رسول الله ﷺ يبايعون على بيعتهما ، وبعضهم يبايع على أن لا يفر ، ثم دعى رسول الله ﷺ سلمة بن الأكوع فقال : « بايع يا سلمة » ، قال : قد بايعت يا رسول الله في أول الناس ، قال : « وأيضاً » ، ورآه رسول الله ﷺ عزلاً ليس معه سلاح ، فأعطاه جحفة أو درقة ، ثم بايعه . حتى إذا كان آخر الناس ، قال له رسول الله ﷺ : « ألا تبايعني يا سلمة ؟ » قال : قد بايعتك يا رسول الله في أول الناس وفي أوسط الناس ، قال : « وأيضاً » فبايعه الثالثة ، ثم قال : « يا سلمة ، أين جحفتك أو درقتك التي أعطيتك ؟ » قال : يا رسول الله لقيني عمي عامر عزلاً فأعطيته إياها . فضحك رسول الله ﷺ ، وذلك لعلمه بشجاعته ، وعنايته في الإسلام ، وشهرته في الثبات ، وصلابته في إيمانه ، وهدة بأسه ، وجرأته الفائقة . ثم وضع رسول الله ﷺ يده[2] اليسرى على اليمنى وقال : « هذه بيعة عثمان[3] بن عفّان » ، فأنزل الله تعالى على رسوله ﷺ : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّما يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ**

---

(١) قالوا : أبو سنان مات في حصار بني قريظة قبل اليوم ؛ لذلك أول من بايع سنان بن أبي سنان الأسدي .

(٢) أي شماله في يمينه .

(٣) وهذه المبايعة له جزاء وفاقاً لأنه امتنع أن يطوف بالبيت قبل رسول الله ﷺ أدباً وإجلالاً .

نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ الله فَسَوْفَ يُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا في قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ، وَمَغَانِمَ كَثيرَةً يَأْخُذُونهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً * وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً * وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الإِدْبَارَ ثُمَّ لاَ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً سُنَّةَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تجِدَ لِسُنَّةِ الله تَبْدِيلاً * وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً * هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُؤْمنونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ إلى آخر السورة . وفي هذه الآيات بشائر كثيرة بالفتح الذي سيناله المؤمنون وطمأنينة لهم وتهدئة لنفوسهم مما كانوا فيه من الغيظ على المشركين ، وبيَّن الله تعالى أن ما وقع لهم كان فيه الخير الكثير والفضل الجزيل ، ولو أردنا أن ندلي بما قاله المفسرون في ذلك من تعدد الحكم التي ظهرت ثمرتها للمسلمين بعد قبول هذا الصلح لطال علينا المجال . ولكن الأمر واضح ومفهوم ، وسيأتي تفصيل ثمرات هذا الصلح فعلاً في هذا الجزء والأجزاء المتتابعة ان شاء الله تعالى . ويرى القارىء حكمة التأني والصبر والثبات في الأمور والنتائج الحسنة التي اجتناها أصحاب رسول الله ﷺ بسبب تمسكهم بمبادىء الإسلام وتعاليم النبي ﷺ في سياسة الحروب وشؤون الإدارة ونظام العمران .

كان بعض المشركين مختلطين مع المسلمين بالحديبية ، ومنتشرين في بعض تلك الانحاء ، فوقع بينهم وبين المسلمين بعض تناوش في أطراف

الجيش بالسلاح ورمي الحجارة والنبل ، وقد قتل من المسلمين ابن زنيم وأسر المسلمون من المشركين اثني عشر رجلاً ، ونادى مناد من أسفل الوادي : يا للمهاجرين قتل ابن زنيم ، وكان سلمة بن الأكوع مستظلاً تحت شجرة ، وكان أربعة من المشركين مستظلين تحت شجرة أخرى ومعلقين سيوفهم بها ، فلما سمع سلمة المنادي اخترط سيفه وشد على أولئك الأربعة ، فأخذ سلاحهم وجعله ضغثاً ـ قبضة محزمة ـ في يده وقال لهم : والذي كرَّم وجه محمد ﷺ لا يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه ، فأسرهم ، ثم جاء بهم يسوقهم إلى رسول الله ﷺ . ثم جاء عامر بن سنان بن الأكوع الأسلمي ، عم سلمة ، يقود مكرزاً إلى رسول الله ﷺ على فرس مجفف[1] في سبعين من المشركين ، فنظر إليهم رسول الله ﷺ فقال : « دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه » ، أي عودة ثانية ، فعفا عنهم رسول الله ﷺ .

إذا نظرنا إلى معاملة رسول الله ﷺ المشركين في هذا الموقف الحرج بإطلاق الأسرى قبل رجوع عثمان بن عفان وأصحابه من مكة والعفو عنهم ، نجد فيه من التسامح ما لا يتصوره العقل ، ولا أظن أن أحداً في العالم ، قبله أو بعده ، تسامح بمثل هذا التسامح في مثل هذا الموقف العصيب .

فلما سمعت قريش بهذه البيعة خافوا وبعثوا عثمان بن عفان وجماعة من المسلمين الذين ذهبوا إلى مكة لرؤية آلهم ، حيث قد علموا ممن كان منهم بالحُدَيْبِيَة ، عن غيظ المسلمين عليهم ، وشوقهم الشديد لقتالهم ، ولو لم يتداركوا الأمر بسرعة اطلاق عثمان ومن معه لكان الأمر عليهم وبالاً ، والعاقبة بالفوز للمؤمنين ، فلما أتى عثمان بن عفان رضي الله عنه ومَن معه مِن المسلمين ، بايعه عثمان . وقبِل المشركون الصلح وتوجه سُهَيل بن عمرو

---

(١) هو ثوب كالجلد تضعه العرب على الفرس ليقيه من السلاح ، أشبه بالدرع .

إلى مكة . وقال المسلمون لعثمان بن عفان رضي الله عنه : اشتفيت من البيت[1] يا أبا عبد الله ؟ فقال عثمان : بئس ما ظننتم بي ، فوالذي نفسي بيده لو مكثت مقيماً بها سنةً ورسول الله ﷺ لم يطف ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله ﷺ ، وقد دعتني قريش إلى أن أطوف بالبيت فأبيت ، فقالوا : كان رسول الله ﷺ أعلمنا[2] وأحسننا ظناً .

نحر الهدي والتحلل من العمرة

فلما فرغ رسول الله ﷺ من قضية الصلح وكتاب العهد ، قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « قوموا فانحروا » . فما قام منهم رجل رجاء أن ينزل الوحي بإبطال الصلح وذلك قبل نزول القرآن الذي سبق ذكره ليتم لهم قضاء نسكهم ، حتى قال ذلك رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، فلم يقم منهم أحد . فدخل رسول الله ﷺ على أمّ سلمة رضي الله عنها ، فذكر لها ما لقي من الناس ، فقالت أم سلمة : يا نبي الله ، لا تلمهم ، فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقّة في أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح ، أتحب ذلك ؟ أُخرج عليهم ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدنك وتدعو حالقك فيحلق لك .

انظر أيها القارىء إلى رأي أمّ المؤمنين أمّ سلمة رضي الله عنها في هذا الموقف وخطابها لرسول الله ﷺ ، والتلطّف به والتماس العذر لأصحابه ، وإبداء رأيها في الطريقة التي يستعملها في اخضاع أصحابه إلى نحر الهدي لكونهم لا يستطيعون أن يتقاعدوا عن أي عمل يعمله رسول الله ﷺ ، فهل يتصور متصور أن سيدة من السيدات يكون عندها من الرأي ما يضاهي رأي أمّ

(١) من الطواف بالبيت .
(٢) بالله .

المؤمنين السيدة أم سلمة في ذلك الموقف الرهيب الذي حارت فيه أفكار جهابذة الرجال العظام المحنكين ؟ فهذه المزايا لا تقدّر ، ولا يمكن أن تقدّر ، إذا قدرنا الموقف حق قدْره حيث ان المواقف تقدر بحسبها . فالرأي الصائب في الموقف الحرج له قيمته ولا يقاس بالرأي الصائب الذي يبديه صاحبه في وقت الراحة والسكون ، فرضي الله عن أمّ سلمة ، أمّ المؤمنين ، وجزاها الله عن ثاقب رأيها خير الجزاء .

فخرج رسول الله ﷺ فلم يكلّم أحداً منهم كلمة حتى فعل ذلك ، فقام إلى هديه وأهوى بالحرية[1] إلى البدنة رافعاً صوته : « بسم الله والله أكبر » فنحر هديه السبعين ومن جملتها جمل كان لأبي جهل في رأسه برة[2] من فضة ليغيظ به الكفّار ، وكان قد اغتنمه في غزوة بَدْر ، فأراد المشركون أن يفتدوه بمائة بعير ، فلم يقبل . ولما فرغ رسول الله ﷺ من نحرها دخل قبة له من أدم ، ودعا بخراش الخزاعي فحلق رأسه ورمى شعره على شجرة[3] فأخذه الناس وأحصوه . ولما رآه الناس نحَر وحَلَق ، قاموا ونحروا وحلَقوا وقصروا ، فقال رسول الله ﷺ : « يرحم الله المحلقين » ، قالوا : والمقصرين يا رسول الله ، قال : « يرحم الله المحلقين » ، قالوا : والمقصرين يا رسول الله ، قال : « يرحم الله المحلقين » ، قالوا : والمقصرين يا رسول الله ، قال : « والمقصرين » ، فقالوا : يا رسول الله فلم ظاهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين ، قال : « لم يشكوا » .

---

(١) الحربة : الآلة .

(٢) حلقة في أنفه ، والبرة كثبة حلقة تجعل في أنف البعير .

(٣) كانت بجنبه من سمرة خضراء .

التجاء المؤمنات

ثم جاء رسول الله ﷺ نسوة مؤمنات منهن أم كلثوم بنت عقبة ابن أبي معيط ، كانت تحت عمرو بن العاص ، وأميمة بنت بِشْر وكانت تحت حسان بن دحداحة قبل أن يسلم فتزوجها سهل ابن حنيف فولدت له ابنه عبد الله ، وسبيعة بنت الحارث الأسلمية وكانت تحت مسافر المخزومي ، وامرأة صيفي بن الراهب واسمها سعيدة فتزوجها عمر بن الخطاب ، وأمّ الحكَم بنت أبي سفيان كانت تحت عياض بن شداد فارتدت ، وبروع بنت عقبة كانت تحت شماس بن عثمان ، وعبدة بنت عبد العزى بن فضلة كانت تحت عمرو بن عبد ود العامري وقد قتِل يوم الخندق ، وكان من سنة الجاهلية أن من مات زوجها كان أهله أحق بها ، ففرت مع النسوة يوم الحُدَيْبِية فأنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ﴾ أزواجهن الكفرة ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا ﴾ ما دفعوه لهن من المهور ، ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ مهورهن . فأباح الله تعالى زواج المهاجرات وإن كن أزواج كفّار لأن الإسلام فرّق بينهن وبين أزواجهن . ﴿ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ﴾ ، إذا ارتدت امرأة من المسلمين ولحقت بالمشركين فاطلبوا ما أنفقتم من المهر كما أنه مَن لحق بكم منهن مؤمنات متزوجات فادفعوا لهم مهورهن ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، فلما نزلت هذه الآية صار كل من أتى منهن امتحنهن ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان امتحانهن أن تستحلف ما خرجت من بغض زوج ، ولا رغبة عن أرض إلى أرض ، ولا لحدث أحدثته ، ولا التماس دنيا ، وما خرجت إلا رغبة في الإسلام وحباً لله

ورسوله ﷺ ، فإذا حلفت على ذلك لم يردّها . فجاء رسول الله ﷺ مسافر المخزومي في طلب زوجته سبيعة بنت الحارث الأسلمية وهو كافر ، فقال : يا محمد أردد علي امرأتي فانك قد شرطت أن ترد علينا من أتاك منا وهذه طية الكتاب لم تجف بعد . فاستحلف رسول الله ﷺ سبيعة فحلفت ، فلم يردّها ، وأعطى زوجها مهرها وما أنفق عليها ، فتزوجها عمر بن الخطاب ، وطلّق عمر رضي الله عنه يومئذ امرأتين : قريبة بنت أبي أمية ، وابنة جرول الخزاعي كانتا له في الشرك ، فتزوج احداهما معاوية بن أبي سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية .

وأقام رسول الله ﷺ بالحُدَيبِية بضعة عشر يوماً ثم خرج مع أصحابه راجعاً إلى المدينة . وكان في نفس بعض الصحابة شيء من عدم دخول مكّة ، فنزل رسول الله ﷺ منزلاً بينه وبين لحيان (جبل) وكانوا مشركين ، فهمَّه ذلك فاستغفر لمن رَقِيَه ، فرقاه سلمة بن الأكوع رضي الله عنه تلك الليلة مرتين أو ثلاثة ، ثم سار حتى أتى (كواع الغميم) ، موضعٌ أمام عسفان ، فنزلت سورة الفتح ، فجمع رسول الله ﷺ الناس وقرأ عليهم : ﴿ **إنّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً** ﴾ فقال رجل : يا رسول الله أوَ فتح هو ؟ قال : « والذي نفسي بيده انه لفتح » . فعند ذلك زال ما في نفوسهم وارتاحت قلوبهم ثم توجه حتى أتى المدينة .

فحاصل هذه القضية التي هي عُمرة الحُدَيْبية بما احتوت عليه من الهدنة وبيعة الرضوان فقد أوضحنا كل شيء في محله غير مسألة واحدة وهي : هل كان النبي ﷺ أُمياً أو أنه يقرأ ويكتب ؟ وذلك لمَّا أمر علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يمحو محمداً رسول الله كما طلب سهيل بن عمرو مندوب قريش وأبى عليّ أن يمحوها ، فقال رسول الله ﷺ : أرني مكانها ، فأراه إياها ، فأخذ الصحيفة من يد علي ومحاها وكتب محمد بن عبد الله ، وقد ورد في الصحيحين وغيرهما هذه الرواية المتقدمة وغيرها . وجاء في

بعض الروايات أن النبي ﷺ محا محمداً رسول الله وأن علياً هو الذي كتب بعد ذلك محمد بن عبد الله . وأخذ شراح الصحيحين في تحليل المسألة وكون النبي ﷺ كتب بيده محمد بن عبد الله ينافي أميته أو لا ينافي ، مع أن المسألة لا تحتاج إلى كبير عناء في كونه عرف اسمه ومحاه وكتب بيده محمد بن عبد الله ، وذلك انه يوجد كثير من الأميين العاديين الذين يعرفون أسماءهم في الكتب ويستطيعون كتابة اسمهم وامضائهم في الرسائل والوثائق ، وهم أقل ذكاء وإدراكاً وفطنة من رسول الله ﷺ ، فإذا كان كثير من الأميين في هذا العصر وفي كل عصر يدركون معرفة اسمهم ويستطيعون كتابة اسمهم فهل يكون ذلك غريباً في كون النبي ﷺ عرف اسمه وكتب بيده اسمه ؟ وهو بلا مراء أذكى خلق الله أجمعين ، فهذا لا ينافي كونه أمياً ، ولا عبرة بقول من يقول من الملاحدة أنه ليس بأمي وانه يكتب ويقرأ ويدرس الكتب وحجته في ذلك هذه القضية ، فهؤلاء وأمثالهم لا عبرة بنظرياتهم الفاسدة واحتجاجاتهم الواهية التي هي أوهى من بيت العنكبوت والتي لا تنطبق على العقل الصحيح والنقل الصحيح ، فلو كان عندهم مثقال ذرة من عقل أو إدراك لما بنوا نظريتهم على معرفة النبي ﷺ كتابة اسمه أنه يقرأ ويكتب ويدرس الكتب وغير ذلك ، وإنما مثلهم كمثل المشركين لما تلا عليهم رسول الله ﷺ القرآن ولم يجدوا لهم مفراً من الخضوع إليه قالوا أساطير الأولين اكتتبها ، وقالوا سحر ، لأنهم لمّا قاسُوه على ما يعرفونه من الشعر ومن أقوال الكهنة وجدوه كما صرحوا به بقولهم : « إن لقوله لطلاوة » ، وهذه هي قاعدة المكابرين في احتجاجاتهم الواهية حيث يتمسكون بحبال العنكبوت ، ولو كانوا من أهل العلم كما يزعمون لأدركوا خطأهم قبل الوقوع فيه ، فالعاقل لا يحتج بشيء قبل التثبت منه ، لأن القول المجرد الذي لم يدعم بالأدلة القوية يضرب به وجه قائله ، فكم كان في عصر النبي ﷺ وقبله وبعده ممن يقرأ ويكتب ويعلم ويتعلم ، وساح

الأرض ، واطلع على التوراة والإنجيل والزبور ، وجالس الأحبار والرهبان والفلاسفة ، فهل استطاع أحد منهم أن يؤلف أو يكتب شيئاً يضاهي القرآن في حكمه وتشريعه ومعانيه وأمثاله وأبحاثه الفلكية ، والعمرانية ، والإجتماعية ، والسياسية ، والإدارية ، وغير ذلك مما حواه الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، حتى يقال ان محمداً ﷺ كان يقرأ ويكتب وليس هو بأمي ولذلك قرأ الكتب وألَّف القرآن ، فلو كان ذلك حصل لما خفي على أحد ، وكان دَوّنه التاريخ وتناقلته الأمم عن بعضها بعضاً طبقة بعد طبقة . ثم يردنا سؤال آخر ما هي الكتب التي قرأها رسول الله ﷺ وألَّف منها القرآن ؟ فإذا كان المراد من تلك هي التوراة والإنجيل ، فهي بين أيدينا ، فهل فيها شيء من التشريع الذي جاء به القرآن ، أو الحكم والأمثال أو البلاغة أو السياسة أو الإدارة أو الإجتماع ، غير بعض قصص بني إسرائيل قد حرَّفها القسس والأحبار والرهبان ، وجاءت في القرآن صحيحة سالمة من التحريف والتغيير والتبديل ، وأقام بها رسول الله ﷺ الحجة على معاصريه من اليهود والنصارى وأفحمهم وألجمهم ، ولم يسعهم غير الإنكار والتكذيب اللذين هما حجة المارقين والأفاكين وسلاح المنهزمين والمتمردين على الحقيقة . ولا يزال القرآن الكريم بين أيدينا كما أُنزل على محمد ﷺ ، ولا يزال فوق مستوى إدراك البشر ، ولا يزال المرشد الحكيم إلى سبيل الهدى والرشاد ، ولا يزال معجزة لرسول الله ﷺ في عصره والعصر الحاضر وإلى يوم البعث والنشور ، ولا يزال حجة الله البالغة على جميع البشر . وأما كون النبي ﷺ أمياً فقد أثبته القرآن الكريم وتناقلته الأمة الإسلامية طبقة بعد طبقة وجيلاً بعد جيل ، وليس على المكابر إلا أن يصك رأسه في أي صخرة شاء وينفخ في أي بوق شاء فلا يؤثر على الحقائق مهما بلغ من الوقاحة والترهات شيء .

نهوض المستضعفين بمكة

جاء رسول الله ﷺ أبو بَصِير عتبة بن أُسيد بن جارية الثقفي حليف بني زهرة ، وكان من المستضعفين وممن أسلم قديماً وقد حبسه قومه بمكّة ، فلما علم قومه بهجرته إلى رسول الله ﷺ ، كتب فيه أزهر بن عبد عوف الزهري ، والأخنس بن شَريق الثقفي إلى رسول الله ﷺ ، وبعثا في طلبه خنيس بن جابر من بني عامر بن لؤي استأجراه ببكرتين لبون وحملاه على بعير ، وكتبا إلى رسول الله ﷺ يذكران الصلح الذي بينهم وأن يرد إليهم أبا بَصِير . فقرأ أُبَيّ بن كعب الكتاب على رسول الله ﷺ ، فإذا فيه : قد عرفت ما شارطناك عليه وأشهدنا بيننا وبينك من رَدٍّ مَن قدِم عليك من قومنا فابعث إلينا بصاحبنا . وكان مع خنيس مولى لهم يقال له كوثر يهديه الطريق ، فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا بَصِير ، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ولا يصلح لنا في دِيننا الغدر وإن الله تعالى جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً فانطلق إلى قومك » . قال أبو بصير : يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني ؟ قال ﷺ : « يا أبا بَصِير انطلق فان الله تعالى سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً » . فانطلق معهما حتى إذا كان بذي الحليفة صلى الظهر في مسجدها ومعه زاد له من تمر يحمله ودعا العامري وصاحبه ليأكلا معه فقدّما سفرة فيها كسر فأكلوا جميعاً ، فسلّ العامري سيفه فهزه ثم هزه فقال : لأضربن بسيفي هذا في الأوس والخزرج يوماً إلى الليل ، فقال له أبو بَصِير : أصارم سيفك هذا ؟ قال : نعم . قال : ناولنيه أنظر إليه إن شئت . فناوله إياه ، فلما قبض عليه ضربه به حتى برد[1] ، وخرج كوثر هارباً يعدو نحو المدينة وأبو بصير في أثره

---

(١) بفتح الباء : جمدت حواسه ، كناية عن الموت ، لأن الميت تسكن حركته ، وأصل البرد السكون .

فأعجزه حتى سبقه إلى رسول الله ﷺ ورسول الله جالس في أصحابه بعد العصر ، فقال رسول الله ﷺ حين رآه : « لقد رأى هذا ذُعراً »[٢] . فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال : « ويحك ما لك ؟ » قال : قَتَل والله صاحبكم صاحبي وأفلتُّ منه ولم أكد وإني لمقتول ، واستغاث برسول الله ﷺ فأمّنه . وأقبل أبو بصير فأناخ بعير العامري ودخل متوشحاً سيفه ، فقال : يا رسول الله قد وفيت ذمتك وأدى الله عنك وقد أسلمتني ليد العدو ، وقد امتنعت بدِيني من أن أُفتن . فقال رسول الله ﷺ : « ويل[٣] أمه مسعر حرب لو كان معه أحد » ، فلما سمع ذلك أبو بصير عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر[٤] على ساحل البحر من جهة العيص بأرض جهينة من ناحية ذي المروة بطريق قريش التي كانوا يأخذون عليها إلى الشام ، فبلغ المسلمين الذين كانوا حبسوا بمكّة قول رسول الله ﷺ لأبي بَصِير « ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد » ، فخرج عصابة منهم إليه ، وانفلت أبو جندل بن سُهَيل بن عمرو فلحق بأبي بصير . ولما بلغ سهيل بن عمرو قتل أبي بصير العامريّ اشتد عليه وقال : ما لصاحبنا محمد على هذا ، فقالت قريش : قد برىء محمد منه وقد أمكن صاحبكم منه فقتله بالطريق فما على محمد في هذا ، فأسند سهيل بن عمرو ظهره إلى الكعبة وقال : والله لا أؤخر ظهري حتى يؤدى هذا الرجل ، قال أبو سفيان بن حرب إن هذا لهو السفه والله لا يؤدى ثلاثاً ، قريش تديه ، وإيما بعثته بنو زهرة . فقال الأخنس بن شَرِيق : والله ما

---

(٢) أي خوفاً .

(٣) بضم اللام ووصل الهمزة وكسر الميم المشددة : كلمة تقال للمدح ولا يقصد ما فيها من الذم .
وقوله مسعر حرب . بكسر الميم وسكون المهملة وفتح العين المهملة . وأصله سعر الحرب يسعرها : كأنه يصفه بالإقدام في الحرب والتسعير بنارها .

(٤) بكسر السين : أي ساحله .

نودّيه ، ما قتلناه ولا أمرنا بقتله ، قتله رجل مخالف ، فأرسلوا إلى محمد يديه . فقال أبو سفيان بن حرب : لا ، ما على محمد دية ولا غرم قد بريء محمد ما كان على محمد أكثر مما صنع . فكان أبو سفيان بن حرب في هذا الموقف رجل العدل والإنصاف حيث ما كان يرجى منه أن يقول ما قال لأنه كان من أشد أعداء رسول الله ﷺ ، وعلى كل فلا بُدّ للحق من ناصر . فلم تخرج له دية . فأتى أبو بصير ومَن معه بِسيف البحر ، وقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكّة قول النبي ﷺ لأبي بَصِير « ويل أمه مسعر حرب لو كان معه أحد » ، فخرج المستضعفون إليه حتى بلغوا سبعين راكباً وترأس القوم هناك أبو جندل لكونه قرشياً فكان يؤمهم ، واجتمع إلى أبي جندل حين قدومه مَن سمع به مِن بني غفار ، وأسلم ، وجهينة ، وطوائف من الناس حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل ، كما عند البيهقي عن ابن شهاب ، لا تمر بهم عير لقريش إلا أخذوها وقتلوا مَن فيها ، وضيّقوا على قريش ، فلا يظفرون بأحد إلا قتلوه ، فقال أبو جندل :

أَبْلِغ قريشاً عن أبي جندل ... أنّا بذي المَرْوَة فالساحلِ
في مَعْشَرٍ تخفُقُ أيمانُهم ... بالبيضِ فيها والقَنا الذابِلِ
يَأبَون أن تبقى لهم رُفْقَةٌ ... مِنْ بعد إسلامهم الواصلِ
أو يَجْعَلَ الله لَهُمْ مَخْرَجاً ... والحَقُّ لا يُغْلَب بالباطِلِ
فَيُسْلم المرءُ بإسْلامِهِ ... أو يُقْتَل المرء ولم يَأتَلِ

فأرسلت إلى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب تناشده الله والرحم ويتضرعون إليه أن يبعث إلى أبي بَصِير وأبي جندل ومَن معهم وقالوا : مَن أتاك فهو آمن ، ومَن خرج إليك فامسكه فهو لك حلال ، فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا باباً لا يصلح اقراره . فكتب رسول الله ﷺ إلى أبي جندل بن سهيل بن عمرو ، وإلى أبي بصير أن يقدموا عليه وأن من معهم

من المسلمين يلحقون ببلادهم وأهليهم ولا يتعرضون لأحد مر بهم من قريش ولا غيرهم . فقدم كتاب رسول الله ﷺ عليهما وكان أبو بصير رضي الله عنه يؤم القوم ويصلّي بهم ، وكان يُكثر من قول :

الحمد لله العلي الأكبر مَنْ يَنْصرِ الله فسوف يُنْصَرْ

فجاءه كتاب رسول الله ﷺ وهو محتضر من مرض أصابه فمات وكتاب رسول الله ﷺ في يده يقرؤه ، فدفنه أبو جندل مكانه وصلى عليه . وقدم أبو جندل على رسول الله ﷺ مع ناس من أصحابه ورجع باقيهم إلى أهليهم ، وأمنت قريش على عيرهم .

ثم جاء المدينة عمارة والوليد ، ابنا عقبة ، يسألان رسول الله ﷺ ردّ أختيهما أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وأخت عثمان بن عفان لأمه وكانت بكراً عملاً بالشروط ، فأبى رسول الله ﷺ أن يرجعهما إليهم . فلما رجع عمارة والوليد أخبرا قريشاً بذلك فرضوا به .

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحُدَيْبِية ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين رسول الله ﷺ وبين ربّه ، والعباد يعجلون والله تعالى لا يعجل لعجلة العباد حتى يبلغ الأمور ما أراد ، لقد رأيت سهيل بن عمرو في حجة الوداع قائماً عند المنحر يقرب لرسول الله ﷺ بدنة ورسول الله ﷺ ينحرها بيده ودعا الحلاق فحلق رأسه فأنظر إلى سهيل يلقط من شعره وأراه يضعه على عينه ، وأذكر إمتناعه أن يقر يوم الحديبية بأن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم فحمدت الله الذي هداه للإسلام .

قال عروة : فلما كان ذلك من أمرهم يعني قريشاً علم الذين كانوا أشاروا على رسول الله ﷺ أن يمنع أبا جندل من أبيه بعد القضية ، أن طاعة رسول الله ﷺ خير لهم فيما أحبوا وفيما كرهوا من رأي ، ومن ظن أن له قوة

هي أفضل مما خص الله تعالى به رسوله ﷺ من الفوز والكرامة فقد أخطأ . ومما يؤيد ذلك أنه لما دخل رسول الله ﷺ عام عمرة القضية وحلق رأسه قال : « هذا الذي وعدتكم » ، ولما كان يوم الفتح أخذ المفتاح وقال : « ادعوا إليّ عمر بن الخطاب فقال هذا الذي قلت لكم » . فلما كان في حجة الوداع وقف بعرفة فقال : « أي عمر هذا الذي قلت لكم » قال : أيْ رسول الله ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية .

وحاصل هذه القضية أن قريشاً أرادت أن تتحكّم في الإسلام وفي نبي الإسلام يوم الحُدَيْبِية بشرائطها التي أثارت نفوس المسلمين ، ولولا خضوعهم الديني لرسول الله ﷺ الذي أرغمهم إرغاماً على قبوله حتى كادوا يفتتنوا لولا أن تداركهم الله بلطفه وعنايته ، فقضى ربك أن تكون تلك الشروط القاسية على المشركين لا على المسلمين ، وجل تلك القساوة هي انه مَن أتاك منا مسلماً تردّه إلينا ومنها حادثة أبي جندل ، فكان من تطبيق هذا الشرط القاسي أن نشأ على رأس أبي بَصِير عصابة مسلمة حاسبت قريشاً حساباً عسيراً وأعلمتها نتيجة تلك القساوة التي استعملتها في أحرج المواقف ضد المسلمين أن يستجيروا بنبي الإسلام ﷺ في حل تلك الشروط واستبدالها بعكسها تماماً ، وهو انه مَن أتاك منا لا يعود بل احبسه عندك واكفنا شره ، ومِن ذلك ظهر أن القساوة في كل شيء لا تنتج إلا بالمضرة ، وان في الملاطفة ، والمجاملة ، وغض الطرف ، والتسامح ، مِنَ الخير ما لا يحصل عن طريق القساوة والشدة ، فكان من أمر الصلح أن الفوز للمسلمين على المشركين بموجب تلك الشرائط التي في ظاهرها فوز المشركين على المسلمين « وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرٌ لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم » فعلم الله تعالى فوق علم البشر .

غزوة ذي قرد

كان لقاح[1] للنبي ﷺ ترعى (بذي قَرَدْ[2]) وهو ماء على عشرين ميلاً من المدينة[3] ، وكانت ترعى البيضا وَدَون البيضا إلى جبل وهو طريق خيبر وهي عشرون لقحة ، وكان الذي يرعاها أبو ذو الغفاري رضي الله عنه ومعه ابنه ذر وزوجته ليلى . وكان أبو ذر قد استأذن رسول الله ﷺ إلى لقاحه ، فقال له رسول الله ﷺ : « إني أخاف عليك من هذه الضاحية تغير عليك ونحن لا نأمن عيينة بن حصن وذويه وهم في طرف من أطرافهم » ، فألحّ عليه ، فقال رسول الله ﷺ : « لكأني بك قد قتل ابنك وأُخذت امرأتك وجئت تتوكأ على عصاك » فكان أبو ذر يقول : عجباً والله اني لفي منزلنا ولقاح رسول الله ﷺ قد روحت وعقلت وحلبت عتمتها[4] ونمنا ، فلما كان الليل أحدق بنا عيينة بن حصن في أربعين فارساً فصاحوا بنا وهم قيام على رؤوسنا ، فأشرف لهم ابني فقتلوه ، وكانت معه امرأته وثلاثة نفر فنجوا وتنحيت عنهم وشغلهم عني إطلاق عقل اللقاح ، ثم صاحوا في أدبارها فكان آخر العهد بها ، ولما قدمت على رسول الله ﷺ وأخبرته تبسم ، فاستقاق عيينة بن حصن الفزاري وقومه اللقاح بعد أن قتلوا ابن أبي ذر وأسروا زوجته فنجت منهم بليل على بعير من إبل رسول الله ﷺ ، وكان سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قد خرج نحو تلك الجهة متوشحاً قوسه ونبله ومعه رباح غلام رسول الله ﷺ وغلام لطلحة بن عبيد الله معه فرس له يقوده حتى إذا كان على

---

(١) بكسر اللام : ذوات اللبن من الإبل .

(٢) بفتح القاف والراء ودال مهملة ، هذا هو الصواب . وروي بضمتين ؛ حكاه البلاذري .

(٢) في طريق الشام .

(٣) العتمة : ثلث الليل . وروحت : أي ردت إلى مراحها الذي بنيت فيه .

ثنية الوداع لقيه غلام عبد الرحمن بن عوف ، فقال له : أُخِذَتْ لقاح رسول الله ﷺ ، قال : ومَن أخذها ؟ قال : غطفان ، فنظر سلمة بعض خيولهم ، فأشرف من ناحية سلع ، فصرخ سلمة ثلاث صرخات « واصباحاه » فأسمع ما بين لابتي المدينة ، ثم خرج يشتد عَدْواً خلف القوم ، وكان أشد سبقاً من الخيل حتى أدركهم بذي قَرَد ، فوجدهم يسقون من الماء فرماهم بالنبل . وكان رامياً ويقول إذا رمى : خذها وانا ابن الأكوع اليوم يوم الرضع[1] : وذلك لأنه كان شجاعاً مشهوراً يخشى بأسه عند العرب ، وكان من عادة الشجعان يرتجزون بأسمائهم في حومة الوغى لإرهاب العدو ، فإذا وجهت الخيل نحوه انطلق هارباً ثم عارضهم فإذا أمكنه الرمي رمى وقال : خذوها وأنا ابن الأكوع اليوم يوم الرضع ، فيقول قائلهم : أويكعنا هو أول النهار ؟ فلم يزل يطاردهم حتى لحق رَجُلاً منهم فصكه سهماً في رحله[2] فأنفذه إلى كتفه وقال له : خذها وأنا ابن الأكوع . فما زال يرميهم ويعقرهم . فإذا هجم عليه فارس طلع إلى شجرة ورماه منها ، حتى أدخل القوم بين مضيق جبلين ، فعلا الجبل ورماهم بالحجارة حتى استنقذ منهم لقاح رسول الله ﷺ وخلفها وراء ظهره ، ثم تبعهم وهو يرميهم حتى ألقوا ثلاثين بردة وثلاثين رمحاً ، فوضع عليها حجارة آراماً[3] حتى يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه أنها من كسبه . وقد أرسل سلمة بن الأكوع رضي الله عنه رباحاً على فرس طلحة بن عبيد الله وقال له : إلحق بطلحة وأخبر رسول الله ﷺ أن قد أُغير

---

(١) جمع راضع « أي اللئيم » ، أي اليوم يوم حين اللئام أي هلاكهم . والراضع : هو الذي رضع اللؤم من ثدي أمه فصار سجيته التي لا تفارقه ، أو الذي يرضع ما بين أسنانه حرصاً على الشبع يستكثر من التجشع .

(٢) وفي شرح المواهب عن مسلم وابن سعد : قال يعني سلمة : فأقبلت أرميهم بنبلي وأرتجز فألحق رجلاً منهم فأمكنه سهماً في رجله فيخلص السبهم إلى كعبه . اهـ . وبالحاء : أي في رحله ، أي في كور ناقته .

(٣) أي أعلاماً .

على سرحه . وما زال رضي الله عنه يطارد القوم حتى اشتد الضحى أتاهم عيينة فقال لقومه : ما هذا الذي أرى ؟ قالوا : لقينا من هذا البرح[1] ، ما فارقنا السحر حتى الآن ، وأخذ كل شيء في أيدينا وجعله وراء ظهره . فقال عيينة : لولا أن هذا يرى أن وراءه طلب لقد ترككم ، وقال : ليقم إليه نفر منكم . فقام إليه أربعة منهم ، فصعدوا في الجبل . قال سلمة : فلما أسمعتهم الصوت قلت لهم : أتعرفوني ؟ فقالوا : ومَن أنت ؟ فقلت : أنا ابن الأكوع ، والذي أكرم وجه محمد ﷺ لا يطالبني رجل منكم فيدركني ولا يطلبني فيفوتني . فقال رجل منهم : اني أظن . فرجعوا .

فلما بلغ رسول الله ﷺ صياح ابن الأكوع فنادى مناديه بالمدينة : الفزع الفزع يا خيل الله اركبي . فترامت الخيول إلى رسول الله ﷺ . وكان أول مَن أقبل على رسول الله ﷺ المقداد بن عمرو المشهور بابن الأسود الكِنْدي الحضرمي ، قال المقداد رضي الله عنه : لما كانت ليلة السرح جعلت فرسي (سيحة) لا تقر ضرباً بيدها وصهيلاً فأقول والله أن لها لشأناً ، فأنظر إلى أريها[2] فإذا هو مملوء علفاً ، فأقول عطش فأعرض عليها الماء فلا تريده ، فلما طلع الفجر أسرجتها ، ولبست سلاحي حتى أصلّي مع رسول الله ﷺ الصبح فلم أر شيئاً ، ودخل رسول الله ﷺ بيته ورجعت إلى بيتي والفرس لا تقر ، فوضعت سرجها والسلاح واضطجعت ، فأتاني آت فقال : إن الخيل قد صيح بها ، فخرجت . هذا حديث المقداد عن فرسه في هذه الحادثة . ثم أقبل بعد المقداد عبادة بن بشر الأنصاري ، ثم أقبل أُسيد بن ظهير الأنصاري ، ثم أقبل عكاشة بن محصن الأسدي ، ثم أقبل محرز بن نضلة الأسدي ، ثم أبو قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري ، ثم أبو عياش عبيد بن

---

(١) الشدة والأذى .

(٢) الأري : مربط الدابة ومعلفها .

زيد بن الصامت الأنصاري ، ثم أقبل سعد بن زيد . وركب رسول الله ﷺ في نحو سبعمائة رجل ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، وخلف سعد بن عبادة رضي الله عنه في ثلاثمائة يحرسون المدينة ، وأعطى اللواء المقداد بن عمرو الكِندي في رمحه وقال : « امض حتى تلحقك الخيول وأنا على أثرك » . وخرج رسول الله ﷺ في ربيع الأول سنة ست من الهجرة ، فطارت فرسان الصحابة خلفهم ، فكان أولهم المقداد ، ثم عبادة بن بشر ، ثم سعد بن زيد الأنصاري ، وأسيد بن ظهير ، وعكاشة بن محصن ، ومحرز بن نضلة ، وأبو قتادة ، وأبو عياش ، والأخرم الأسدي . فأدرك أبو قتادة في طريقه مسعدة بن حكيم الفزاري فقتله وسجاه ببرد كي لا يسلبه أحد من الصحابة . وأدرك عكاشة ، أبان بن عمرو ، وابنه عمراً ، على بعير واحد فأنفذهما بالرمح فقتلهما ، حتى أدركوا سلمة بن الأكوع ، وكان أول من أدركه محرز الأخرم الأسدي ، وعلى أثره أبو قتادة الأنصاري ، وعلى أثره المقداد بن الأسود على فرسه (سبحة) ، وقد ولّى القوم مدبرين ، فأخذ سلمة بن الأكوع بعنان محرز الأخرم وقال له : أحذرهم لا يقتطعوك حتى يلحق رسول الله ﷺ وأصحابه . فقال : يا سلمة ، إن كنت تؤمن بالله واليوم الآخر وتعلم أن الجنة حق والنار حق فلا تحل بيني وبين الشهادة . فخلى سبيله . فالتقى محرز الأخرم برجل من القوم اسمه عبد الرحمن ، فعقر عبد الرحمن فرسه وطعن الأخرم فقتله وتحول على فرسه ، فلحق أبو قتادة عبد الرحمن فقتله ، فعدا سلمة بن الأكوع خلف القوم حتى لم ير خلفه أحد من الصحابة ولا غبارهم ، وأدرك القوم وهم عطاش ، ورآهم عدلوا إلى شعب بذي قَرَد فيه ماء ليستقوا منه ، فرماهم بالنبل حتى أجلاهم عنه ، فما ذاقوا منه قطرة ، فلحق رَجُلاً منهم فصكه بسهم في نفض[1] كتفه وقال :

(١) العظم الدقيق على طرف الكتف .

خذها وأنا ابن الأكوع ، اليوم يوم الرضع . قال : يا ثكلته أمّه أنت الأكوع الذي كنت تطاردنا من أول النهار ؟ قال : نعم ، يا عدو نفسه أكوعك من أول النهار . وترك القوم فرسين لم يقويا على الإنهزام ، فجاء بهما سلمة بن الأكوع إلى رسول الله ﷺ ، فأتاه عمه عامر باناء فيه لبن واناء فيه ماء ، فشرب سلمة وتوضأ ، وأتى رسول الله ﷺ ، وقد أخذ تلك الإبل وكل شيء استنقذه من المشركين ، ونحر بلال ناقة من تلك الإبل وشوى لرسول الله ﷺ من كبدها وسنامها ، فقال سلمة : يا رسول الله خلني أنتخب من القوم مائة رجل فأتبع القوم فلا يبقى منهم مخبر إلا قتلته . فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه فقال : « يا سلمة أتراك كنت فاعلاً ؟ » قال : نعم والذي أكرمك . فقال ﷺ : « انهم الآن ليقرون في غطفان يا ابن الأكوع إذا ملكت فاسجع » أي إذا قدرت فارفق . فلما أصبحوا قال رسول الله ﷺ : « كان خير فرساننا اليوم أبا قتادة ، وخير رجالنا سلمة » ، فأعطى رسول الله ﷺ أبا قتادة سلبه ، وأعطى سلمة سهمين ، سهم الفارس وسهم الراجل ، فجمعها إليه جميعاً . وأقام رسول الله ﷺ يوماً وليلة يتجسس الخبر . ورجع ﷺ إلى المدينة وأردف خلفه سلمة بن الأكوع على العضباء . فلما كان بينهم وبين المدينة قريب من ضحوة وفي القوم رجل من الأنصار كان لا يسبق ، فجعل ينادي : هل من سابق ؟ ألا رجل يسابق إلى المدينة ؟ فكرر القول مراراً . قال سلمة بن الأكوع وأنا وراء رسول الله ﷺ مردف قلت له : أما تكرم كريماً ولا تهاب شريفاً ؟ قال : لا إله رسول الله ﷺ ، قلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي خلني فلأسابق الرجل . قال : « إن شئت » . قلت : أذهب إليه . فظفر عن راحلته وثنيت رجلي فظفرت عن الناقة ، ثم ارتبطت عليه شرفاً أو شرفين ، يعني استبقيت نفسي ، فغدوت حتى ألحقه فأمسك بين كتفيه بيدي وقلت : سبقته والله ، فضحك وقال : اني أظن . فسبقته حتى قدمنا المدينة يوم الاثنين وقد غاب ثلاث ليال .

واستشهد من المسلمين رَجُلان : ذر بن أبي ذر الغفاري ومحرز الأخرم الأسدي رضي الله عنهما . وقتل من المشركين ثلاثة : سعد بن حكيم الفزاري وأبان بن عمرو وابنه عمرو .

ربما يتساءل القارىء عن بطل هذه القصة ، سلمة بن الأكوع رضيَ الله عنه ، لأنه لم يسمع بذكره إلا يوم الحُديْبِية ، وهو أول من بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة على الموت . فأقول كان يوم الحُدَيْبِية أول مشاهده ، وستقف له على كثير من أعماله الرائعة . وهذه الغزوة نقلت معظمها من صحيح مسلم ، لأني لما قرأتها في بعض السير ظننتها مبالغاً فيها ، فلما راجعت صحيح مسلم وجدته ذكر بإسناده الصحيح معظم القصة التي تتعلق ببطل الغزوة سلمة بن الأكوع ، ذلك البطل العظيم الذي لا يجارى ولا يباريه أحد في شدة عدوه ، ذلك الأسد المغوار ، وحديثه شائع في كثير من كتب السير والتاريخ والتراجم . قال الحافظ ابن حجر في (الإصابة) ، في ترجمة سلمة بن الأكوع ، أول مشاهده الحُدَيْبِية ، وكان من الشجعان ويسبق الفرس عَدْواً ، وقد عمَّر ، وتوفي سنة أربع وسبعين من الهجرة رضي الله عنه وكثر في الإسلام من أمثاله .

كتبه إلى الملوك

لما فرغ رسول الله ﷺ من صلح الحُدَيْبِية مع قريش ورجع إلى المدينة ، عزم على أن يكتب إلى الملوك المجاورة له ، من عرب وعجم ، فقيل له إنهم ـ يعني الملوك ـ لا يقرأون الكتب إلاّ إذا كانت مختومة ، فاتخذ خاتماً من فضّة ونقش فيه ثلاثة أسطر : محمد السطر الأسفل ، ورسول السطر الأوسط ، والله السطر الأعلى ، وكان يختم به الكتاب بعد طيه وذلك لئلا يطّلع عليه أحد غير المرسل إليه لحفظ ما فيه من الأسرار ، وكان يلبسه مرة في خنصر يده اليمنى ، ومرة في خنصر يده اليسرى ، وجعل فصه

المنقوش عليه اسمه من العقيق الحبشي ، وكان يجعل فصه من قبل بطنِ كفه . هذا أصح ما ورد في ذلك . وقد جعل أصحاب السير والمغازي كتب النبي ﷺ إلى الملوك في آخر السيرة وبما اني قد سلكت في كتاب (سيد العرب) أن أذكر كل قضية بحسب تاريخ وقوعها ، فقد أتيت بكتبه في السنة التي كانت فيها الملوك وهي بعد عمرة الحديبية .

كتابه إلى المقوقس ملك مصر

كتب رسول الله ﷺ في شهر ذي الحجة سنة ست من الهجرة ، إلى المقوقس[1] ملك القبط بمصر . وهذه صورة الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم القبط . يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

وبعث به حاطب بن أبي بلتعة ، فتوجه به إليه لمصر فوجده بالاسكندرية ، فذهب إليها ، فرآه في مجلس مشرف على البحر ، فركب حاطب سفينة وحاذى مجلسه وأشار بالكتاب إليه ، فلما رآه أمر بإحضاره بين يديه ، فلما جيء به إليه ونظر إلى الكتاب فضَّه وقرأه ، وقال لحاطب : ما منعه إن كان نبياً أن يدعو على من خالفه من قومه وأخرجه من بلده إلى غيرها ؟ فقال حاطب : ألست تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله فما له حيث آذاه قومه وأرادوا أن يصلبوه أن لا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم الله حتى

---

(١) واسمه : جريج بن مينا .

رفعه إليه : قال : أحسنت ، حكيم جاء من عند حكيم . ثم قال لحاطب : ما منعه أن يدعو علي فيسلط علي ؟ فقال حاطب : انه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى ـ يعني فرعون ـ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك . فقال المقوقس : إن لنا دِيناً لن ندعه إلا لمن هو خير منه . فقال حاطب : ندعوك إلى دِين الله ، وهو الإسلام ، الكافي به الله فَقْدُ ما سواه . إن هذا النبي ﷺ دعا الناس ، فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له اليهود وأقربهم منه النصارى ، ولعمري ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ﷺ ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعاء أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبي أدرك قوماً فهم أمته فالحق عليهم أن يطيعوه ، فأنت ممن أدرك هذا النبي ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به . فقال المقوقس : أسألك عن ثلاث ؟ قال حاطب : لا تسألني عن شيء إلا أصدقتك . قال إلى مَ يدعو محمد ؟ قال : إلى أن يعبد الله وحده ، ويأمر بخمس صلوات في اليوم والليلة ، وصيام رمضان ، وحج البيت ، والوفاء بالعهد ، وينهى عن أكل الميتة والدم . قال : صِفْه لي ؟ . فوصفه فأوجز . قال : بقيت أشياء لم تذكرها أو في عينيه حمرة ؟ قال : ما تفارقه ؟ قال : وبين كتفيه خاتم النبوة ؟ يركب الحمار ، ويلبس الشملة ، ويجتزي بالثمرات ، والكسر ، لا يبالي من لاقى من عم ، ولا ابن عم ، قال حاطب : هذه صفته . قال : قد كنت أعلم أن نبياً قد بقي وكنت أظن أن مخرجه من الشام ، وهناك كانت تخرج الأنبياء قبله ، فأراه قد خرج في أرض العرب ، في أرض جهد وبؤس ، وإني قد نظرت في أمر هذا النبي فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكذاب ، ووجدت معه آلة النبوة بإخراج الخباء والإخبار بالنجوى ، والقبط لا تطاوعني على اتباعه ، وأنا أضن بملكي أن أفارقه ، وسيظهر على البلاد وينزل أصحابه من بعده بساحتنا هذه حتى يظهر على ما

ههنا ، وأنا لا أذكر للقبط من هذا حرفاً ولا أحب أن تُعلم بمحاورتي إياك أحداً ، وسأنظر . فأخذ كتاب النبي ﷺ وجعله في حِقٍ من عاج وختم عليه ودفعه إلى جارية له ، ثم دعا كاتباً له يكتب بالعربية ، فكتب إلى رسول الله ﷺ « بسم الله الرحمن الرحيم . لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط . أما بعد ، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه . وقد علمت أن نبياً قد بقي وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام . وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم وبخصي ، وبكسوة ، وهدية ، وبغلة ، لتركبها وحمار ، وفرس والسلام » . ولم يزد على ذلك ولم يسلم . ثم قال لحاطب : ارجع إلى صاحبك وارتحل من عندي ولا تسمع منك القبط حرفاً واحداً .

أما الهدية فهي مارية ، وسيرين ، القبطيتين والخصي اسمه (مابور) شيخ كبير كان أخا مارية القبطية ، والكسوة عشرون ثوباً من قباطي مصر ، وعمائم ، وعود ، ومسك ، وألف مثقال ذهب ، وقدح زجاج ، وعسل من عسل بنها ، ومشط ، ومقص ، وسواك ، ومكحلة من عيدان شامية ، ومرآة ـ كل ذلك يتعلق بالزينة داخل صندوق يقال له ربعة ـ والبغلة لونها شهباء ، ولم يكن في بلاد العرب بغلة غيرها في ذلك العصر وتسمى (الدلدل) ، وحمار أشهب يسمى (يعفور) ، وفرس يُقال له (المرتجز) من أجود خيل مصر فأسرج ولجم ، وأعطى لحاطب مائة دينار وخمسة أثواب .

فارتحل حاطب من عنده وبعث معه جيشاً يحرسونه إلى داخل جزيرة العرب ، فوجد قافلة آتية من الشام تريد المدينة فرد الجيش وارتفق بالقافلة إلى أن أتى المدينة وأعطى لرسول الله ﷺ الكتاب والهدايا .

وقد كان المقوقس علم بمبعث رسول الله ﷺ وهجرته إلى المدينة قبل أن يبعث رسول الله ﷺ إليه حاطباً بكتابه ، وذلك أن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه لما وَفَدَ عليه ومعه رهط من ثقيف ، قبل إسلامه ، قال له المقوقس :

ما صنعتم فيما دعاكم إليه محمد ؟ قالوا : ما تبعه منا رجل واحد . قال : كيف صنع قومه ؟ قالوا : اتبعه أحداثهم وقد لاقاه من خالفه في مواطن كثيرة . قال : فإلى ماذا يدعو ؟ قالوا : إلى أن نعبد الله وحده ونخلع ما كان يعبد آباؤنا ، ويدعو إلى الصلاة والزكاة ، وصلة الرحم ، ووفاء العهد ، وتحريم الزنى ، والربا ، والخمر . قال المقوقس : هذا نبي مرسل إلى الناس كافّة ، ولو أصاب القبط والروم لاتبعوه ، وقد أمرهم عيسى بذلك ، وهذا الذي تصفونه منه نعت الأنبياء من قبله ، وستكون له العاقبة حتى لا ينازعه أحد ويظهر دينه إلى منتهى الخف والحافر . فقالت له ثقيف رفقاء المغيرة : لو دخل الناس كلهم معه ما دخلنا معه . فهزّ المقوقس رأسه وقال : أنتم في الكعب . ثم سأل عن أشياء مثل سؤال هرقل الآتي في قصة لأبي سفيان . ثم قال لهم : ما فعلت يهود يثرب ؟ قالوا : خالفوه . فأوقع بهم فقال : هم حسدة ، أما انهم يعرفون من أمره مثل ما نعرف .

كتابه إلى قيصر الروم

وكتب رسول الله ﷺ إلى هرقل ، قيصر الروم ، كتاباً في شهر ذي الحجة سنة ست من الهجرة ، يدعوه إلى الإسلام وبعث به دحية الكلبي رضي الله عنه ، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بُصرى ـ مدينة حوران وهي قرية من طرف البرية بين الحجاز والشام ـ ليدفعه إلى قيصر الروم . فلما انتهى دحية الكلبي إلى عظيم بُصرى الحارث ملك غسان دفع إليه الكتاب ، فدفعه عظيم بُصرى إلى هرقل قيصر الروم . هذه رواية مسلم ، وأما أصحاب السير فذكروا ذلك بوضوح تام ، وهو فلما انتهى دحية إلى الحارث عظيم بُصرى أرسل معه عدي بن حاتم الطائي قبل إسلامه ليوصله إلى قيصر ، فذهب به إليه ، فقال قوم لدحية : إذا رأيت الملك فاسجد له ، ثم لا ترفع رأسك أبداً حتى يأذن لك . قال دحية رضي الله عنه : لا أفعل هذا أبداً ولا أسجد لغير

الله تعالى . قالوا : إذاً لا يأخذ كتابك . فقال له رجل منهم : أنا أدلّك على أمر يؤخذ فيه كتابك ولا تسجد له . فقال دحية : وما هو ؟ فقال : إن له في كل عتبة منبراً يجلس عليه فدع صحيفتك تجاه المنبر فإن أحداً لا يحرّكها حتى يأخذها هو ثم يدعو صاحبها . ففعل ، فلما أخذ قيصر الكتاب وجد عليه عنوان كتاب العرب ، فدعا الترجمان[1] الذي يقرأ باللغة العربية ، فقال : انظر ، هل هنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي . قالوا : نعم . وكان أبو سفيان بن حرب بالشام في نفر من قريش تجاراً ، فدعوه ومَن معه النفر من قريش ، فدخلوا على هرقل ، فأجلسهم بين يديه ، فقال : أيكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : أنا . فأجلسوه بين يديه وأجلسوا أصحابه خلفه ، ثم دعا بترجمانه فقال له : قل لهم اني سائل هذا عن الرجل الذي يزعم أنه نبي فإن كذبني فكذبوه . فقال أبو سفيان : وايم الله لولا مخافة أن يؤثر عليّ الكذب لكذبت . ثم قال هرقل لترجمانه : سله كيف حسبه فيكم ؟ قال : هو فينا ذو حسب . قال : فهل كان من آبائه ملك ؟ قال : لا . قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا . قال : ومَن يتبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم . قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قال : لا بل يزيدون . قال : هل يرتد أحد منهم عن دِينه بعد أن يدخل فيه سُخطة[2] له ؟ قال : لا . قال : فهل قاتلتموه ؟ قال : نعم . قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قال : يكون الحرب بيننا سجالاً يصيب منا ونصيب منه . قال : فهل يغدر ؟ قال : لا ، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو صانع فيها . ثم قال أبو سفيان : فوالله ما أمكنني من كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه . قال هرقل: فهل قال هذا القول

---

(١) هو معرب ، وقيل عربي ، والتاء فيه أصلية . وقال الجوهري : زائدة ، وأنكروا عليه .

(٢) بضم السين وفتحها : أي كراهة .

أحد قبله ؟ قال : لا . قال لترجمانه : قل له اني سألتك عن حسبه فزعمت انه فيكم ذو حسب ، وكذلك الرُسُل تُبعث في أحساب قومها ، وسألت هل كان في آبائه ملك فزعمت أن لا ، فقلت لو كان في آبائه ملك قلت رجل يطلب ملك آبائه ، وسألتك عن أتباعه أضعفاؤهم أم أشرافهم فقلت بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسُل ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا ، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب فيكذب على الله ، وسألتك هل يرتد أحد منهم عن دِينه بعد أن يدخل سُخطة له فزعمت أن لا ، وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب ، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون فزعمت أنهم يزيدون ، وكذلك الإيمان حتى يتم ، وسألتك هل قاتلتموه ، فزعمت أنكم قاتلتموه فتكون الحرب بينكم سجالاً ينال منكم وتنالون منه ، وكذلك الرسُل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة ، وسألتك هلى يغدر ، فزعمت انه لا يغدر ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك هل قال هذا القول أحد قبله فزعمت أن لا ، فقلت لو قال هذا القول أحد قبله قلت رجل ائتم بقول قيل قبله ، ثم قال هرقل : بمَ يأمركم ؟ قال أبو سفيان يأمرنا بالصلاة ، والزكاة ، والصلة ، والعفاف . قال : ان يكن ما تقول فيه حقاً فانه نبي وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظنه منكم ، ولو اني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه وليبلغن ملكه ما تحت قدمي . ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهُدى . أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الإريسيين ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . وجاء في قوله ﷺ : « إنما عليك إثم

الاريسيين » فالاريسيون هم الفلاحون ، والمعنى أن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك ، واختص بهؤلاء الاريسيين دون عموم الرعايا لأنهم الأغلب والأسرع للإنقياد . وكذلك جاء في قول هرقل عن أتباع النبي ﷺ هم الأشراف أم الضعفاء ، وذلك على حسب الأغلب في الاتباع ، مع أن من أتباع النبي ﷺ في أول الإسلام مثل حمزة بن عبد المطلب ، وعبيدة بن الحارث ، وطلحة ، والزبير ، وأبي بكر ، وسعد بن أبي وقاص ، وعمر ، وعثمان ، وسعيد بن زيد وغيرهم ، ومن أبناء الأشراف مثل مصعب بن عمير ، وعلي بن أبي طالب ، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية ، وعثمان بن مظعون ، وأبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي ، وجعفر بن أبي طالب ، وأبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، سيد بني عبد شمس ، وأبو جندل بن سهيل بن عمرو كما تقدّم في أسماء أول من آمن ، وإنما كما قلنا أن الأغلب كانوا من الضعفاء ، وذلك لأن الضعف ، كما يطلق على الموالي والاتباع والنساء ، يطلق أيضاً على الأشراف مع وجود آبائهم الذين هم على غير دِين الإسلام ، وقد سبق تفصيل ما كان يحصل على أولئك الأبناء من آبائهم ، وما حديث أبي جندل ببعيد .

فلما فرغ هرقل من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط ، وذلك أن ابن أخ القيصر أظهر الغيظ الشديد وقال للقيصر : أيبدأ بنفسه ـ يعني رسول الله ﷺ ـ وسمّاك صاحب الروم ، الق بكتابه ؟ فقال له : والله انك لضعيف الرأي ، أترى أرمي بكتاب رجل يأتيه الناموس الأكبر ، هو أحق أن يبدأ بنفسه ، ولقد صدق ، أنا صاحب الروم والله مالكي ومالكه . وأمر بإخراج أبي سفيان وأصحابه . فقال أبو سفيان لأصحابه حين خرجوا : لقد أمِرَ أمْرَ ابن أبي كبشة انه ليخافه ملك بني الأصفر يعني أنه أعظم أمر النبي ﷺ ، وأبو كبشة كنية جده أبو أمه آمنة الزهرية . فقال أبو سفيان : فما زلت موقناً بأمر رسول الله ﷺ انه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام .

فقال القيصر لقومه : يا قوم ألستم تعلمون أن بين يدي الساعة نبياً بشّركم به عيسى بن مريم ترجون أن يجعله الله فيكم ؟ قالوا : بلى . قال : فإن الله قد جعله في غيركم وهي رحمة الله عزَّ وجلّ يضعها حيث يشاء . وأمر بإنزال دحية الكلبي وإكرامه . ثم إن القيصر سار إلى حمص ، ولما دخل دسكرته أذن لعظماء الروم بالدخول ، وأمر بالأبواب فغلقت ثم اطلع عليهم فقال : يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وان يثبت ملككم فتتابعوا هذا النبي . فحاصوا[1] حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد أغلقت ، وقالوا له : تدعونا أن نترك النصرانية ونصير عبيد الأعراب . فلما رأى نفرتهم وآيس من إيمانهم ، قال ردوهم علي ، فقال لهم : اني قلت مقالتي أختبر بها شدّتكم على دينكم فقد رأيت . فسجدوا له ورضوا عنه ، وعند ذلك كتب كتاباً وأرسله مع دحية الكلبي إلى رسول الله ﷺ يقول فيه اني مسلم ولكني مغلوب ، وأرسل بهدّية . فلما قرأ كتابه رسول الله ﷺ قال : « كذب عدو الله ليس بمسلم » وقبل هديته وقسمها بين المسلمين . هذه من رواية البخاري . وروى ابن حبان في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كتب إليه أيضاً من تبوك يدعوه وانه قارب الإجابة ولم يجب .

وذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري عن السهيل انه بلغه أن هرقل وضع الكتاب في قصبة من ذهب تعظيماً له وانهم لم يزالوا يتوارثونه حتى كان عند ملك الفرنج ـ أي ملك فرنسا ـ الذي تغلّب على طليطلة ثم كان عند سبطه ، ثم قال : فحدّثني بعض أصحابنا أن عبد الملك بن سعد ، أحد قواد المسلمين ، اجتمع بذلك الملك فأخرج له الكتاب ، فلما رآه استعبر وسأل أن يمكّنه من تقبيله فامتنع .

وروي عن القاضي نور الدين بن الصائغ الدمشقي عن سيف الدين

---

(١) أي نفروا : وشبههم بها لمناسبة الجهل وعدم الفطنة .

فليح المنصوري قال : أرسلني الملك المنصور قلاوون إلى ملك الغرب بهدية ، فأرسلني ملك الغرب إلى ملك الفرنج في شفاعة ، فقبلها ، وعرض عليّ الإقامة عنده فامتنعت ، فقال لي : لأتحفنك بتحفة سنية . فأخرج لي صندوقاً مصفحاً بذهب فأخرج منه مقلمة ذهب فأخرج منها كتاباً قد زالت أكثر حروفه وقد التصقت عليه خرقة حرير فقال : هذا كتاب نبيكم إلى جدي قيصر ما زلنا نتوارثه إلى الآن ، وأوصانا آباؤنا أنه ما دام هذا الكتاب عندنا لا يزال الملك فينا فنحن نحفظه غاية الحفظ ونعظمه ونكتمه عن النصارى ليدوم الملك فينا انتهى . قال الحافظ ابن حجر : ويؤيد هذا ما وقع في حديث سعيد بن أبي راشد أن النبي ﷺ عرض على التنوخي رسول هرقل الإسلام فامتنع ، فقال له : « يا أخا تنوخ إني كتبت إلى ملككم بصحيفة فأمسكوها فلن يزال الناس يجدون منه بأساً ما دام في العيش خير » انتهى .

فمن تأمّل في بحث هرقل مع أبي سفيان بن حرب في تحقيق مبعث رسول الله ﷺ ، وصفته ، وأتباعه ، وأخلاقه ، ودعوته ، يعلم أن طرق البحث للوصول إلى معرفة حقيقة الأديان والوقوف على كنه مُدعيها غير طرق القياسات العقلية حيث لا يسوغ لكل امرىء أن ينبذ كل ما لا ينطبق على عقله قبل الوقوف على حقيقة ذلك الشيء وفحصه بالطرق العلمية التي يتوصل الباحث بها إلى الغاية المقصودة التي يتوقف حلها على تفكير واسع ، لأن هرقل أخذ يستنطق أبا سفيان بالطرق العلمية حتى وصل ببحثه إلى صحة نبوة رسول الله ﷺ حيث لم يكن هرقل بالأرعن الذي يقيس الأمور العظام بعقله قبل التفكير والبحث عن حقيقته ، لأن العقل لا يمكنه إدراك الشيء قبل تصوره بالطرق العلمية والوصول إلى حقيقته من كل أطرافه وإشباعه فحصاً وتمحيصاً . ولذلك نجد أصحاب العقول الراقية لا يتسرعون إلى نقد الشيء ونبذه قبل فحصه وتمحيصه . وأما أصحاب العقول القاصرة الذين يقيسون كل شيء قبل فحصه وتمحيصه بالطرق العلمية على عقولهم الفارغة فهم

الأغبياء الحمقاء الذين لا يعبأ برأيهم ولا يعول على قولهم وهم الذين يعبّر عنهم بسخفاء العقول ، وجهلاء الحقائق ، وأشباه هؤلاء كثيرون في العصر الحاضر فقد أكثروا النقد والتشكيك ، وملأوا الدنيا بجعجعتهم وسفسطتهم وحماقتهم وجنونهم ، فلا يخجلون ولا يستحيون ، وتراهم بوقاحتهم فرحين ، وهم كما قال رسول الله ﷺ في أمثالهم : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » .

كتابه إلى كسرى

وكتب رسول الله ﷺ إلى كسرى ملك فارس ، وكان الملك على فارس في ذلك العصر أبرويز بن أنوشروان ، وذلك في شهر ذي الحجة سنة ست من الهجرة وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهُدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله أدعوك بدعاية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس » .

وبعث به إلى كسرى مع عبد الله بن حذيفة السهمي وأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين ـ الاحسا ـ فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى ، فلما قرأه مزقه ، فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يُمَزّقوا كل ممزق . وقد مزقهم الله شر ممزق على يد خالد بن الوليد ، والمثنى بن حارثة ، وسعد بن أبي وقاص ، من أصحاب رسول الله ﷺ في خلافة أبي بكر ، وعمر ، رضي الله عنهم أجمعين .

ثم كتب كسرى إلى أمير اليمن يقال له باذان أنه بلغني أن رجلاً من

قريش خرج بمكّة يزعم أنه نبي ، فَسِر إليه فاستتبه فان تاب وإلا فابعث إليّ برأسه ، يكتب إليّ بهذا الكتاب الذي بدأ فيه بنفسه . فبعث باذان بكتاب كسرى إلى النبي ﷺ مع قهرمانة وبعث معه رجلاً آخر من الفرس وكتب معهما إلى رسول الله ﷺ يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى . فخرجا وقدما الطائف ، فوجدا رجُلاً من قريش فسألاه عنه فقال : هو بالمدينة . فلما قدما عليه المدينة قالا له : شاهنشاه ـ أي ملك الملوك ـ كسرى بعث إلى الملك باذان أن يبعث إليك مَن يأتي بك ، وقد بعثنا إليك ، فإن أبيت أهلكك وأهلك قومك وخرب بلادك ، فقال لهما رسول الله ﷺ : « ارجعا حتى تأتياني غداً » . وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بأن الله سلّط على كسرى ابنه فقتله في شهر كذا في ليلة كذا ـ وذلك ليلة الثلاثاء لعشر ليال من شهر جمادى الأولى سنة سبع ، كذا في السير ـ . فلما كان الغد ، دعاهما وأخبرهما الخبر ، وكتب رسول الله ﷺ إلى باذان : « إن الله وعدني أن يقتل كسرى يوم كذا في شهر كذا » ، فلما أتى باذان الكتاب توقف وقال : إن كان نبياً فسيكون ما قال . فقتل الله كسرى في اليوم الذي قال رسول الله ﷺ على يد ولد شيرويه . وقدم على باذان كتاب شيرويه فيه : أما بعد فقد قتلت كسرى ، ولم أقتله إلا غضباً لفارس ، فإنه قتل أشرافهم فتفرق الناس ، فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممن قبلك ، وانظر الرجل الذي كان كسرى يكتب إليك فيه فلا تزعجه حتى يأتيك أمري فيه . فبعث باذان بإسلامه وإسلام مَن معه إلى رسول الله ﷺ .

قاتل الله الغرور كم قد ضحى الغرور ملوكاً وأناساً ، فهذا كسرى أخذ به الغرور كل مأخذ حتى أرسل إلى عامله باليمن أن يرسل إلى رسول الله ﷺ مَن يستتبه أو يرسل إليه برأسه وذلك لا لشيء سوى أنه بدأ في الكتاب بنفسه ولذلك استحق قطع رأسه ، فسلّط الله عليه أعزّ الناس لديه وهو ابنه فقتله ،

لا لشيء سوى غروره بنفسه ، تلك سنة الله في أصحاب الغرور « ولن تجد لسنة الله تبديلاً » .

كتابه إلى النجاشي

وكتب رسول الله ﷺ إلى النجاشي أصحمة ، في شهر ذي الحجة سنة ست من الهجرة ، وبعث به عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة . سِلمٌ أنت فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلاّ هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى حملته من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعني وتوقن بالذي جاءني فإني رسول الله وإني أدعوك وجنودك إلى الله عزَّ وجلّ وقد بلغت ونصحت فاقبل نصيحتي والسلام على من اتبع الهدى » .

فلما وصل إليه كتاب رسول الله ﷺ وضعه على عينيه ونزل عن سريره فجلس على الأرض ثم أسلم ودعا بحق من عاج وجعل فيه كتاب رسول الله ﷺ ، وقال : لن تزال الحبشة بخير ما كان هذا الكتاب بين أظهرهم . وكتب إليه ﷺ كتاباً آخر يأمره أن يزوجه أم حبيبة[1] بنت أبي سفيان بن حرب ، كانت زوج عبيد الله بن جحش فأسلما وهاجرا إلى الحبشة وتنصر عبيد الله بن جحش بالحبشة وارتد ففارقها وأرسله مع عمرو بن أمية الضمري مع الكتاب الذي يدعوه فيه إلى الإسلام . وكتب النجاشي جواب الكتاب ،

---

(١) اسمها رملة . وقيل : هند . والأول أصح وبه جزم الزهري وابن إسحاق .

وهذا نصه : بسم الله الرحمن الرحيم . إلى محمد رسول الله ﷺ من النجاشي أصحمة . السلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته الذي لا إله إلّا هو الذي هداني للإسلام . أما بعد فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى عليه الصلاة والسلام فورب السماء والأرض أن عيسى عليه الصلاة والسلام لا يزيد على ما ذكرت وقد عرفنا ما بعث به إلينا وقد قربنا ابن عمك وأصحابه ـ يعني جعفر بن أبي طالب ومن معه مِنَ المسلمين ـ فأشهد أنك رسول الله ﷺ صادقاً مصدقاً . وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يده لله رب العالمين . وأعطى كتابه لعمرو بن أمية الضمري ، فقال له عمرو لما أخذ منه كتاب رسول الله ﷺ : يا أصحمة إن علي القول وعليك الإستماع ، انك كأنك في الرقة علينا منا ، وكأنا في الثقة بك منك لأنا لم نظن بك خيراً قط إلا نلناه ، ولم نحفظك على شر قط إلا أمناه ، وقد أخذنا الحجة عليك من قبل آدم ، والإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد وقاض لا يجور ، وفي ذلك موقع الخير ، وإصابة الفضل ، وإلا فأنت في هذا النبي الأمي ﷺ كاليهود في عيسى بن مريم عليه السلام ، وقد فرق النبي ﷺ رسله إلى الناس فرجاك لما يرجهم له وأمنك على ما خافهم عليه لخير سالف وأجر منتظر . فقال النجاشي : أشهد بالله أنه النبي الذي ينتظره أهل الكتاب ، وان بشارة موسى عليه الصلاة والسلام براكب الحمار كبشارة عيسى عليه الصلاة والسلام براكب الجمل ، وان العيان ليس بأسفل من الخبر ، ولكن أعواني من الحبشة قليل فانظرني حتى أكثر الأعوان وألين القلوب . فورد عمرو بن أمية الضمري إلى النبي ﷺ بكتاب النجاشي ، فقال النبي ﷺ : « اتركوا الحبشة ما تركوكم » .

فهذا هو النجاشي أصحمة الذي هاجر إليه المسلمون وتناظر عنده جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، وعمرو بن العاص ، وأسلم على يد جعفر ، وتوفي سنة تسع من الهجرة ، ونعاه النبي ﷺ وفاته وصلى عليه

بالمدينة[1] ، وتولى على الحبشة بعده ملك آخر ، وكتب إليه النبي ﷺ ولم يؤمن . فهذا أصحمة النجاشي ملك الحبشة ، ذلك الملك العظيم ، والمفكّر الكبير ، الذي يستقصي الأمور بحكمة ، فظهرت له الحقائق جلية لا غُبار عليها فعاش سعيداً ، ومات سعيداً ، ذلك الذي يختار الخير لنفسه ولأمته ، فلو أن أمّته أطاعته بالدخول في الإسلام وتركت العصبية التقليدية العمياء لصاروا كلّهم مسلمين سعداء ، ونالوا سعادة الدنيا والآخرة ، ولكن مَن أعمى الله بصره وبصيرته فلا سبيل في إرشاده .

كتابه إلى المنذر بن ساوى

وكتب رسول الله ﷺ إلى المنذر بن ساوى التميمي الدارمي مع العلاء بن الحضرمي رضي الله عنه ، وبعث به إليه يدعوه إلى الإسلام ، فكتب إليه المنذر : أما بعد ، يا رسول الله اني قد قرأت كتابك على أهل البحرين ـ الاحساء ـ فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ومنهم مَن كرهه ، وبأرضي يهود ومجوس فاحدث إلي في ذلك أمرك . فكتب إليه رسول الله ﷺ :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى . سلام عليك . فاني أحمد الله إليك ، الله الذي لا إله إلاّ هو وأشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله . أما بعد فإني أذكرك الله عزّ وجلّ فانه من نصح فإنما ينصح لنفسه ، وانه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ، ومن نصح لهم فقد نصح لي ، وان رسلي قد أثنوا عليك خيراً ، واني قد شفعتك في قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل

(١) وما في صحيح مسلم من طريق يوسف بن حماد المعنى وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي ﷺ فرواية شاذة تخالفها روايات الجمهور .

الذنوب فاقبل منهم ، وانك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن أقام على يهوديته فعليه الجزية » .

هذا ما رواه القسطلاني في « المواهب » ، وزاد الحافظ ابن حجر في « الإصابة » في ترجمة المنذر أنه كتب رسول الله ﷺ إلى المنذر : « مَن صلّى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلكم المسلم له ذَمة الله ورسوله ، وأن افرض على كل رجُل ليس له أرض أربعة دراهم وعباءة » . قال ابن مندة : كان المنذر عامل النبي ﷺ على هجر . وقد وفد المنذر على النبي ﷺ ، وسيأتي ذكره في الوفود .

كتابه إلى هوذة صاحب اليمامة

وكتب رسول الله ﷺ إلى هوذة بن علي بكتاب وبعث به سليط بن عمرو العامري ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي ، سلام على من اتبع الهُدى واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر فأسلم تسلم وأجعل لك ما تحب يدك » .

فلما قدم عليه سليط أعطاه كتاب رسول الله ﷺ مختوماً ، فأنزله وحيّاه واقترأ عليه الكتاب فرد رداً ، دون رد ، فقال له سليط : يا هوذة انه سودتك أعظم حائلة ـ بالية ـ وأرواح في النار ـ يعني كسرى حيث هو الذي سود هوذة على أهل اليمامة ـ وإنما السيد مَن منع بالإيمان ثم تزود بالتقوى ، وان قوماً سعدوا برأيك فلا تشقين به ، وأنا آمرك بخير مأمور به وأنهاك عن شر منهي عنه ، آمرك بعبادة الله وأنهاك عن عبادة الشيطان ، فإن في عبادة الله الجنة ، وفي عبادة الشيطان النار ، فان قبلت نلت ما رجوت وأمنت ما خفت ، وإن أبيت فبيننا وبينك كشف الغطاء وهو المطلع . فقال هوذة : يا سليط سودني

من لو سودك تشرفت به وقد كان رأي أختبر به الأمور ففقدته فاجعل لي فسحة ليرجع إلي رأيي فأجيبك به إن شاء الله تعالى . وكان عند هوذة عظيم من عظماء النصارى حين جاء كتاب رسول الله ﷺ ، فقال له : لِمَ لا تجيبه ؟ قال : أنا ملك قومي ، ولئن اتبعته لم أملك . فقال : بلى ، والله لئن اتبعته ليملّكنك ، وان الخيرة لك في اتباعه ، وانه النبي العربي الذي بَشّر به عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، وانه لمكتوب عندنا في الإنجيل محمد رسول الله . وكتب هوذة إلى النبي ﷺ : ما أحسن ما تدعو إليه وأجله ، والعرب تهاب مكاني فاجعل إليّ بعض الأمر أتبعك . وأجاز سليط بجائزة وكساه أثواباً من نسيج هجر ، فقدم بذلك على النبي ﷺ فأخبره ، وقرأ النبي ﷺ كتابه وقال : « لو سألني سَيَابَةً من الأرض ما فعلت ، بَادَ وَبَادَ ما في يده » ـ يعني لو سألني قطعة من الأرض ما أعطيته وانه سيهلك ويزول ما في يده ـ وكان عُمْر هوذة يومئذ مائة وخمسين سنة . فيظهر مما تقدّم أن الذي منع هوذة من الإسلام هو الخوف على ملكه ، وقد نصحه ذلك النصراني الذي ما كان يرجى منه النصح . ولكن سداد الرأي مشاع بين عموم الطوائف والأديان ، فلو أن هوذة تجرّد من الوهم الذي أصابه وجعله لا يعتقد في أن النبي ﷺ سيبقيه في ملكه إذا أسلم وتبعه ، لنال خير الدنيا والآخرة ، ولكن الحرص على المُلك هو الذي أبادَ ملكه ، كما سيأتي . وكثير من الناس مَن يحول بينهم وبين الخير شدّة الحرص والوهم . ألهمنا الله الرشد والسداد في جميع الأمور .

كتابه إلى الحارث بن أبي شمر الغساني

وكان الحارث بن أبي شمر الغساني ملكاً على الشام من قبل قيصر الروم ، وكان بغوطة دمشق كثيرة المياه والشجر . فكتب رسول الله ﷺ إليه كتاباً وبعث به شجاع بن وهب الأسدي رضي الله عنه ، وهذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر . سلام على من اتبع الهُدى وآمن بالله وصدَّق فاني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك » ، وختم الكتاب .

قال شجاع رضي الله عنه : فخرجت حتى انتهيت إلى بابه فأقمت يومين أو ثلاثة ، فقلت لحاجبه : إني رسول رسول الله ﷺ . فقال : لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا . وجعل حاجبه يسألني عن رسول الله ﷺ وما يدعو إليه ، فكنت أحدّثه فيرق حتى يغلبه البكاء ويقول : اني قرأت في الإنجيل وأجد صفة هذا النبي بعينه فكنت أراه ـ أظنه ـ يخرج بالشام فأراه قد خرج بأرض القرظ ـ ورق السلم ـ فأنا أؤمن به وأصدقه ، وأنا أخاف من الحارث بن أبي شمر أن يقتلني . فكان هذا الحاجب يكرمني ويحسن ضيافتي ، ويخبرني عن الحارث باليأس منه ويقول : هو يخاف قيصر . فخرج الحارث يوماً وجلس ، وعلى رأسه التاج ، وأذن لي عليه فدخلت ودفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ ، فقرأه ثم رمى به ، ثم قال : مَنْ ينزع مني ملكي أنا سائر إليه ولو كان باليمن جئته علي بالناس . فلم يزل جالساً يعرض عليه حتى الليل ، وأمر بالخيل أن تنعل ـ تحذى ـ ثم قال لي : أخبر صاحبك بما ترى . وكتب إلى قيصر يخبره الخبر . وصادف أن كان عند قيصر دحية الكلبي رضي الله عنه بكتاب رسول الله ﷺ ، فلما قرأ قيصر كتاب الحارث كتب إليه أن لا تسر إليه واله عنه واشتغل بإيلياء ـ بيت المقدس ـ فانه نذر المشي من حمص إلى بيت المقدس ماشياً ، شكراً لله تعالى حيث كشف عنه جنود فارس وأظهر الله تعالى الروم على فارس ، ففرشوا له بُسُطاً ونثروا عليها الرياحين وهو يمشي عليه حتى بلغ بيت المقدس ، فجاء إليه كتاب قيصر ، وكان شجاع مقيماً كل هذه المدة ، قال شجاع : فدعاني ، وقال : متى تريد أن تخرج إلى صاحبك ؟ قلت : غداً . فأمر لي بمائة مثقال ذهباً ، ووصلني حاجبه بنفقة وكسوة وقال لي : ذلك الحاجب : اقرىء على النبي ﷺ مني

السلام وأخبره اني متبع دِينه . قال شجاع : فقدمت على النبي ﷺ فأخبرته بما كان من الحارث قال : « بَادَ ملكه » وأقرأته السلام من الحاجب وأخبرته بما قال ، فقال : رسول الله ﷺ : « صدق » .

غزوة خيبر

خيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على نحو مائة وعشرين ميلاً من المدينة شمالاً ، وسمّيت خيبر باسم رجل من العماليق[1] نزلها قال ياقوت الحموي في « معجم البلدان » : إن لفظة خيبر بلسان اليهود (الحصن) ، ولكون هذه البقعة تشتمل على حصون سميت خيابر . ثم قال : وهي ناحية على ثمانية برد لمن يريد الشام ، انتهى . وسبب الغزوة هذه أن عموم اليهود الذين كانوا بالمدينة ناصبوا النبي ﷺ العداء فيها من بني قينقاع والنضير وغيرهم ، تحولوا إليها وأخذوا في تحريض غطفان وغيرهم من القبائل ، وأغروهم بالمال لحرب رسول الله ﷺ ، وقد تقدّم كثير من أعمالهم الخبيثة التي كانوا يجرونها مع النبي ﷺ حال جوارهم له بالمدينة ، رغم تسامحه لهم في كثير من خبثهم وغدرهم وشراسة أخلاقهم وقبح أعمالهم ، ولم يعتبروا بما حصل عليهم من النقمة والبلاء اللذين صبهما الله تعالى على رؤوسهم بسبب حسدهم ومكرهم ونفاقهم وطغيانهم وإثارتهم الفتن عليه وعلى أصحابه وتحرشهم له وتحريضهم القبائح على استئصاله ومَن آمن معه وغير ذلك ، وكان من الحكمة أن لا يبقى لهم أثر . فلما تَمّ تحالفه ﷺ مع قريش أراد أن ينتهي من اليهود بخيبر حتى لا يبقى له عدو مجاور ويتفرغ لدعوة الأمم إلى الإسلام . فخرج رسول الله ﷺ من المدينة في أواخر المحرم من السنة السابعة للهجرة في ألف وأربعمائة مقاتل ومائتي فارس ، واستخلف على

(١) وهو خيبر بن قانية بن مهلائيل ، وكان عثمان بن عفان مصرها .

المدينة نميلة بن عبد الله الليثي ، وأعطى الراية(١) البيضاء لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأخرج معه من النساء أم سلمة رضي الله عنها . ولما تجهز رسول الله ﷺ شق ذلك على يهود المدينة الذين هم موادعوه وعرفوا أنه إن دخل خيبر أهلكهم كما أهلك بني قينقاع والنضير وقريظة ، فدبروا مكيدة ، وهي أنه كان لهم دَيْن على بعض الصحابة فلم يبق لأحد من يهود المدينة حق على أحد إلا ألزمه بدفعه ، وكان لأبي شحم اليهودي دَيْن على عبد الله بن أبي حدرد أربعة دراهم في شعير أخذه لأهله فلزمه ، فقال له عبد الله : أقلني فاني أرجو أن أقدم عليك فأنفسك حقك إن شاء الله ، قد وَعَد الله تعالى نبيه أن يغنمه خيبر ، فقال أبو الشحم حداً وبغضاً : أتحسب أن قتال خيبر مثل ما تقاتلون من الأعراب ، فيها والتوراة عشرة آلاف مقاتل . وترافعا إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أعطه حقه » . قال عبد الله : والذي بعثك بالحق ما أقدر عليه ، قال : « أعطه حقه » . وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثاً لم يرجع . قال عبد الله : فخرجت فبعت ثوبي بثلاثة دراهم وطلبت بقية حقه فدفعته إليه . ووقع غير ذلك من اليهود حتى من المسالمين منهم .

وكان رسول الله ﷺ استنفر مَن حوله ممن شهد الحُدَيْبِية يغزون معه ، وجاء المتخلفون عن غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة فقال : « لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد فأما الغنيمة فلا » . ثم قال رسول الله ﷺ

(١) وهي المسماة بالعقاب ؛ قال الشهاب في المواهب اللدنية : وهي راية النبي ﷺ ، وهي سوداء ، من برد لعائشة رضي الله عنها اهـ . وروى أحمد والترمذي عن ابن عباس والطبراني عن بريدة وابن عدي عن أبي هريرة قالوا : كانت راية رسول الله ﷺ سوداء ولواؤه أبيض ـ وقال ابن العربي في التفرقة بينهما : اللواء ما يعقد في طرف الرمح ويلوى عليه ، والراية ما يعقد فيه ويترك حتى تصفعه الرياح ، فلعل التفرقة عرفية .

لأصحابه : « مَن كان مضعفاً أو مصعباً فليرجع » ، وأمر بلالاً فنادى بذلك ، فرجع ناس . ثم سار رسول الله ﷺ فسلك على (عصر)[١] فبنى له فيها مسجداً ، ثم على (الصهباء)[٢] ثم أقبل بجيشه حتى نزل بواد يقال له (الرجيع)[٣] ، فنزل بين أهل خيبر وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يُمدوهم ، وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ ، فلما سمعت غطفان بمنزل رسول الله ﷺ خافوا على أموالهم وأهليهم أن يعقبهم عليها أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فرجعوا إلى أموالهم وأهليهم بعد أن خرجوا لنصرة يهود خيبر ، ولما كانوا في أثناء الطريق قال رسول الله ﷺ لعامر بن الأكوع[٤] رضي الله عنه : « انزل يا ابن الأكوع فخذ لنا من هُنَاتك » . فنزل يرتجز :

اللهم[٥] لولا أنت ما اهْتَدَيْنا ولا تصدَّقْنا ولا صَلَّينا
فاغفر فداء لك ما اقتفينا وثبِّت الأقدام إن لاقينا
وأَلْقِيَن سكينة علينا أنا إذا صيح بنا أتينا
وبالصياح عوَّلوا علينا

فقال رسول الله ﷺ : « يرحمك الله » ، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : وجبت والله يا رسول الله لو أمتعتنا به . فلما أشرف رسول الله ﷺ على خيبر قال : « اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، فإنا

(١) بكسر الصاد : جبل بين المدينة ووادي الفرع .
(٢) موضع بينه وبين خيبر روحة (انظر معجم البلدان) .
(٣) هو بقرب خيبر ، غير الرجيع الذي لهذيل بناحية مكة .
(٤) هو عم سلمة بن عمرو بن الأكوع ، وكان حداء ، والإبل تستحث بالحداء .
(٥) في صحيح مسلم بهذا اللفظ . قال الإمام النووي : كذا الرواية . قالوا وصوابه : لاهم ، أو تالله ، أو والله ، كما في الحديث الآخر : فوالله لولا الله ا هـ .

نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها ، اقدموا بسم الله » . ولما شرف الناس على وادٍ رفعوا أصواتهم بالتكبير الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلاّ الله ، فقال رسول الله ﷺ : « أربعوا على أنفسكم انكم لا تدعون أصم ولا غائب ، انكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم » . ثم سار رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى (المنزلة) وهي سوق لخيبر ، فعرس رسول الله ﷺ بها ساعة من الليل ، وكان يهود لا يظنون قبل ذلك أن رسول الله ﷺ يغزوهم لمنعتهم وسلاحهم وعددهم ، فلما أحسوا بخروج رسول الله ﷺ إليهم كانوا يخرجون كل يوم عشرة آلاف مقاتل صفوفاً ، ثم يقولون : محمد يغزونا ، هيهات هيهات . وكان ذلك شأنهم ، فلما نزل رسول الله ﷺ بساحتهم لم يتحركوا تلك الليلة ولم يصح لهم ديك حتى طلعت الشمس فأصبحوا وأفئدتهم تخفق ، وفتحوا حصونهم غادين معهم السلاح والكرازين (المكاتل) ، فلما نظروا رسول الله ﷺ ولوا هاربين إلى حصونهم .

وكان رسول الله ﷺ من عادته إذا غزا قوماً لم يغر عليهم حتى يصبح ، فإن سمع أذاناً أمسك وإن لم يسمع أذاناً أغار ، فلما نزل خيبر ليلاً وبات ، فرّق ﷺ الرايات على أمراء الجيوش ، وكان أول استعماله الرايات في فتح خيبر ، وأما عموم الغزوات التي وقعت قبلها فكان بيد أمراء جيوش الألوية ، وكانت راية النبي ﷺ السوداء من برد عائشة رضي الله عنها ، فأعطى راية لأبي بكر الصدّيق ، وراية لعمر بن الخطاب ، وراية للحباب بن المنذر الأنصاري ، وراية لسعد بن عبادة الأنصاري ، رضي الله عنهم أجمعين ، وكلها بيضاء ، وراية رسول الله ﷺ هي التي كانت سوداء تدعى (العقاب) مربعة مكتوباً فيها : (لا إله إلاّ الله محمد رسول الله) . وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ في غزوة خيبر : (يا منصور أمِتْ ، أمِتْ) . فلما أصبح رسول الله ﷺ لم يسمع أذاناً فركب ، وركب أصحابه ، فاستقبلهم عمال

خيبر قد خرجوا بمساحيهم[1] ومكاتلهم ، فلما رأوا رسول الله ﷺ قالوا : محمد والله محمد والخميس[2] معه ، فأدبروا هُرّاباً فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » ، وتدنى رسول الله ﷺ الأموالَ يأخذها مالاً ، مالاً ، ويفتحها حصناً ، حصناً ، فكان أول حصونهم افتتاحاً حصن (ناعم) وعنده قُتِل محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة الأنصاري ألقيت عليه منه رحاً فقتلته ، ثم (القموص) حصن بني أبي الحقيق ، وأصاب رسول الله ﷺ منهم سبايا ، منهن صفية بنت حيي بن أخطب عدو الله وعدو رسوله وعدو الإسلام والمسلمين بل وعدو اليهود لأن تصلبه جلب لهم البلاء وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبي الحُقَيق ، وبنتي عم لها ، فاصطفى رسول الله ﷺ صفية[3] لنفسه ، وكان دحية الكلبي قد سأل رسول الله ﷺ صفية ، فلما اصطفاها لنفسه[4] أعطاه ابنة عمها[5] ، وفشت السبايا من خيبر في المسلمين ، وأكل المسلمون لحوم

(١) المساحي : جمع مسحاة ؛ وهي المجرفة من الحديد لها عصا للقبض ، تسمى عند المعلمين بالهراوة ، والمكاتل : جمع مكتل ، وهي قفة من الخوص .

(٢) يكون الجيش خمس فرق : المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساقة ، ولهذا يسمى بالخميس .

(٣) وبعث بها مع بلال إلى رحله فمر بها وبابنة عمها على القتلى فصاحت ابنة عمها صياحاً شديداً ، فكره رسول الله ﷺ ما صنع بلال وقال : « ذهبت منك الرحمة تمر بجارية حديثة السن على القتل » ، فقال : يا رسول الله ما ظننت أنك تكره ذلك وأحببت أن ترى مصارع قومها .

(٤) وفي المواهب : وإنما أخذ ﷺ صفية لأنها بنت ملك من ملوكهم وليست ممن توهب لدحية لكثرة من كان من الصحابة مثل دحية وفوقه ، وقلة من كان في السبي مثل صفية في نفاستها ، فلو خصه بها لأمكن تغير خاطر بعضهم ، فكان من المصلحة العامة ارتجاعها منه واختصاصه عليه الصلاة والسلام بها فإن ذلك رضى للجميع وليس ذلك من الرجوع في الهبة في شيء .

(٥) وفي الروض أعطاه ابنتي عمها .

الحمر الأهلية من حُمرها ، فنادى منادي رسول الله ﷺ : لا تأكلوا من لحوم الحمر شيئاً وأهرقوها . ونهى يومئذ عن المتعة وعن إتيان الحبالى من السّبايا ، وعن أكل ذي ناب من السباع ، وعن بيع المغانم حتى تُقْسم ، وعن بيع تِبْر الذهب بالذهب العين ، وتبر الفضة بالوَرِق العين .

ثم أخذ رسول الله ﷺ يتدنى الحصون والأموال ، وفتح بنو سهم من أسلم حصن (الصعب) ابن معاذ ، وكان هذا الحصن ممتلئاً بالطعام والودق ـ شحم السنام ـ ولما افتتح رسول الله ﷺ من حصون خيبر ما افتتح وحاز من الأموال ما حاز ، انتهوا إلى حصينهم (الوطيح) و (السُلاَلم) وكان آخر حصون أهل خيبر افتتاحاً ، فحاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة . ولما نزل رسول الله ﷺ مع أصحابه قريباً من حصن (النطاة) جاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله انك نزلت منزلك هذا ، فإن كان عن أمر أمرت به فلا نتكلم وإن كان الرأي تكلمنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هو الرأي » . فقال : يا رسول الله إن أهل النطاة لي بهم معرفة ليس قوم أبعد مدى سهم منهم ولا أعدل رمية منهم ، وهم مرتفعون علينا وهو أسرع لانحطاط نبلهم ولا نأمن ، من بياتهم يدخلون في حمرة النخل ـ وهو المتجمع بعضه على بعض ـ تحول يا رسول الله . فقال ﷺ : « أشرت بالرأي إذا أمسينا إن شاء الله تحوّلنا » ، ودعى محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه فقال له رسول الله ﷺ : « أنظر لنا منزلاً بعيداً » ، فطاف محمد بن مسلمة ثم عاد وقال : يا رسول الله وجدت لك منزلاً . فقال رسول الله ﷺ : « على بركة الله » ، وتحوّل في المساء وأمر الناس بالتحوّل . وكان رسول الله ﷺ عليه درعان ، وبيضة ، ومغفر ، وهو على فرس يُقال له (الظرب) ، وفي يده قناة وترس ، مدة حرب خيبر ، وفي هذه المدة كان محمد بن مسلمة رضي الله عنه يذهب كل يوم للقتال ويخلف على محل العسكر عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، فإذا أمسى رجع إلى ذلك المحل ،

ومَن جُرِح مِنَ المسلمين يُحْمَل إلى ذلك المحل أيضاً . فلما مضت سبع ليالٍ على ذلك ، وكان ﷺ يناوب بين أصحابه في حراسة الليل ، فلما كانت الليلة السادسة من السبع استعمل ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فطاف عمر بأصحابه حول العسكر وفرقهم ، فأتى برجل من يهود خيبر في جوف الليل فأمر عمر أن يُضرب عنقه فقال : إذهب بي إلى نبيكم حتى أكلمه ، فأمسك عنه وانتهى به إلى رسول الله ﷺ فوجده يصلّي ، فسمع رسول الله ﷺ كلام عمر ، فسلّم وأدخل عليه ، فدخل باليهودي ، فقال رسول الله ﷺ لليهودي : « ما وراءك ؟ » فقال : تؤمنني يا أبا القاسم ؟ فقال : « نعم » . قال : خرجت من حصن (النطاة) من عند قوم يتسللون من الحصن في هذه الليلة . قال « أين يذهبون ؟ » قال : إلى الشق يجعلون فيه ذراريهم ويتهيئون للقتال ، وفي هذا الحصن بيت فيه تحت الأرض منجنيق ، ودبابات ، وأدرع ، وسيوف ، فإذا دخلت الحصن غداً وأنت تدخله . قال رسول الله ﷺ : « إن شاء الله » . قال اليهودي : إن شاء الله أوقفتك عليه فإنه لا يعرفه غيري وأخرى ، قيل : وما هي ؟ قال : يستخرج المنجنيق وينصب على الشق ويدخل الرجل تحت الدبابات فيحفروا الحصن فتفتحه من يومك وكذلك تفعل بحصون الكثيبة ، ثم قال : يا أبا القاسم أحقن دمي . قال : « أنت آمن » . قال : ولي زوجة فهبها لي . قال : « هي لك » . ثم دعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام ، فقال : أنظرني أياماً ؟

أما تفاصيل فتح الحصون وما وقع فيها من براز وقتال فإليك ما ذكره أهل السير :

(١) حصن النطاة ـ كان هو أول حصن فتح ، فصفّ رسول الله ﷺ أصحابه ووعظهم ونهاهم عن القتال حتى يأذن لهم ، فعمد رجل من أسجع فحمل على يهودي وحمل عليه اليهودي فقتله ، فقال الناس : استشهد فلان . فقال رسول الله ﷺ : « أبَعْدَ ما نهيت عن القتال ؟ » قالوا : نعم .

فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي في الناس : لا تحل الجنة لعاص . وروى الطبراني في (الصغير) عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يومئذ : « لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله تعالى العافية فإنكم لا تدرون ما تبتلون به منهم ، فإذا لقيتموهم فقولوا اللهم أنت ربنا وربهم ونواصيهم بيدك وإنما تقتلهم أنت ، والزموا الأرض جلوساً فإذا غشوكم فأيقظوا وكبروا » . ثم أذن رسول الله ﷺ للناس في القتال وحثهم على الصبر ، وقاتل ﷺ على فرسه (الظرب) ، وجعل المسلمون ينظرون نبلهم ثم يردونها عليهم ، فلما أمسى رسول الله ﷺ صار يغدو بالمسلمين على راياتهم حتى فتح الله الحصن عليهم .

(٢) فتح حصن الصعب ـ لم يكن في خيبر حصن أكثر طعاماً ، وودكاً ، وماشية ، ومتاعاً منه ، وكان فيه خمسمائة مقاتل ، وكان الناس قد قاموا أياماً يقاتلون ليس عندهم طعام إلا العلف ، قال معتب الأسلمي رضي الله عنه : أصابتنا معشر أسلم مجاعة حين قدمنا خيبر وأقمنا عشرة أيام على حصن (النطاة) لا نفتح شيئاً فيه طعام ، فاجتمعت أسلم وأرسلوا أسماء بن حارثة فقالوا : ائت رسول الله ﷺ ، فقال له : ان أسلم يقرئك السلام ويقول لك إنّا قد جهدنا من الجوع والضعف ، فقال بريدة بن الحصيب : والله ما رأيت كاليوم قط من بين العرب تصنعون هذا ، فقال هند بن حارثة أخو أسماء : واني لأرجو أن يكون البعث إلى رسول الله ﷺ مفتاح الخير ، فجاءه فقال : يا رسول الله أن أسلم يقرئك السلام ، ويقول انا قد جهدنا من الجوع والضعف فادع الله تعالى . فدعا لهم رسول الله ﷺ ، ثم قال : « والله ما بيدي شيء ما أقوتهم به قد ظلمت حالهم وأنهم ليست لهم قوة » ثم قال : « اللهم فافتح عليهم أعظم حصن فيها أكثره طعاماً وأكثره ودكاً » ودفع اللواء إلى الحباب بن المنذر رضي الله عنه وندب الناس فنهضوا فكان أسلم أول من انتهى إلى حصن (الصعب) وكان عليه قتال شديد ، فبرز رجل من

اليهود يقال له يوشع يدعو إلى البراز ، فبرز له الحباب بن المنذر فاختلفا ضربات فقتله الحباب ، وبرز آخر يقال له الزبان فبرز له عمارة بن عقبة الغفاري فبارزه الغفاري فضربه على هامته وهو يقول : خذها وأنا الغلام الغفاري ، فقال الناس : بطل جهاده . فبلغ رسول الله ﷺ قال : « لا بأس به يؤجر ويحمد » ورمى رسول الله ﷺ بسهم فما أخطأ رجلاً منهم ، وتبسم رسول الله ﷺ وانفرجوا ودخلوا الحصن ، قال جابر رضي الله عنه : انهم وجدوا في حصن الصعب من الطعام ما لَم يكونوا يظنون انه هناك من الشعير ، والتمر ، والسمن ، والزيت ، والعسل ، والودك ، ونادى منادي رسول الله ﷺ يقول : كلوا ، واعلفوا ، ولا تحملوا : يعني لا تخرجوا به إلى بلادكم .

(٣) فتح حصن الزبير ـ سُمّي بذلك لأنه صار في سهم الزبير بن العوام رضي الله عنه ، وذلك لما تحولت اليهود من حصن ناعم وحصن الصعب إلى (قلة) الزبير ، حاصرهم رسول الله ﷺ ، وهذا الحصن في رأسه (قلة) وهي أشبه بالبرج ، وأقام على حصارهم ثلاثة أيام ، فجاءهم يهودي يدعى غزال فقال : يا أبا القاسم تؤمني على أن أدلُك على ما تستريح به من أهل الحصن وتخرج الشق ، فإن أهل الشق قد هلكوا رعباً منك ، فأمنه رسول الله ﷺ على أهله وماله ، فقال اليهودي : انك لو أقمت شهراً ما بالوا ، لهم ذبول تحت الأرض يخرجون بالليل فيشربون منها ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك ، فإن قطعت عنهم شربهم أضجروا لك . فسار رسول الله ﷺ إلى ذبولهم فقطعها . فلما قطع عليهم مشاربهم خرجوا وقاتلوا أشد قتال ، وقُتِل من المسلمين يومئذ نفر ، وأصيب من اليهود في ذلك اليوم عشرة وافتتحه رسول الله ﷺ .

فتح حصن الشق ـ فتحول رسول الله ﷺ إلى حصن الشق وكان به حصون ذات عدد ، وكان أول حصن بدأ به منها حصن أُبَيّ ، فقام رسول

الله ﷺ على قلعة يُقال لها (سوان) يقاتل عليها أهل الحصن قتالاً شديداً ، وخرج من اليهود رجل يقال له غورث فدعا إلى البراز فبرز له الحباب بن المنذر ، فاقتتلا فاختلفا ضربات ، ثم حمل عليه الحباب فقطع يده اليمنى ونصف الذراع فوقع فذفف عليه ، فخرج آخر فصاح : مَن يبارز ؟ فبرز له رجل من المسلمين من آل جحش ، فقتل الجحشي وأقام مكانه يدعو إلى البراز فبرز له أبو دجانة وقد عصب رأسه بعصابة حمراء فوق المغفر مختال في مشيته ، فبارزه أبو دجانة فقتله ثم ذفف عليه ، وأخذ سلبه ودرعه وسيفه ، وجاء به إلى رسول الله ﷺ فنفله رسول الله ﷺ ذلك ، وأحجم اليهود في البراز فكبر المسلمون ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه يقدمهم أبو دجانة فوجدوا فيه أثاثاً ، ومتاعاً ، وطعاماً ، وهرب من كان فيه من المقاتلة وافتتحوا الجدر .

(٥) فتح حصن المنزال ـ كان يأتي إلى هذا الحصن مَن فَرّ مِن حصن (النطاة) وغيره فتحصنوا به وامتنعوا فيه أشد الامتناع ، فزحف رسول الله ﷺ إليهم في أصحابه فقاتلهم فكانوا أشد أهل الشق رمياً للمسلمين بالنبل والحجارة ، ورسول الله ﷺ معهم حتى أصاب النبل فجمعها ثم أخذ لهم كفاً من الحصى ، فحصب بها حصنهم فرجف الحصن بهم ثم ساخ في الأرض حتى جاء المسلمون فأخذوه ، هكذا في السيرة الشامية ـ سبيل الهدى والارشاد[١] ـ وكذلك رواه ابن إسحاق انه رجف بهم وخافوا فاقتحمه المسلمون ، وأخذوا مَنْ فيه أخذاً ذريعاً وغنموا ما فيه ، فوجدوا فيه آنية من نحاس وفخّار كانت اليهود تستعملها للأكل والشرب ، فقال رسول الله ﷺ :

---

(١) من تأليف العلامة المتفنن في العلوم شمس الدين محمد الشامي المتوفى سنة ٩٤٢ هجرية ، وجمع سيرته هذه من ألف كتاب ، وترجم في شذرات الذهب بترجمة طيبة . وقد اطلعت على هذه السيرة في عدة مجلدات خطية ، وبلغني أنها تحت الطبع والله أعلم .

« اغسلوها واطبخوا وكلوا واشربوا » . ثم انهزم مَن سلم مِن يهود تلك الحصون إلى حصون الكثيبة .

(٦) فتح حصن الكثيبة ـ لما فتح الله على رسول الله ﷺ حصون النطاة والصعب والشق ، انهزم مَن سلم منهم إلى حصون (الكثيبة) ، وأعظم حصونها (الغموص) ، وكان حصناً منيعاً . ذكر موسى بن عيينة أن رسول الله ﷺ مكث قريباً من عشرين ليلة لم يخرج وكانت أرضاً وخيمة . قال بريدة رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ تأخذه الشقيقة فيمكث اليوم واليومين لا يخرج ، فلما نزل خيبر أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس ، فأرسل أبا بكر رضي الله عنه فأخذ راية رسول الله ﷺ ثم نهض فقاتل قتالاً شديداً ثم رجع ، ولم يكن فتْحٌ وقد جهد . ثم أرسل عمر رضي الله عنه فأخذ راية رسول الله ﷺ ، فقاتل قتالاً شديداً أشد من القتال الأول ثم رجع ولم يكن فتح . ثم أعطاها في اليوم الثالث لرجل من الأنصار ـ لم أقف على اسمه ، ولعله الحباب بن المنذر ، أو سعد بن عبادة ، حسبما تقدم في تقسيم الرايات ـ فقاتل وجهد ، ولم يكن فتح . فقال رسول الله ﷺ : « لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » . فبات الناس يدوكون ـ في اختلاف ـ ليلتهم أيهم يعطاها . فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال ﷺ : « أين علي بن أبي طالب ؟ » فقيل : هو يا رسول الله يشتكي عينيه ، قال : « فأرسلوا إليه » . فذهب سلمة بن الأكوع وأتى به يقوده إلى رسول الله ﷺ ، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرىء ، حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ، فقال علي رضي الله عنه : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أنفُذ على رسلك[١] حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام

---

(١) بكسر الراء : أي على هينتك .

وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رَجُلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمر النعم » . فألبسه رسول الله ﷺ درعه الحديد وشدّ في وسطه سيفه ذا الفقار وأعطاه الراية ووجّهه إلى الحصن . فخرج عليّ رضي الله عنه يهرول حتى ركّز الراية تحت الحصن ، فاطلع عليه يهودي من رأس الحصن فقال : مَن أنت ؟ قال : علي بن أبي طالب . فقال اليهودي : علوتم وحق ما أُنزل على موسى . ثم خرج إليه أهل الحصن ، وكان أول من خرج منهم إليه الحارث أخو مِرْحب ، وكان معروفاً بالشجاعة ، فانكشف المسلمون وثبت علي رضي الله عنه ، فتصارعا فقتله علي بن أبي طالب وانهزم اليهود إلى الحصن . ثم خرج ياسر فبرز وهو يقول :

قد علمت خيبر اني ياسر شاكي السلاح بطل مقادر
إذا الليوث أقبلت تبادر وأحجمت عن صولة تسامر
إن حسامي فيه صوت حاضر

وكان من أشد اليهود بطشاً وشجاعة ، وكان معه حربة يحوش الناس بها حوشاً ، فبرز له علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له الزبير بن العوام رضي الله عنه : أقسمت عليك ألا خليت بيني وبينه ، ففعل ، فقالت صفية بنت عبد المطلب أمّ الزبير لما خرج إليه الزبير : يا رسول الله يقتل ابني ؟ فقال رسول الله ﷺ : « بل ابنك يقتله إن شاء الله » . فبرز له الزبير رضي الله عنه وهو يقول :

قد علمت خيبر أني زبار قرم لقوم غير نكس فرار
ابن حماة المجد والأخيار ياسر لا يغررك جمع الكفار
فجمعهم مثل الثواب الجاري

ز٦ز٧ فاشتد بينهما القتال ، فقَتَل الزبير بن العوام رضي الله عنه ياسراً فقال رسول الله ﷺ للزبير : « فداك عم وخال . إن لكل نبي حواري ،

وحواريَّ الزبير » كذا في سبيل الهدى والرشاد (السيرة الشامية) ، ونقل ذلك عن محمد بن عمر . وفي رواية أن الذي قتل ياسراً علي بن أبي طالب .

ثم خرج ملك خيبر (مرْحب) من حصنهم قد لبس درعين وبيضة من حجر ومغفر وبيده رمحه وسيفه يتخطر ويرتجز وهو يقول :

قد علمت خيبر اني مِرْحبُ شاكي السلاح بطل مجرَّبُ
إذا الحروب أقبلت تلَهّبُ

فبرز عامر بن الأكوع فقال يرتجز :

قد علمت خيبر اني عامر شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين ، فوقع سيف مرحب في ترس عامر وذهب عامر يسفل له فرجع سيفه على نفسه فقطع أكحله فكانت فيها نفسه ، أي مات . قال سلمة بن الأكوع رضي الله عنه : فإذا نفرٌ من أصحاب النبي ﷺ يقولون : بطل عمل عامر ، قتل نفسه . فأتيت النبي ﷺ وأنا أبكي ، فقلت : يا رسول الله بطل عمل عامر ـ يعني انه قتل نفسه فمات كافراً من الضربة التي قصد بها قتل مِرْحب فعاد عليه سيفه فقطع عِرقه الأكحل وكان سبب موته ـ فقال له رسول الله ﷺ : « مَن قال ذلك ؟ » قال سلمة قلت : ناس من أصحابك . قال : « كذب مَن قال ذلك بل له أجره مرتين » . ثم أقبل مِرْحب وهو يرتجز قوله الأول :

قد علمت خيبر أني مِرْحبْ شاكي السلاح بطل مجربْ
أطعن أحياناً وأحياناً أضرب إذا الليوث أقبلت تحزبْ
إن حماي للحمى لا يقربْ

ثم قال : مَن يُبارز ؟ فخرج إليه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وهو يرتجز ويقول :

أنا الذي سمتني أمي حيدرة كليث غابات كريه المنظرة
أوفيهم بالصاع كيل السندرة[1]

قال سلمة بن الأكوع : فضرب رأس مِرْحب فقتله ـ هذه رواية مُسْلِم[2] في صحيحه ـ وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه عند والدته فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف الهاشمية ، فسمّته لما ولدته (أسداً) باسم أبيها ، وكان أبو طالب غائباً ، فلما حضر غيّر اسمه فسمّاه (علياً) ، ولذلك قال في رجزه : (أنا الذي سمّتني أمي حيدرة) ، وحيدرة من أسماء الأسد ، واشترك محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه في قتل مِرْحب ، وذلك لما طلب مِرْحب المبارزة قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لهذا ؟ » فقال محمد بن مسلمة : أنا له يا رسول الله ، أنا والله ، الوتور الثاير قتل أخي بالأمس . قال ﷺ : « قم إليه . اللهم أعنه عليه » . فلما دنا أحدهما من صاحبه كلما لاذ به انقطع صاحبه ما دونه منها حتى برز كل واحد منهما لصاحبه وصارت بينهما كالرحى ، ثم حمل مِرْحب على محمد بن مسلمة فضربه فاتقاه بالدرقة فوقع سيفه فيها فعضت به فأمسكته وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله . هذا ما رواه أصحاب المغازي ومنهم ابن إسحاق . وفي رواية ابن إسحاق وغيره ، الذي بارز مرحباً وارتجز هو كعب بن مالك ، ولكن

---

(١) أي أقتل الأعداء قتلاً واسعاً . والسندرة : مكيال واسع . وقيل : هي العجلة . أي أقتلهم عاجلاً . وقوله : فضرب رأس مرحب زاد البغوي فقد الحجر والمغفر وفلق رأسه حتى أخذ السيف في الأضراس .

(٢) وهي مخالفة لما قاله ابن إسحاق من أن قاتل مرحب هو محمد بن مسلمة ، ورواه موسى بن عقبة عن الزهري والواقدي عن جابر . قال الشامي : وما في مسلم مقدم على غيره من وجهين ؛ أحدهما : أنه أصح اسناداً . والثاني : أن جابراً لم يشهد خيبر ، كما قاله ابن إسحاق والواقدي وغيرهما ، وقد شهدها مسلمة وبريدة وأبو رافع فهم أعلم ممن لم يشهدها .

العمدة على رواية مسلم عن سلمة بن الأكوع المتقدم ، وقد قسم رسول الله ﷺ سلب مرحب بين علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة رضي الله عنهما ، وهذا أعظم دليل على اشتراك الاثنين(١) في قتل مِرْحب والله أعلم .

كان رجل اسمه (أسلم) أجيراً لرجل من اليهود يرعى غنمه ، وكان عبداً حبشياً ، فجاء إلى رسول الله ﷺ وهو محاصر خيبر وقال : يا رسول الله أعرض علي الإسلام ؟ فعرضه عليه فأسلم ، فلما أسلم قال : يا رسول الله اني كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم فكيف أصنع بها وهي للناس الشاة والشاتان وأكثر من ذلك . فقال له رسول الله ﷺ : « أضرب في وجهها فانها سترجع إلى ربها » . فقام أسلم فأخذ حفنة من حصباء فرمى بها في وجهها وقال : ارجعي إلى صاحبك ، فوالله لا أصحبك . فخرجت مجتمعة كأن سائقاً يسوقها حتى دخلت الحصن ، ثم تقدّم أسلم إلى ذلك الحصن فقاتل مع المسلمين فأصابه سهم فقتله ولم يسجد لله سجدة ، فأتي به إلى رسول الله ﷺ فقال : « لقد أكرم الله هذا العبد وساقه إلى خير قد كان الإسلام في نفسه حقاً » . فهذا هو الذي أسلم ودخل الجنة ولم يعبد الله بغير الجهاد حيث لم يدخل وقت صلاة الظهر أو العصر بين إسلامه وبين قتله : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

روى ابن إسحاق عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال : خرجنا مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين بعثه رسول الله ﷺ برايته ، فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من اليهود فطاح ترسه من يده ، فتناول علي باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه ، فلم يزل في يده وهو

---

(١) وفي جواهر السيرة النبوية يقال : إن محمد بن مسلمة ضرب مرحباً فقطع رجليه وسقط فمر به علي بن أبي طالب رضي الله عنه فضرب عنقه ا هـ . وهذا يأباه حديث ابن مسلمة وأبي رافع .

يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه من يده حين فرغ ، فلقد رأيتني في نفر سبعة[1] أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فلم نقلبه . ثم لما فتح الله تعالى على رسوله ﷺ ذلك الحصن العظيم وجدوا فيه شعيراً ، وتمراً ، وسمناً ، وعسلاً ، وسكراً ، وزيتاً ، وودكاً ، وشيئاً كثيراً ، ونادى منادي رسول الله ﷺ كلوا واعلفوا ولا تحملوا . ووجد آلة حرب دبابات ، ومنجنيقاً ، ودروعاً ، وسيوفاً .

وكانت حصون الكتيبة ثلاثة حصون : القَمُوص ، والوطيح ، وسلالم ، والذي فتح منهم (القموص) وهو أعظمهم .

(٧) حصن الوطيح ـ سمي باسم الوطيح بن مازن ، رجل من ثمود ، وكانت ثمود قريبة من خيبر لأن منازلهم في مدائن صالح .

(٨) حصن السِلَالم ـ وهو حصن بني الحُقَيق ، آخر حصون خيبر ومكث رسول الله ﷺ وأصحابه على حصارهما ـ الوطيح والسلالم ـ بضعة عشر يوماً فلم يخرج أحد منهما ، فهمّ رسول الله ﷺ أن يجعل عليهم المنجنيق ولم يرم به ، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصلح على حقن دماء المقاتلة وترك الذرية لهم ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم وان لا يصحب أحد منهم إلا ثوباً واحداً ، وكان الذي مشى بالصلح بينهم وبين رسول الله ﷺ محيصة بن مسعود أخو بني حارثة فصالحهم على ذلك ، وعلى أنّ ذمة الله ورسوله بريئة منهم أن يكتموه شيئاً من متاعهم يسألهم عنه . فعلم أن حصون خيبر فتحت عنوة إلا الحصنين الأخيرين وهما الوطيح ،

(١) وقيل سبعون ، وقيل أربعون . وقال القسطلاني عن شيخه السخاوي : كلها واهية . ولذا أنكره بعض العلماء . ويلاحظ أن هذه الروايات واردة في باب المناقب والفضائل وقد تساهلوا في مثلها فيها .

والسلالم ، فإنهما فتحا صلحاً[1] فصارا فيئاً لرسول الله ﷺ فوجد في الحصنين المذكورين مائة درع ، وأربعمائة سيف ، وألف رمح ، وخمسمائة قوس عربية بجعابها ، ووجد المسلمون فيما غنموه صحائف متعددة من التوراة ، فجاء يهود تطلبها فأمر رسول الله ﷺ بدفعها إليهم . وغيبوا الجلد الذي كان فيه حلى ابن النضير من عقود الدر والجواهر التي جلوا بها من المدينة وكان لسلام بن أبي الحُقَيق ، حيث كان يقول : إن هذا الجراب المملوء بالدر والجواهر أعددناه لرفع الأرض وخفضها ـ فقد هلك بغروره ولم ينفعه ذلك الجراب ، ولا غيره بل ولا حصونهم المنيعة ، ولا آلاتهم الحربية من منجنيق و (دبابات) ودروع ، ورماح ، وسيوف ، ولا عددهم وكثرتهم أمام جند الله الذي لم يبلغ عشرهم ـ وأتى رسول الله ﷺ بكنانة بن الربيع ، وكان عنده ذلك الجلد المحتوي على كنز بني النضير ، فسأله عنه فجحد أن يكون عنده أو يعرف مكانه ، فأتى رسول الله ﷺ برجل من يهود اسمه ثعلبة فقال لرسول الله ﷺ : إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة . فقال رسول الله ﷺ لكنانة : « أرأيت أن وجدناه عندك أأقتلك ؟ » قال : نعم . فأمر رسول الله ﷺ بالخربة فحفرت فأخرج منها بعض الكنز ، ثم سأله عما بقي فأبى أن يؤديه ، فأمر به رسول الله ﷺ الزبير بن العوام رضي الله عنه فقال : « عذِّبه حتى تستأصل ما عنده » . فعذبه الزبير حتى[2] أشرف على الموت فلم يدلهم على الباقي ، فدفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه ، فضرب عنقه بأخيه محمود ـ الذي ألقى عليه يهود خيبر الرحاة فقتلته ـ . فقوِّم الذي وجدوه من الكنز بعشرة آلاف دينار ، وكان الذي وجدوه أساور ، ودمالج ، وخلاخيل ، وأقرطة ، وخواتم الذهب ،

---

(١) وهذا ما رواه مالك عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي داود .
(٢) فكان يقدح بزند في صدره .

وعقود الجواهر والزمرد ، وعقود أظفار مجزع بالذهب . وهذه القيمة التي قدرت لتلك الجواهر هي بحسب ذلك العصر وما بنسبة هذا العصر فلو وجدت الآن لبلغت قيمتها الملايين .

فلما نزل أهل خيبر على ذلك الصلح سأل رسول الله ﷺ بعضهم أن يعاملهم في الأموال على النصف وقالوا : نحن أعلم بها منكم وأعمر لها . فصالحهم رسول الله ﷺ على النصف : « على إنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم » ، فصالحه أهل فدك على مثل ذلك ، فكانت خيبر فيئاً بين المسلمين ، وكانت فدك خالصة لرسول الله ﷺ لأنهم لم يجلبوا عليها بخيلٍ ولا ركاب . وكان فتح خيبر في شهر صفر سنة سبع من الهجرة .

وضع السم في الشاة

فلما اطمأن رسول الله ﷺ أهدت له زينب ابنة الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية[1] ، وقد سألت أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ ، فقيل لها الذراع ، فأكثرت فيها من السمّ ، ثم سمّت سائر الشاة ، ثم جاءت بها ، فلما وضعته بين يدي رسول الله ﷺ تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها[2] ، وكان معه بِشْر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ فأساغها - ابتلعها - وأما رسول الله ﷺ فلفظها - تفلها - ثم قال : « إن هذا العظم ليخبرني انه مسموم » ، ثم دعا بها فاعترفت ، فقال : « ما حملك على ذلك ؟ » قالت : بلغت من قومي ما لم يخف عليك فقلت إن كان ملكاً استرحت منه وإن كان نبياً فسيخبر . فتجاوز

---

(١) أي مشوية .

(٢) على ما عند ابن إسحاق ، أو ازدردها على ما عند الدمياطي ويجمع بينهما بأنه ابتلع ما انفصل منها بريقه دون اللحمة .

عنها رسول الله ﷺ[1] ومات بِشْر بن البراء الأنصاري رحمه الله ورضي عنه من أكلته التي أكل ، فأمر رسول الله ﷺ بتقسيم الغنائم فقسمت وأمر بالرحيل .

قلنا غير مرة أن اليهود لا يعتبرون بما نزل عليهم من سخط الله ولا بنكبات الدهر التي حلّت بهم ، ومهما يعمل المصلحون مع اليهود من التسامح والعفو فلا يسلمون من غدرهم ، قضى أمر خيبر بما قضى من الصفح عن مقاتلتهم وذراريهم والاذن لمن أراد أن يرتحل إلى الشام ، وأما من أراد البقاء فأعطيت لهم الأراضي بما احتوت عليه من نخيل ومزارع على أن يقوموا بفلاحتها ولهم نصف المال . فما كان من زينب بنت الحارث إلا أنها وضعت السم في شاة وقدمتها لرسول الله ﷺ لتقتله غدراً ، ثم عفى عنها بعذرٍ واهٍ ، وقد مات من ذلك السم رجل من اجلاء الأنصار وهو بشر بن البراء رضي الله عنه ، ثم يقال عن نبي الإسلام انه عامل اليهود بالقسوة والشدة والجبروت ، ان هذا لهو الإفتراء والكذب على الله ورسوله والمؤمنين ، والله ما أظن أن التاريخ سجل لأحد من الخلق من التسامح والعفو ما سجله لرسول الله ﷺ . فذهب ذلك الصحابي الجليل ضحية امرأة يهودية أرادت أن تضحي من هو أجل منه وأعظم ، ولم تُعاقب على الأقل بالتأديب ، بل عفى عنها ذلك النبي الكريم ﷺ الذي لم يعترف له بهذه المكرمة كل حسود فاجر ، لأن الله سبحانه وتعالى لم يجعل للأمم المنحطة والأنفس الدنيئة صفة من صفات الكمال ، لأن الإعتراف بالجميل هو من صفات الأفاضل لا

---

(١) لأنه لا ينتقم لنفسه ، ولما مات بشر قتلها ، وموته بعد حول كما جزم به السهيلي ، وقيل : من ساعته . وكان نفر ثلاثة قد وضعوا أيديهم في الطعام ولم يصيبوا منه شيئاً فاحتجموا بأمر منه ﷺ واحتجم هو أيضاً ﷺ على كاهله وقالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه : يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت منه بخيبر .

من صفات الأنذال . فالغادر ، والماكر ، والشرير ، والحسود ، والدنيء ، لا يرضيه شيء ولا يعترف لأحد بفضل ، مهما عظم قدره وعلا كعبه ، بل إن من طباع الأنذال أنهم لا يعرفون للمكرمات قيمة مهما بذل لهم من المعروف والإحسان لأن طباعهم الخبيثة تمنعهم عن ذلك ، وكل العصور لا تخلو من أمثال هؤلاء .

زواجه على صفية بنت حيي

صفية بنت حُيّي بن أخطب عدو الله ورسوله والمؤمنين ، أصبحت من أمهات المؤمنين وزوجة سيد المرسلين ، هذا أمر عجيب ما أظنه وجد في أمة من الأمم غير الأمة الإسلامية . وذلك أنّ المرأة لا تخطب إلا لجمالها أو مالها ، أو لشرفها ، أو لفضلها ، أو للمجاملة مع عائلتها ، أو لسياسة اقتضت ذلك . فصفية بسبب أن والدها أعدى عدو لرسول الله ﷺ أفقدها كل هذه الصفات بالنسبة لرسول الله ﷺ ، وكانت صفية مع ذلك من ضمن السبايا ، ولكن ما هو الداعي لزواج رسول الله ﷺ بها مع أن عنده غيرها من الزوجات اللاتي هن من أشرف بيوت العرب ، ومهما يكن الحال فما هنا داعي يضطره إلى أن يتزوج ابنة أعدى عدو له ، فظهر أن الذي دعا رسول الله ﷺ إلى الزواج بصفية هو مجرد الشفقة بتلك الأرملة التي أصبحت بسبب شقاء أبيها لا جاه ، ولا مال ، ولا فضل ، ولا مجاملة لها ، فلم ترث من أبيها أشقى الأولين والآخرين غير السبي وذلة الرق ، هذه سنة نبي الإسلام في معاملة ألَدّ أعدائه ، فبرهن للعالم أجمع أن لا عداوة له وخصومة في الحياة الدنيا مع أحد من خلق الله ، وإنما يغضب لله ويرضى لله ، فقد أخذته الشفقة والرأفة بتلك الأرملة اليهودية المسبية التي صارت من ضمن الإماء ، فلم يكتف بعتقها فحسب ، بل رفعها إلى أعلا ما تطمع فيه المرأة فجعلها من أمهات المؤمنين ، فهذه هي الأخلاق المقدّسة التي فاقت طوق

البشر ، وبذلك فليقتد المقتدون ، وليعمل العاملون ، ثم ليخجل المفترون ، ولينسحق الأفاكون ، أولئك الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعدّ لهم عذاباً أليماً ، الذين يفترون الكذب على الإسلام ونبي الإسلام في معاملته مع اليهود ، أولئك الكفرة الفجرة الماكرون المخادعون الذين لا خلاق لهم في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب أليم ، فلو أن أولئك المنافقين قَدّروا هذه المكرمة لرسول الله ﷺ حق قدرها في كونه تزوج بصفية بنت أعدى عدو له وهي أسيرة عنده ، لعلموا أن هذه المكرمة لا نظير لها في العالم أجمع ولخجلوا من مفترياتهم ولكن من أعمى الله تعالى بصيرته فلا هادي له .

كانت صفية قد رأت قبل ذلك أن القمر وقع في حجرها فذكرت ذلك لأمها فلطمت وجهها وقالت : انكِ لتمدّين عنقكِ إلى أن تكوني عند ملك العرب . فلم يزل الأثر في وجه صفية حتى أتى بها رسول الله ﷺ فسألها عنه فأخبرته . ولم يخرج رسول الله ﷺ من خيبر حتى طهُرت صفية من حيضها فحملها وراءه ، فلما صار إلى منزل على ستة أميال من خيبر مال يريد أن يعرس بها فأبت عليه فوجد في نفسه . فلما كان بالصهباء ، وهي على بريد من خيبر ، نزل بها هناك فمشطتها أم سليم وعطّرتها . قالت أم سنان الاسلمية : وكانت من أضوء ما يكون من النساء ، تعني صفية ، فدخل رسول الله ﷺ على أهله ، فلما أصبح سألتها عما قال لها ، فقالت : قال لي ما حملك على الإمتناع عن النزول أولاً ؟ فقلت خشيت عليك من قرب اليهود ، فزادها ذلك عنده . وكانت لم تبلغ سبع عشرة سنة يوم دخلت على رسول الله ﷺ ، وكان صداقها عتقها ، فلما دخل رسول الله ﷺ على صفية في قبة له ، بات أبو أيوب خالد بن سعيد الأنصاري رضي الله عنه متوشحاً سيفه يحرس رسول الله ﷺ ويطيف بالقبة حتى أصبح رسول الله ﷺ ، فلما رأى مكانه قال : « مالك يا أبا أيوب ؟ » قال : يا رسول الله خفت عليك من

هذه المرأة ، وكانت امرأة قد قتلْتَ أباها وزوجها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر فخفتها عليك . فقال رسول الله ﷺ : « اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني » . وهذا اعتراف من رسول الله ﷺ بالجميل لأبي أيوب لأنه دفعه دافع المحبة والنخوة والإيمان أن يبيت طول ليله يحرس رسول الله ﷺ خوفاً عليه من الغدر .

في طريقه إلى المدينة

فسار رسول الله ﷺ إلى المدينة ، فلما كان ببعض الطريق قال من آخر الليل : « من رَجُل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام ؟ » قال بلال : أنا يا رسول الله أحفظ عليك . فنزل رسول الله ﷺ ونزل الناس فناموا ، وقام بلال يصلّي ، فصلّى ما شاء الله عزَّ وجلّ أن يصلّي ، ثم استند إلى بعيره واستقبل الفجر برمقه فغفلت عينه فنام فلم يوقظهم إلا مس الشمس ، وكان رسول الله ﷺ أول أصحابه هبّ فقال : « ماذا صنعت بنا يا بلال ؟ » قال : يا رسول الله أخذ بنفسي الذي أخذ بنفْسك . قال : « صدقت » ثم اقتاد رسول الله ﷺ بعيره غير كثير ثم أناخ فتوضأ وتوضأ الناس ، ثم أمر بلالاً فأقام الصلاة[1] ، فصلّى رسول الله ﷺ بالناس ، فلما سلّم أقبل على الناس فقال : « إذا نسيتم الصلاة فصلّوها إذا ذكرتموها فإن الله تبارك وتعالى يقول : أقم الصلاة لذكري » . هذا ما رواه ابن إسحاق . وأما رواية الصحيحين : « مَن نسي صلاة أو نام عنها فكفارتها أن يصلّيها إذا ذكرها » . وفي صحيح مسلم : « مَن نسي صلاة فليصليها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك ـ قال قتادة ـ وأقم الصلاة لذكري » ، وفي رواية له « إذا رقد أحدكم عن الصلاة أو

---

(١) قال عياض : أكثر رواة الموطأ في هذا الحديث على (فأقام) وبعضهم قال : فأذن أو أقام على الشك . ولأحمد من حديث ذي مخبر : فأمر بلالاً فأذن ثم قام ﷺ فصلى الركعتين قبل الصبح وهو غير عجل ثم أمره فأقام الصلاة .

غفل عنها فليصلها إذا ذكرها فإن الله عزَّ وجلّ يقول : أقم الصلاة لذكري »[1] .

أسماء من استشهد بخيبر

فاستشهد بخيبر من أصحاب رسول الله ﷺ :

(١) ربيعة بن أكثم بن صخيرة بن عمرو الأسدي ، (٢) ثقيف بن عمرو العدواني ، (٣) رفاعة بن مسروح الأسدي ، (٤) عبد الله بن الهبيب بن سحيم الليثي ، (٥) بِشْر بن البراء بن معرور الأنصاري ، (٦) فضيل بن النعمان الأنصاري ،(٧) مسعود بن سعد بن قيس الأنصاري ، (٨) محمود بن مسلمة الأنصاري ، (٩) أبو ضياح بن ثابت بن النعمان الأنصاري ، (١٠) الحارث بن حاطب الأنصاري ، (١١) عروة بن مرة بن سراقة الأنصاري ، (١٢) أوس بن الفائد الأنصاري ، (١٣) أنيف بن حبيب الأنصاري ، (١٤) ثابت بن اثالة الأنصاري ، (١٥) طلحة غير منسوب من بني عمر بن عوف الأوسي ، (١٦) عمارة بن عقبة الغفار ، (١٧) عامر بن الأكوع الأسلمي ، (١٨) الأسود الراعي واسمه أسلم[2] تقدمت ترجمته وأنه أسلم ومات شهيداً ولم يعبد الله بغير الجهاد .

فهؤلاء الذين استشهدوا بخيبر من المهاجرين والأنصار ثمانية عشر رَجُلاً من أبطال الإسلام قد كتب الله لهم الشهادة في فتح خيبر ، ولم يكن لليهود موقف قتال وقفوه مع المسلمين غير موقف خيبر فهو الذي قاتلوا فيه

(١) ومما يجب التنبيه له أن الفائتة لغير عذر يجب قضاؤها كذلك ، لأنه إذا وجب القضاء على ذي العذر فغيره أولى بالوجوب ، واحذر من القول الشاذ القائل بعدم قضائها فإنه خطأ وجهالة . أعاذنا الله منه ووفقنا لمرضاته .

(٢) سماه ابن سعد بيسار العبد الأسود ، وسماه أبو نعيم كذلك يساراً .

وبارزوا الفرسان حيث قد مضت غزوة بني قينقاع ، والنضير ، وقريظة ، فسلموا بغير قتال ولا برز منهم أحد في ميدان الوغى وطلب البراز في غير خيبر . وكذلك لم أقف على أسماء[1] من قتل من اليهود بخيبر غير الذين برزوا في الميدان وهم لا يتجاوزون عدد الأصابع ، وقد عرفت أسماؤهم في القصة ، ولهذا السبب لم أذكر أسماء مَن قتل مِن اليهود بخيبر كما قد ذكرت أسماء من قتل من المشركين يوم بدر ، وأحد ، والخندق ، وغيرها ممن قتلوا في الغزوات والسريات والله أعلم .

حديث الحجاج بن علاط

هو الحجاج بن علاط بن خالد السلمي ثم الفهري . كان سبب إسلامه أنه خرج في ركب من قومه إلى مكة فلما جن عليه الليل استوحش فقام يحرس أصحابه ويقول :

أعيذ نفسي وأعيذ صحبي حتى أعود سالماً وركبي

فسمع قائلاً يقول : (يا معشر الجن والإنس أن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان) . فلما قدم مكة أخبر بذلك قريشاً فقالوا له : يا أبا كلاب ، إن هذا فيما زعم محمد أنه أنزل عليه . قال فسأل عن النبي ﷺ فقيل له هو بالمدينة ، فقدم على النبي ﷺ وهو بخيبر فأسلم ، وشهد مع رسول الله ﷺ خيبر . ولما فتحت خيبر كلم رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أن لي بمكّة مالاً عند صاحبتي ـ امرأته أم شيبة بنت أبي طلحة وكانت عنده ، له منها ولد اسمه معرض بن الحجاج ـ ومالاً متفرقاً في تجارة أهل مكة فأذن لي يا رسول الله ؟ فأذن له .

(١) وعددهم ثلاثة وتسعون رجلاً .

قال : انه لا بُد لي يا رسول الله من أن أقول ؟ قال : « قل » . قال الحجاج رضي الله عنه : فخرجت حتى إذا قدمت مكّة وجدت بثنية البيضاء رجالاً من قريش يستمعون الأخبار ويسألون عن أمر رسول الله ﷺ وقد بلغهم أنه قد سار إلى خيبر وقد عرفوا أنها قرية الحجاز ريفاً ومنعة ورجالاً فهم يتجسسون الأخبار ويسألون الركبان ، فلما رأوني قالوا : الحجاج بن علاط (ولم يكونوا علموا بإسلامي) عنده ، والله الخبر ، أخبرنا يا أبا محمد فإنه قد بلغنا أن القطاع - يعني النبي ﷺ - قد سار إلى خيبر وهي بلد يهود وريف الحجاز ، قلت : قد بلغني ذلك وعندي من الخبر ما يسركم . قال ، فالتبطوا بجنبي ناقتي يقولون : إيه يا حجاج ؟ قلت : هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط ، وقُتِل أصحابه قَتْلاً لم تسمعوا بمثله قط ، وأُسِر محمد أَسْراً ، وقالوا لا نقتله حتى نبعث به إلى أهل مكّة فيقتلوه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم ، فقاموا وصاحوا بمكة وقالوا قد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم قلت : أعينوني على جمع مالي بمكة وعلى غرمائي فإني أريد أن أقدم خيبر فأصيب من فَلّ محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى هنالك قال ابن هشام ويقال من فيء محمد . فقاموا فجَمعوا لي مالي كأحث جمع سمعت به ، وجئت صاحبتي فقلت : مالي ، وقد كان لي عندها مال موضوع ، لعليّ ألحق بخيبر فأصيب من فرص البيع قبل أن يسبقني التجار . فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وما جاءه عني أقبل حتى وقف إلى جنبي وأنا في خيمة من خيام التجار ، فقال : يا حجاج ما هذا الخبر الذي جئت به ؟ فقلت : وهل عندك حفظ لما وضعت عندك ؟ قال : نعم . قلت : فاستأخر عني حتى ألقاك على خلاء فإني في جمع مالي كما ترى . فانصرف عني حتى أفرغ . قال : حتى إذا فرغت من جمع كل شيء لي بمكّة وأجمعت الخروج ، لقيت العباس فقلت : احفظ على حديثي يا أبا الفضل فإني أخشى الطلب ثلاثاً ثم قل ما

شئت . قال : أفعل . فقلت : فإني والله لقد تركت ابن أخيك عروساً على بنت ملكهم - يعني صفية بنت حيي - ولقد افتتح خيبر وانتقل ما فيها وصارت له ولأصحابه . فقال : ما تقول يا حجاج ؟ قلت : أي والله فاكتم عني ، ولقد أسلمت ، وما جئت إلا لآخذ مالي فرقاً من أن أُغلب عليه ، فإذا مضت ثلاث فاظهر أمرك فهو والله على ما تُحب . قال ، حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العبّاس حلة له وتخلق وأخذ عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها ، فلما رأوه قالوا : يا أبا الفضل هذا والله التجلد لحر المصيبة . قال : كلا ، والله الذي حلفتم به لقد افتتح محمد خيبر وترك عروساً على بنت ملكهم وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه . قالوا : مَنْ جاءك بهذا الخبر ؟ قال : الذي جاءكم بما جاءكم به ، ولقد دخل عليكم مسلماً فأخذ ماله فانطلق ليلحق بمحمد وأصحابه فيكون معه . قالوا : يا عباد الله أنفلت عدو الله ، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن . قال ، ولم ينشبوا أن جاءهم الخبر بذلك .

هذه عادة الله جرت في خلقه أن العدو يسرُّه خذلان من يبغضه ويسيئه فوز من يكرهه ، فانظر إلى حال قريش حين سمعت من الحجاج ما سمعت بنكبة رسول الله ﷺ التي اختلقها الحجاج لتخليص ماله ، وما أوجده ذلك الخبر من السرور في نفوسهم ، وكيف تبدّل سرورهم كدراً وكمداً حين زيَّف لهم العباس رضي الله عنه ذلك الخبر المختلق ، وليس هناك سبب يجعل مشركي قريش يُسَرّون بنكبة رسول الله ﷺ غير الشرْك والحسد ، فهذا المرض العضال الذي أوجب لهم ذلك السرور الموقت والكمد الدائم ، فلو كان عندهم فكر ثاقب ونخوة عربية صميمية لما سُرّوا بالنكبة المختلقة بفوز اليهود على أبناء عمهم وقومهم وعشيرتهم ، ومهما يكن بينهم وبين رسول الله ﷺ من البغض والحقد والحسد الذي سببه الشرك ، فلا ينبغي أن يكونوا مسرورين بفوز اليهود المختلق على بني عمهم وقومهم وعشيرتهم ، ولكن

الغباوة ، والحماقة ، والجنون ، جعلتهم لا يفهمون ولا يدركون ، وهم عن الواجب غافلون ، فإذا كانوا مسلوبي الإيمان فلا بُدّ أن يكون فيهم شيء من النخوة العربية والحمية القومية تجعلهم يغارون على عروبتهم ، وترى كثيراً من الناس موجودين في العصر الحاضر على ذلك المبدأ ، يسرّهم فشل إخوانهم في الدين الإسلامي ، أو في الجنسية ، لأجل تنافس شخصي أو تخالف بسيط في العقيدة أو المذهب . مع أن الواجب يقضي عليهم أن يكونوا في صف واحد ضد العدو الأجنبي في الجنس والدين ، ويتناسوا كل شيء وقع فيما بينهم . اللهم ألهمنا الرشد وأصلح فساد قلوبنا .

تقسيم أموال خيبر

فقسم رسول الله ﷺ أموال خيبر ، فجعل الشق والنطاة ، في سهمين للمسلمين ، وجعل الكَتيبة خُمْس الله وسهم النبي ﷺ وسهم ذوي القربى واليتامى والمساكين ، وطُعْم أزواج النبي ﷺ ، وطُعْم رجال مشوا بين رسول الله ﷺ وبين أهل فدك بالصلح ، منهم مُحيّصة بن مسعود فأعطاه رسول الله ﷺ ثلاثين وسقاً من شعير ، وثلاثين وسقاً من تمر ، وقُسمت خيبر على أهل الحُدَيْبِية مَنْ شَهدَ خيبر ومَنْ غاب عنها ، ولم يغب عنها إلا جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري ، فقسم له رسول الله ﷺ كسهم مَن حضرها . وكان واديا ، وادي السُرَيْر ، ووادي خاص هما اللذان قسمت عليهما خيبر ، وكانت نطاق والشق ثمانية عشر سهماً ، نطاة من ذلك خمسة أسهم والشق ثلاثة عشر سهماً ، وقسمت الشق ونطاة على ألف سهم وثمانمائة سهم ، وكانت عدة الذين قسمت عليهم خيبر من أصحاب رسول الله ﷺ ألف وثمانمائة سهم برجالهم وخيلهم ، الرجال ألف وأربعمائة والخيل مائتا فرس ، فلكل فرس سهمان ، فصار للخيل أربعمائة سهم ، فجعل كل مائة رجل سهماً فكانت ثمانية عشر سهماً ، وجعل على كل مائة

سهم رأساً : (١) فكان عليّ بن أبي طالب رأساً ، (٢) الزبير بن العوام (٣) طلحة بن عبيد الله ، (٤) عمر بن الخطاب ، (٥) عبد الرحمن بن عوف ، (٦) عاصم بن عدي أخو بني العجلان ، (٧) أُسَيْد بن حضَير ، (٨) سهم ابن الحارث بن الخزرج ، (٩) سهم ناعم ، (١٠) سهم بني بياضة ، (١١) سهم بني عبيدة ، (١٢) سهم بني حرام من بني سلمة ، (١٣) سهم عبيد بن أوس أحد بني حارثة السهام ، (١٤) سهم ساعدة ، (١٥) سهم غفار ، وأسلم ، (١٦) سهم النجار ، (١٧) سهم حارثة ، (١٨) سهم أوس .

فكان أول سهم خرج من خيبر بنطاة سهم الزبير بن العوام وهو (الخوع) وتابعه (السُرَيْر) ثم كان الثاني سهم (بياضة) ثم كان الثالث سهم (أُسَيْد) ثم كان الرابع سهم (بني الحارث بن الخزرج) ثم كان الخامس سهم (ناعم) لبني عوف بن الخزرج ومزينة وشركائهم وفيه قتل محمود[1] بن مسلمة . فهذه أسهم حصن نطاة الخمسة ، ثم هبطوا إلى حصن الشق ، فكان أول سهم خرج منه سهم عاصم بن عدي أخي بن العجلان وكان معه سهم رسول الله ﷺ ، ثم الثاني سهم عبد الرحمن بن عوف ، ثم الثالث سهم ساعدة ، ثم الرابع سهم النجار ، ثم الخامس سهم علي بن أبي طالب ، ثم السادس سهم طلحة بن عبيد الله ، ثم السابع سهم غفار ، وأسلم ، ثم الثامن سهم عمر بن الخطّاب ، ثم التاسع سهم بني عبيد وبني حرام ، ثم العاشر سهم حارثة ، ثم الحادي عشر سهم عبيد السهام ، ثم الثاني عشر سهم أوس ، ثم الثالث عشر سهم اللفيف ، جمعت إليه جهينة ومَن حَضَر خيبر مِن سائر العرب ، وكان حذوه سهم رسول الله ﷺ

---

(١) فقد كان تحت حصن ناعم يتبع ظله وقد قاتل يومئذ وكان يوماً شديد الحر فدلى عليه مرحب اليهودي رحى فهشمت البيضة وسقطت جلدة جبينه على وجهه وسقطت عينه ، فأتى به رسول الله ﷺ فرد الجلدة كما كانت وعصبها بثوب . قاله الواقدي وذكره في الجواهر .

الذي أصابه في سهم عاصم بن عدي .

ثم قسم رسول الله ﷺ الكتَيْبة وهي وادٍ خاص بين قرابته وبين نسائه وبين رجال من المسلمين ونساء أعطاهم منها ، فقسم رسول الله ﷺ لفاطمة ابنته رضي الله عنها مائتي وسق ، ولأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه مائتي وسق ، ولعقيل بن أبي طالب رضي الله عنه مائتي وسق وأربعين وسقاً ، ولعلي بن أبي طالب رضي الله عنه مائتي وسق ، ولأسامة بن زيد رضي الله عنه مائتي وسق ، وخمسين وسقاً من نوى ، ولعائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها مائتي وسق ، ولجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه خمسين وسقاً ، ولربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ مائتي وسق ، وللصلت بن مخرمة وابنه مائتي وسق للصلت منها أربعين وسقاً ، ولأبي نبقة خمسين وسقاً ، ولركانة بن عبد يزيد خمسين وسقاً ، ولقيس بن مخرمة ثلاثين وسقاً ، ولابن أوس بن مخرمة ثلاثين وسقاً ، ولمسطح بن أثاثة وابن الياس خمسين وسقاً ، ولأم رميثة أربعين وسقاً ، ولنعيم بن هند ثلاثين وسقاً ، ولبحينة بنت الحارث ثلاثين وسقاً ، ولعجير بن عبد يزيد ثلاثين وسقاً ، ولأم الحَكَم بنت الزبير بن عبد المطلب ثلاثين وسقاً ، ولجمانة بنت أبي طالب ثلاثين وسقاً ، ولضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب أربعين وسقاً ، ولصفية بنت عبد المطلب أم الزبير بن العوام أربعين وسقاً .

فكل هؤلاء من بني هاشم وبني المطلب وبعضهم كان بمكة ولم يسلم إلا بعد فتح مكة ، فجعل رسول الله ﷺ مما خصه لهؤلاء الأقربين يستلمونه سنوياً من حصاد خيبر . ولابن الأرقم خمسين وسقاً ، ولحمنة بنت جحش ثلاثين وسقاً ، ولعبد الرحمن بن أبي بكر الصدِّيق أربعين وسقاً ، ولابن أبي خنيس ثلاثين وسقاً ، ولأم طالب أربعين وسقاً ، ولأبي نضرة عشرين وسقاً ، ولنميلة الكلبي خمسين وسقاً ، ولعبد الله بن وهب وابنته تسعين وسقاً ، لابنته

منها أربعين وسقاً ، ولأم حبيب بنت جحش ثلاثين وسقاً ، ولمَلْكُو بن عبدة الأنصاري ثلاثين وسقاً ، ولنسائه ﷺ سبعمائة وسق من قمح وشعير وتمر ونوى وغير ذلك ، قسمه ﷺ عليهم على قدر حاجتهم وكانت الحاجة في بني عبد المطلب أكثر ولهذا أعطاهم أكثر .

هذا ما ذكره ابن هشام وابن إسحاق ، وزدت عليه إيضاحاً من « الإصابة في تمييز الصحابة » للحافظ ابن حجر العسقلاني . وأما الوسق فهو ستون صاعاً عن ثلاثمائة وعشرين رطلاً حجازياً ، أو أربعمائة وثمانين رطلاً عراقياً . وأصل الوسق هو حِمْل البعير ، هذا ما ذكره ابن الأثير في « النهاية » ، والظاهر أن الوسق يعادل مائة وثمانية وعشرين أقة ، أو مائة وأربعة وستين كيلو والله أعلم .

وروى ابن هشام عن ابن إسحاق عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب الزهري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، قال : لم يوصِ رسول الله ﷺ عند موته إلا بست ، أوصى للرهاويين بجادِّ مائة وسق من خيبر ، وللداريين بجادّ مائة وسق من خيبر ، وللسبائيين بجادّ مائة وسق من خيبر ، وللأشعريين بجادّ مائة وسق من خيبر . وأوصى بتنفيذ بعث أسامة بن زيد بن حارثة وأن لا يترك بجزيرة العرب دِينان . وقوله (بجاد) هو حين جداد النخل وحصاد الزرع يعطى لمن أوصى له به .

أمر فدك

بعث رسول الله ﷺ مُحيِّصة بن مسعود إلى أهل فدك ، وهي على ستة أميال من المدينة ، يَدْعوهم إلى الإسلام . قال مُحيِّصة : فجئتهم فجعلوا يتربصون ويقولون إن بخيبر عشرة آلاف مقاتِل فيهم عامر ، وياسِر ، والحارث ، وسيد اليهود مِرحب ، ما ترى أن محمداً يقرب إليه . فمكثت

عندهم يومين ثم أردت الرجوع فقالوا : نحن نرسل معك رجالاً منا يأخذون لنا الصلح . كل ذلك وهم يظنون انه ﷺ لا يقدر على فتح خيبر ، حتى جاءهم أناس من حصن ناعم وأخبروهم أن رسول الله ﷺ فتحه . فلما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك حين بلغهم ما أوقع الله تعالى بأهل خيبر ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً من رؤسائهم يقال له نون بن يوشع يصالحونه[1] على النصف من فدك ، فقدم عليه رسولهم بخيبر أو بالطريق فقبل ذلك منهم ، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب فلم يقسمها ووضعها حيث أمره الله تعالى .

الداريون

وأما الداريّون الذين أوصى لهم رسول الله ﷺ من خيبر فهم بنو الدار بن هانىء بن حبيب بن نُمَارة بن لخم الذين ساروا إلى رسول الله ﷺ من الشام وهم : (١) تميم بن أوس ، (٢) نعيم بن أوس أخوه ، (٣) يزيد بن قيس ، (٤) عرفة بن مالك ، سماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن ، (٥) أخوه مروان بن مالك ، (٦) فاكهة بن نعمان ، (٧) جبلة بن مالك ، (٨) أبو هند بن بَرّ ، (٩) أخوه الطيب بن بَرّ ، فسماه رسول الله ﷺ عبد الله . فهؤلاء الذين ذكر اسماءهم ابن هشام عن ابن إسحاق .

غزوة وادي القرى [2]

وذلك عند منصرف رسول الله ﷺ من خيبر أتى وادي القرى ، وكان

---

(١) وقيل : صالحوه على حقن دمائهم والجلاء ويخلوا بينه وبين الأموال ففعل . قال الواقدي : والأول أثبت القولين .

(٢) موضع بقرب المدينة من أعمالها تسمى بالعلا .

أهله يهوداً ، فدعاهم إلى الإسلام فامتنعوا من ذلك وقاتلوا ، وبرز رَجُل منهم وطلب البراز فخرج إليه الزبير بن العوام رضي الله عنه فقتله ، فبرز منهم رجل فطلب البراز فخرج إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقتله ، ثم برز رجل ثالث وطلب البراز فخرج إليه أبو دجانة رضي الله عنه فقتله ، ثم اشتبك القتال معهم على الماء فقتل المسلمون منهم أحد عشر رجلاً ، ففتحها رسول الله ﷺ عنوة ، وغَنّمه الله تعالى أموال أهلها ، وأصاب المسلمون منهم أثاثاً ومتاعاً ، وقد خَمسّه رسول الله ﷺ وترك الأرض والنخل في أيدي مَنْ بقي منْ أهلها ، وعاملهم على نحو ما عامل عليه أهل خيبر[1] ،ومَنّ رسول الله ﷺ على اليهود ولم يستأصلهم قتلاً ، ولم يقتل منهم سوى الأحد عشر رجلاً في حومة الوغى ، وترك في أيديهم أراضي وادي القرى والبساتين والحدائق يعملون فيها ويأخذون الأجر ، ومن ذلك يتضح أن رسول الله ﷺ لم يعامل اليهود بالقسوة ، كما يقول أعداء الإسلام ، بل كانت القضية بالعكس ، وسياق السيرة شاهد على ذلك ، ولكن اليهود لا يرضيهم شيء ، ولا يتركون الغدر متى سنحت لهم الفرصة ، لأنهم جُبِلوا على المَكْرِ والغدر وصار طبعاً فيهم ، سابقاً ولاحقاً وفي كل عصر ومصر .

أهل تيماء[2]

ولما بلغ أهل تيماء ما فعل رسول الله ﷺ بأهل خيبر وفدك ووادي القرى صالحوه على الجزية ما قاموا ببلادهم وأرضهم في أيديهم[3] . ولم

(١) قال البلاذري : وولاها ﷺ عمرو بن سعيد بن العاص وقبض وهو عليها .
(٢) بلدة بين الشام والمدينة على نحو سبع مراحل أو ثمان من المدينة .
(٣) وولاها ﷺ يزيد بن أبي سفيان وكان إسلامه يوم فتحها .

يُقْتَل من المسلمين بوادي القرى غير عبد لرسول الله ﷺ وهو الأسود[1] الذي كان يرحل لرسول الله ﷺ بينما هو يحط رحل رسول الله ﷺ جاءه سهم فقتله ، فقال الناس : هنيئاً له الجنة . فقال رسول الله ﷺ : « كَلّا والذي نفسي بيده أن الشملة[2] التي أخذها من خيبر من الغنائم قبل أن تقسم تشتعل عليه ناراً » .

إذا نظر الإنسان إلى هذا الذنب الذي اقترفه ذلك العبد وهو أخذه شملة من غنائم خيبر العظيمة قبل تقسيمها فيرى أنها بسيطة جداً لا قيمة لها بالنسبة لكثرة الغنائم التي اغتنموها ، وبالنسبة إلى فضل الأسود لكونه من المجاهدين في سبيل الله ومن القائمين بخدمة رسول الله ﷺ ومن أصحاب رسول الله ﷺ ، ولكن الأمر غير ذلك ، فالأمر أمر خيانة وان الخيانة هي من أكبر الكبائر ، فلو فكّر الإنسان في أمر الخيانة وتبصرها وعرف أنه لا يغني مرتكبها أي فضل قام به من فضائل الأعمال يعلم علم اليقين أنها من الذنوب العظام التي لم ينفع فيها الأسود خدمته لرسول الله ﷺ وشهادته في سبيل الله وصحبته لرسول الله ﷺ ، فالجرم ليس هو جرم الشملة ، بل هو جرم الخيانة ، فلو طلب الأسود من رسول الله ﷺ ما هو أعظم من الشملة لجاد به عليه ولكن القضاء والقدر بيد الله تعالى .

---

(١) يقال له مدعم أهداه له ﷺ رفاعة بن زيد أحد بني الضبيب كما في مسلم والضبيب بالتصغير .

(٢) الشملة : كساء يلتف فيه ، وقوله : يشتمل الخ . . . قال الحافظ : يحتمل أن ذلك حقيقة أن تصير الشملة نفسها ناراً فيعذب بها ، ويحتمل أن المراد أنها سبب لعذاب النار ولما سمعوا بهذا الوعيد جاء رجل بشراك أو شراكين إلى رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « شراك من نار أو شراكان من نار » .

التعامل مع اليهود على أرض خيبر

كان التعامل مع اليهود على زراعة أرض خيبر بالنصف ، وكان رسول الله ﷺ يرسل كل سنة من يخرص حاصل الزرع ، فكان أول من أرسله عبد الله بن رواحة الأنصاري رضي الله عنه فكان إذا خرص بين المسلمين واليهود خيّر اليهود بين أن يدفعوا للمسلمين حسبما خرص أو يستلم التمر وهو يدفع لليهود حسبما خرص ، فكانت هذه قاعدة لكل من يبعثه رسول الله ﷺ إليهم للخرص . فلما خرص عبد الله بن رواحة لليهود قالوا : تعديت علينا . قال لهم : إن شئتم فلكم وان شئتم فلنا . فقالت اليهود : بهذا قامت السموات والأرض . ثم في السنة التي بعدها بعث رسول الله ﷺ جبار بن صخر بن أمية بن خنساء أخا بني سلمة ومشى على تلك القاعدة ، فأقامت اليهود على ذلك لا يرى بهم المسلمون بأساً في معاملتهم حتى عدوا في عهد رسول الله ﷺ على عبد الله بن سهل أخي بني حارثة رضي الله عنه فقتلوه فاتهمهم رسول الله ﷺ والمسلمون عليه ، وذلك انه خرج عبد الله بن سهل إليها في أصحاب له يمتارون منها تمراً فوجده أصحابه في عين قد كسرت عنقه ثم طرح فيها فأخذوه فغيبوه ، ثم قدموا على رسول الله ﷺ فذكروا له شأنه ، فتقدم إليه أخوه عبد الرحمن بن سهل ومعه ابنا عمه حُوَيِّصة ومُحَيِّصة أبنا مسعود وكان عبد الرحمن من أحدثهم سناً وكان صاحب الدم وكان ذا قدم في القوم ، فلما تكلم قبل ابني عمه قال رسول الله ﷺ : « الكُبْر الكُبْر » فسكت فتكلم حُوَيّصة ومُحَيّصة ، ثم تكلم هو بعد ، فذكروا لرسول الله ﷺ قتل صاحبهم ، فقال رسول الله ﷺ : « أتُسَمُّون قاتلكم ثم تحلفون عليه خمسين يميناً فنسْلِمه إليكم ؟ » قالوا : يا رسول الله ما كنا لنحلف على ما لا نعلم . فقال ﷺ : « أفيحلفون بالله خمسين يميناً ما قتلوه ولا يعلمون له قاتلاً ثم يبرؤن من

دمه ؟ » قالوا : يا رسول الله ما كنا لنقبل أيمان يهود ما فيهم من الكفر أعظم من أن يحلفوا على إثم ، قال : فوداه رسول الله ﷺ من عنده مائة ناقة ، وكتب إلى يهود خيبر انه قد وجِدَ قتيل بين أبياتكم فدوه ، فكتبوا إليه يحلفون بالله ما قتلوه ولا يعلمون له قاتلاً ، فتركهم .

فلما توفي رسول الله ﷺ أقرها أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه بعد رسول الله ﷺ بأيديهم على المعاملة التي عاملهم عليها رسول الله ﷺ حتى توفي أبو بكر ، ثم أقرها عمر بن الخطاب رضي الله عنه صدراً من خلافته ، ثم بلغ عمر أن رسول الله ﷺ قال في وجعه الذي قبضه الله فيه : « لا يجتمعن بجزيرة العرب دِينان » ، ففحص عمر عن ذلك حتى ثبت عنده ، فأرسل إلى يهود فقال : إن الله عزَّ وجلّ قد أذن في جلائكم ، قد بلغني أن رسول الله ﷺ قال : « لا يجتمعن بجزيرة العرب دِينان » فمن كان عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود فليأتني به أُنْفِذْهُ له ومَن لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود فليتجهزّ للجلاء . فأجلى عمر رضي الله عنه مَن لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ . ثم خرج عبد الله بن عمر بن الخطاب والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود رضي الله عنهم إلى أموالهم بخيبر يتعهدونها فلما قدموا في أموالهم عدى على عبد الله بن عمر في جنح الليل وهو نائم على فراشه رجل ففدع يده من مرفقه ، فلما أصبح استصرخ أصحابه فأتياه فسألاه مَن صنع به هكذا ؟ فقال : لا أدري . فأصلحاها ثم قدموا على عمر بن الخطاب فأخبروه الخبر ، فقال : هذا عمل يهودَ . ثم قام في الناس خطيباً فقال : أيها الناس إن رسول الله ﷺ كان عَامَلَ يهود خيبر على انا نُخْرِجُهم إذا شئنا ، وقد عَدَوا على عبد الله بن عمر ففدعوا يديه كما قد بلغكم مع عدوهم على الأنصاري قبله ، لا نشك أنهم أصحابه ، ليس لنا هناك عدو غيرهم . فمن كان له مال بخيبر فليلحق به فإني مخرج يهود . فأخرجهم . فلما أخرجهم من خيبر ركب عمر بن

الخطاب في المهاجرين والأنصار وخرج معه جَبّار بن خنساء بن صخر بن أميّة ، وكان خارصاً لأهل المدينة وحاسَبَهم ، ويزيد بن ثابت ، فقسما خيبر على أهلها على أصل جماعة السّهْمان التي كانت عليها . وكان ما قسم عمر بن الخطّاب رضي الله عنه من وادي القُرَى لعثمان بن عفّان خَطَر ، ولعبد الرحمن بن عوف خطر ، ولعمر بن أبي سلمة خطر ، ولعامر بن أبي ربيعة خطر ، ولعمرو بن سراقة خطر ، ولاشْيَم خَطر ، ولبني جعفر خطر ، ولمعيقيب خطر ، ولعبد الله بن الأرقم خطر ، ولعبد الله وعبيد الله خطران ، ولابن عبد الله بن جحش خطر ، ولابن البُكَيْر خطر ، ولمعتمر خطر ، ولزيد بن ثابت خطر ، ولأُبَيّ بن كعب خطر ، ولمعاذ بن عَفْراء خطر ، ولأبي طلحة وحَسَن خطر ، ولجبار بن صخر خطر ، ولجابر بن عبد الله بن رئاب خطر ، ولمالك بن صعصعة وجابر بن عبد الله بن عمرو خطر ، ولابن حُضَير خطر ، ولابن سعد بن معاذ خطر ، ولسلمة بن سلامة خطر ، ولعبد الرحمن بن ثابت وأبي شريك خطر ، ولأبي عبس بن جبر خطر ، ولمحمد بن مسلمة خطر ، ولعبادة بن طارق خطر ، ولجبر بن عتيك نصف خطر ، ولبني الحارث بن قيس نصف خطر ، ولابن حَزَمَة والضحاك خطر .

قال ابن إسحاق : هذا ما بلغنا من أمر خيبر ووادي القُرَى ومقاسمهما . قال ابن هشام : (الخطر) النصيب .

هذا ما كان من أمر خيبر وغنائمها ، وأرضها ، وقسمتها ، وما آل إليه أمر اليهود ، وقد عُلم مما تقدم حال اليهود مع رسول الله ﷺ من يوم دخل المدينة مهاجراً مع أصحابه إلى آخر أمر خيبر ، وما عاملهم به من التودد واللين والتسامح والإغضاء عن كثير مما أتوا به من البغض والحسد وإثارة الفتن بين أصحابه ، وعرقلة دعوته إلى الإسلام ، وإغراء الأعراب بالمال لحربه ، وجمع الأحزاب لاستئصاله وأصحابه ، وغدرهم بقتل كثير من أصحابه غيلة ، وآخرهم الأنصاري الذي قُتِل بخيبر وأدَّى رسول الله ﷺ

عنهم ديته من ماله الخاص . كل ذلك كان من رسول الله ﷺ طمعاً في أن يؤمنوا برسالته لأنهم أهل كتاب ، وذلك معروف عندهم وموضح في كتبهم ، وكان أمله أنهم يكونون أسبق الأمم إلى الإسلام وإلى مناصرته ومعاضدته ، فما كان منهم إلا أن بادروه بالتكذيب ، والمكابرة ، والعداوة ، والبغضاء ، فعاهدهم فنقضوا العهود ، وسالمهم فحاربوه ، وتودّد إليهم فباغضوه ، فجعل الله سبحانه وتعالى كيدهم في نحورهم ، وخذلهم في كل المواطن ، وأبادهم من بلاد العرب ، وأورث المسلمين أرضهم ، وديارهم ، وأموالهم ، وكان حزب الله هم الغالبون ، تلك سنة الله في عباده المتقين « ولن تجد لسنة الله تبديلاً » .

قدوم جعفر بن أبي طالب من الحبشة ومن معه من الصحابة

قدم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه من الحبشة بعد أن قضى فيها نحو عشر سنين هو وكثير ممن هاجر معه من أصحاب رسول الله ﷺ ، فكان قدومه على رسول الله ﷺ يوم فتح خيبر ، فقبّل رسول الله ﷺ بين عينيه والتزمه[1] وقال : « ما أدري بأيهما أنا أُسر بفتح خيبر أم بقدوم جعفر » . قال ابن إسحاق : وكان مَنْ أقام بأرض الحبشة مِن أصحاب رسول الله ﷺ حتى بعث فيهم رسول الله ﷺ إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري فحملهم في سفينتين فقدم بهم عليه ﷺ وهو بخيبر بعد الحُدَيْبِية من بني هاشم بن عبد مناف : (١) جعفر بن أبي طالب ومعه امرأته أسماء ابنة عميس الخثعمية ، (٢) ابنه عبد الله بن جعفر ، وكانت ولَدَتْه بأرض الحبشة . ومن بني عبد شمس بن عبد مناف : (٣) خالد بن سعيد بن

(١) أي عانقه كما في رواية جابر وهذا يدل على ندبية تقبيل القادم ومعانقته حتى من الفاضل للمفضول خلافاً لمالك حيث خصه برسول الله ﷺ .

العاص الأموي ، ومعه امرأته أمينة بنت خلف بن أسعد ، (٤) ولداه سعيد بن خالد ، وأمَة بنت خالد ، ولدتهما بأرض الحبشة ، (٥) أخوه عمرو بن سعيد ، ومعه امرأته فاطمة بنت صفوان بن أمية بن محرث الكناني ، (٦) معيقيب بن أبي فاطمة الدوسي حليف بني أمية ، (٧) أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس حليف آل عتبة بن ربيعة بن عبد شمس . ومن بني أسد بن عبد العزى بن قصي : (٨) الأسود بن نوفل بن خويلد . ومن عبد الدار بن قصي : (٩) جهم بن قيس بن شرحبيل ، ومعه ولداه عمرو بن جهم ، وخزيمة بنت جهم ، وكانت معه امرأته أم حرملة بنت عبد الأسود هلكت بأرض الحبشة ، وابناه منها . ومن بني زهرة : (١٠) عامر بن أبي وقاص ، (١١) عتبة بن مسعود الهذلي ، أخو عبد الله بن مسعود . ومن بني تيم : (١٢) الحارث بن خالد بن صخر ، وكانت معه امرأته رَيْطة بنت الحارث بن جبيلة هلكت بأرض الحبشة . ومن بني جمح : (١٣) عثمان بن ربيعة بن أُهْبَان . ومن بني سهم : (١٤) محمية بن الجزء الزبيدي حليفهم . ومن بني عدي : (١٥) معمر بن عبد الله بن نَضْلة . ومن بني عامر بن لؤي : (١٦) أبو حاطب بن عمرو بن عبد شمس ، (١٧) مالك بن ربيعة بن قيس ومعه امرأته عمرة بنت السعدي بن وقدان بن عبد شمس . ومن بني الحارث بن فهر : (١٨) الحارث بن عبد القيس بن لَقِيط .

فهؤلاء الذين حَمّلهم النجاشي في سفينتين مع عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه ، منهم ستة عشر رجُلًا ممن هاجر من مكّة واثنان : عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وسعيد بن خالد ، ولدا بالحبشة ، وكان معهم من نساء من مات بأرض الحبشة .

وقد ورد غيرهم ممن هاجر من مكّة إلى الحبشة من غير هؤلاء الذين أرسلهم النجاشي وهم : (١) قيس بن عبد الله من بني أسد وامرأته بركة

بنت يسار مولاة أبي سفيان بن حرب ، (٢) يزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب الأسدي . ومن بني عبد الدار بن قصي : (٣) أبو الروم بن عمير أخو مصعب بن عمير ، (٤) فِراس بن النضر بن الحارث (٥) عبد الله بن المطلب بن أزهر بن عبد عوف الزهري ومعه أمه رملة بنت أبي عوف زوجة المطلب ، وقد هلك المطلب بأرض الحبشة ، فكان أول رجُل ورث أباه في الإسلام ، (٦) عمرو بن عثمان بن عمرو بن كعب التيمي ، (٧) هبار بن سفيان بن عبد الأسد المخزومي ، (٨) أخوه عبد الله بن سفيان المخزومي ، (٩) هشام بن أبي حذيفة بن المغيرة المخزومي ، (١٠) محمد بن حاطب بن الحارث ، (١١) أخوه الحارث بن حاطب ، وأمهما فاطمة بنت المجلل ، وهلك بأرض الحبشة أبوهما حاطب بن الحارث الجمحي مسلماً ، وكان ابناه قد ولِدا بأرض الحبشة فقدمت بهما أمهما في إحدى السفينتين ، (١٢) سفيان بن معمر بن حبيب الجمحي ، (١٣) ابناه جنادة ، (١٤) جابر ، وأمهما معه حسنة ، (١٥) شرحبيل بن حسنة وهي أمه ، وأبوه عبد الله بن المطاع الكِنْدي الحضرمي حليف بني جمح ، (١٦) قيس بن حذافة بن قيس السهمي ، (١٧) أبو قيس بن الحارث بن قيس السهمي ، (١٨) عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي ، وهو رسول الله ﷺ إلى كسرى وقد ورد المدينة قبل خيبر ، (١٩) الحارث بن قيس السهمي ، (٢٠) معمر بن الحارث بن قيس أخوه السهمي ، (٢١) بِشْر بن الحارث بن قيس أخوه ، (٢٢) سعيد بن عمرو التميمي ، أخو بِشْر بن الحارث لأمّه ، (٢٣) سعيد بن الحارث بن قيس السهمي ، (٢٤) السائب بن الحارث بن قيس السهمي ، (٢٥) عمير بن رئاب بن حذيفة بن مهشم السهمي ، (٢٦) نعمان بن عدي بن نَضْلة بن عبد العزى بن حرثان العدوي ، مات أبوه بأرض الحبشة ، (٢٧) سليط بن عمرو بن عبد شمس بن عبدود العامري ، وهو رسول الله ﷺ إلى هوذة الحنفي باليمامة أتى المدينة قبل خيبر ، (٢٨)

عثمان بن عبد غنم بن زهير الفهري ، (٢٩) سعد بن عبد قيس بن لقيط الفهري ، (٣٠) عياض بن زهير بن أبي شداد الفهري . فهؤلاء هم الذين وردوا المدينة على رسول الله ﷺ بعد بَدْر وقبل خيبر .

وأما من مات بأرض الحبشة ممن هاجر إليها من أصحاب رسول الله ﷺ فهم : (١) عمرو بن أمية بن الحارث الأسدي ، (٢) حاطب بن الحارث الجمحي ، (٣) أخو حطاب بن الحارث الجمحي ، (٤) عبد الله بن الحارث بن قيس السهمي ، (٥) عروة بن عبد العزى بن حرثان العدوي ، (٦) عدي بن نَضْلة العدوي ، (٧) عبيد الله بن جحش ، مات عن دين النصرانية . فؤلاء الذين هلكوا بأرض الحبشة وهم سبعة .

وأما مَنْ وُلِد بأرض الحبشة فمن الذكور خمسة ، وهم : (١) عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، (٢) محمد بن حذيفة بن عبد شمس ، (٣) سعيد بن خالد بن سعيد ، (٤) عبد الله بن المطلب ، (٥) موسى بن الحارث ، مات بالطريق .

ومن الإناث خمس ، وهن : (١) أَمَة بنت خالد بن سعيد ، (٢) زينب بنت أبي سلمة ، (٣) فاطمة بنت الحارث بن خالد بن صخر ، (٤) عائشة بنت الحارث ، ماتت بالطريق ، (٥) زينب بنت الحارث ، ماتت مع أختها عائشة وأخوها موسى بن الحارث ، وأمها رَيْطة بنت الحارث بن جبيلة بالطريق من ماء شربوه .

قدوم وفد الحبشة

لما قدم المدينة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، قدم معه وفد من الحبشة نحو الثمانين رجلاً فيهم نحو الثمانية من الروم كانوا بالحبشة من أهل العلم بالمذهب المسيحي ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ كانت

عليهم ثياب الصوف ، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة (يس) إلى آخرها فبكوا وأسلموا ، وقالوا : ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى عليه الصلاة والسلام . وقام رسول الله ﷺ يخدمهم بنفسه ، فقال له أصحابه : نحن نكفيك يا رسول الله . فقال : « إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإني أحب أن أكافئهم » . هكذا تكون الشهامة ، وهكذا يكون الكرم ، وهكذا تكون المروءة !!

يقول رسول الله ﷺ : « إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين ، وإني أحب أن أكافئهم » ، وقام يخدمهم بنفسه مع وجود من يقوم بخدمتهم غيره ، ولكن مكارم الأخلاق تقضي على الإنسان أن يكون هو القائم بنفسه على ما يكون فيه مكرمة وفضل ، فلو أن كل إنسان عمل بالواجب لما وجد على الأرض متباغضون ، ولكن ما كل من يثمر معه المعروف ، ولا كل من يعمل بالواجب ، بل ذلك لا يوجد إلا في بعض الأفراد من الناس . وهذا هو الأساس في المجتمع الإنساني وهو المحور الذي تدور عليه مكارم الأخلاق ، وكل أمة تفقد مكارم الأخلاق لا قيمة لها في المجتمع الإنساني . وإني أرى في العصر الحاضر أن المجاملة المبنية على حسن النية كادت تفقد ، وقد استعمل النفاق والتزلف الممقوتان وسموهما المجاملة ، مع أن المجاملة غير ذلك ، فالمجاملة لا بُدّ أن تكون على حسن نية ، وأن تكون مجردة عن كل تزلف ونفاق ، فإذا سار الناس مع بعضهم بعضاً على هذه القاعدة أصبحوا في وئام تام ، وصلة شريفة ، لأن الصدق في كل شيء مفيد ، وسلامة النية خير من التملق والتزلف .

قدوم أبي هريرة [1]
رضي الله عنه

قَدِمَ أبو هريرة رضي الله عنه المدينة في رأس سنة سبع من الهجرة ورسول الله ﷺ بخيبر . قال أبو هريرة : قَدِمْنا المدينة ونحن ثمانون بيتاً من دوس ، فصلّينا الصبح خلف سباع بن عرفطة الغفاري رضي الله عنه . فأخبرنا أن النبي ﷺ بخيبر ، فزودنا سباع ثم جئنا خيبر وهو محاصر (للكتيبة) فأقمنا حتى فتح الله عليه خيبر .

زواجه على أم حبيبة [2]

أرسل رسول الله ﷺ في افتتاح المحرم من سنة سبع من الهجرة ، عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه إلى النجاشي ليزوِّجه على أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب ، فلما وصل كتاب رسول الله ﷺ إليه أرسل إلى أم حبيبة جارية له اسمها أبرهة فقالت لها : إن الملك يقول لكِ أن رسول الله ﷺ كتب إليه أن يزوجكِ منه . فقالت لها أم حبيبة : بَشّره الله بالخير . فقالت الجارية : ويقول لكِ وكِّلي من يزوجك . فأرسلت بالوكالة إلى خالد بن سعيد [3] رضي الله عنه ، وأعطت أم حبيبة للجارية سوارين ،

---

(١) واسمه عبد الرحمن بن صخر على الأصح من نحو ثلاثين قولاً كما قاله النووي ، وكني بهريرة كان يربيها .

(٢) كانت تحت عبيد الله بن جحش هاجرا إلى الحبشة ثم تنصر وارتد عن الإسلام ومات هناك وثبتت أم حبيبة على الإسلام .

(٣) لكونه ابن عم أبيها وقيل عثمان بن عفان بن العاص بن أمية لذلك أيضاً ، وقيل النجاشي لكونه أمير الموضع وسلطانه . ويؤيد الأخير ما في سنن أبي داود والنسائي : فزوجها النجاشي من النبي ﷺ . وجزم ابن القيم إلى كونه خالد بن سعيد . قال اليعمري وهو أثبت ، وعليه فالخاطب النجاشي والعاقد خالد .

وخلخالين ، وخواتم من فضة ، هدية مقابل سرورها بما بَشّرتها به . فلما كان العشي أمر النجاشي جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، وذلك قبل عودته إلى المدينة ومَنْ معه مِنَ المسلمين فحضروا ، وخطب النجاشي رضي الله عنه فقال : الحمد لله الملك القدُّوس المؤمن المهيمن العزيز الجبّار ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأنه الذي بَشّرَ به عيسى بن مريم عليه السلام . أما بعد ، فإن رسول الله ﷺ كتب إليّ أن أزوِّجه أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب فأجبنا إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ . وقد أصدقها النجاشي أربعمائة دينار[1] ، ثم سكب الدنانير بين يدي القوم . فخطب خالد بن سعيد فقال : الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، أما بعد ، فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وزوّجته أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فبارك الله لرسول الله ﷺ . وقبض الدنانير خالد بن سعيد وأسلمها إلى أم حبيبة رضي الله عنها . وعمل لها النجاشي طعاماً فأكلوا . قالت أم حبيبة : فلما وصل إليّ المال أعطيت أبرهة خمسين ديناراً ، قالت : فردّتها عليّ وقالت : ان الملك عزم عليّ بذلك . وردّتْ ما كنت أعطيتها أولاً ، ثم جاءتني من الغد بعود ، وورس ، وعنبر ، وزباد كثير ، فقدِمْتُ به معي على رسول الله ﷺ . فلما بلغ أبا سفيان أن النبي ﷺ نكح ابنته قال : هو الفحل لا يجدع أنفه . ثم لما قدِم أبو سفيان المدينة وأراد أن يزيد في الهدنة دخل على أم حبيبة ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ

---

(١) كذا في تفسير البغوي وغيره ، وهذا لا ينافيه ما في سنن النسائي وأبي داود من أنه أمهرها أربعة آلاف درهم من حساب الدينار بعشرة دراهم كما أنه لا ينافيه صداقة ﷺ لأزواجه بخمسمائة درهم لأن هذا القدر تبرع به النجاشي من ماله إكراماً له ﷺ أداه وعقد به كما قال النووي .

طـوته دونـه ، فقال : يـا بُنَيَّة ، أرغبتِ بهـذا الفراش عني أم بي عنـه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت امرؤ نجس مشرك . فقال : لقد أصابكِ بعدي شَرّ .

فهـذا حـال رسـول الله ﷺ مـع النـاس في التـودد ، والتقـارب ، والإئتلاف ، فبالأمس تزوج على صفية بنت حيي بن أخطب وهو ألد أعداء رسول الله ﷺ ، واليوم يتزوج على أم حبيبة بنت أبي سفيان وهو من أعظم أعدائه من قريش ليعلم أبو سفيان أنه لم يضمر له كيداً ويرغب في التقرب له ولسائر الناس بأي شكل من أشكال التقرب والتودد . فهذه جادّة المصلح لا يحقد لأحدٍ بِشَرّ ، ولا يكيد لإنسان بشيء ، فجادّة المصلحين غير جادّة المفسدين ، لأن المصلحين نظراً عـالياً في جلب القلوب نحـوهم وكسر شوكة البغضاء من قلوب أعدائهم ، ولله في خلقه شؤون .

سرية عمر بن الخطاب إلى تُرَبه

بعث رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في شهر شعبان من سنة سبع من الهجرة إلى تُرَبه في ثلاثين رجلاً ، وأرسل معهم دليلاً من بني هلال ، وهو واد بشرق الطائف خصب ذا نخل وزرع وهو من بـلاد هـوازن الذين يسمـون الآن (عتيبة) ، فكـانوا يسيـرون الليل ويختفـون النهار ، فأتى الخبر إلى هوازن الطائف فهربوا ، وجاء عمر بن الخطاب إلى محالهم فلم يلق منهم أحداً بل ترفعوا ، فأخـذ ما وجـده من نعم وغيره وانصرف راجعاً إلى المدينة ، فلما كان بذي الجدر[1] ، وهو موضع على ستة أميال من المدينة ، قال له الدليل الهلالي : هل لك في جمع آخر

---

(١) بفتح الجيم وسكون الدال وبالراء : مسرح الغنم على ستة أميال من المدينة .

تركته من خثعم سائرين قد أجدبت بلادهم ؟ فقال عمر : لم يأمرني رسول الله ﷺ بهم إنما أمرني أن أعمد لقتال هوازن بتُرَبه ، فرجع إلى المدينة ولم يلق حرباً .

سرية أبي بكر الصديق إلى بني كلاب

بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه إلى بني كلاب ، قبيلة بنجد بناحية ضَرِيّة[1] ، في شعبان سنة سبع من الهجرة . وفي « صحيح مسلم » عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : غَزَونا فزارة وعلينا أبو بكر أمّره رسول الله ﷺ علينا ، فلما كان بيننا وبين الماء ساعة أمرنا فعرسنا ، ثم شن الغارة فورد الماء فقُتِل من قتل عليه وسبي ، وانظر إلى عنق من الناس فيهم الذرية فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فرميت بسهم بينهم وبين الخيل ، فلما رأوا السهم وقفوا ، فجئت بهم أسوقهم وفيهم امرأة من بني فزارة عليها قشع من أدم ، قال القشع النط ، معها ابنة لها من أحسن العرب ، فسقتهم حتى أتيت بهم أبا بكر رضي الله عنه ، فنفلني أبو بكر ابنتها ، فقدمنا المدينة وما كشفت لها ثوباً ، فلقيني رسول الله ﷺ في السوق فقال : « يا سلمة هَبْ لي المرأة ؟ » فقلت : يا رسول الله والله لقد أعجبتني وما كشفت لها ثوباً . ثم لقيني رسول الله ﷺ من الغد في السوق ، فقال : « يا سلمة هب لي المرأة لله أبوك ؟ » فقلت : هي لك يا رسول الله ، فوالله ما كشفت لها ثوباً . فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ، ففدى بها ناساً من المسلمين كانوا أُسروا بمكّة .

---

(١) بفتح الضاد وكسر الراء فتحتية مشددة مفتوحة فتاء تأنيث : يقال انه اسم امرأة سمي به الموضع قال في الصحاح قرية لبني كلاب على طريق البصرة إلى مكة أقرب .

سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى نبي مرة

بعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد الخزرجي الأنصاري رضي الله عنه ، في شهر شعبان سنة سبع من الهجرة ، في ثلاثين رجلاً إلى بني مرة على شمال المدينة بقرب فدك ، على ستة أميال من المدينة . فلما وصلوا إلى محل القوم وجدوا رعاء الشاء ، فسألوهم عن القوم فقيل هم في بواديهم شاتون لا يرِدون الماء ، فاستاقوا النعم والشاء وانحدروا إلى المدينة ، فخرج الصارخ إليهم فأدركهم العدد الكثير من بني مرة عند الليل فباتوا يترامون بالنبل حتى نفد نبل أصحاب بشير بن سعد ، فلما أصبحوا حملوا على بشير وأصحابه فقتلوا منهم مَنْ قتلوا وولّى من ولّى منهم ، وقاتل بشير قتالاً شديداً حتى أثبتته الجراح وبه رمق ، فضرب القوم كعبه ليختبروه أحيّ هو أم ميْت ، فلما رأوه لا يتحرك تركوه وانصرفوا بنعمهم وشائهم ، وقدم عُلْبَة[1] بن زيد الأوسي الأنصاري على رسول الله ﷺ بخبرهم . وأما بشير بن سعد فمكث بين القتلى حتى انصرف القوم ، ثم تحامل حتى انتهى إلى فدك ، فأقام بفدك عند يهودي أياماً حتى قوي على المشي فجاء المدينة .

سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى الميفعة

بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه إلى بني عُوال[2] ، وبني عبد بن ثعلبة (بالمِيْفَعة) ، اسم محل وراء بطن نخل

---

(١) بضم العين وإسكان اللام وفتح الموحدة فتاء تأنيث .

(١) بضم العين والميفعة بكسر الميم وسكون التحتية وفتح الفاء والعين المهملة فتاء

بنجد بشرق المدينة على ثمانية برد نحو مائة وعشرين ميلاً ، وذلك في شهر رمضان سنة سبع من الهجرة ، ومعه مائتان[٢] وثلاثون رجلاً ، وكان دليلهم يساراً مولى رسـول الله ﷺ ، فهجموا عليهم جميعـاً في وسط محالهم ، فقتلوا جمعاً من أشرافهم[٣] واستاقوا أنعامهم وشاءهم ولم يـأسروا أحـداً منهم ورجعوا إلى المدينة .

سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى يمن[٤] وجبار

بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من غطفان قد واعدهم عيينة بن حصن بوادٍ قريب من خيبر اسمه جبار ، ويمن ، ويُقال أن هـذا الوادي لفـزارة وعذرة ، وهو على شمال المدينة ، للإغارة على المدينـة ، فبعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد الأنصاري رضي الله عنه ، في شهر شوال سنة سبع من الهجرة ، ومعه ثـلاثمائـة رجل ، فسـاروا ، يكمنون النهـار ويسيرون الليل ، حتى أتوا على المحل المذكور ، وقد بلغ القوم مسيرهم فهربوا ، فأصاب بشير نعماً كثيرة وتفرّق الرعاة فلم يظفروا بأحد من القوم غير رجلين فأسرهما . وعاد إلى المدينة بالأسيرين والغنيمة ، فأسلم الرجلان على يد رسول الله ﷺ ، فأرسلهمـا رسول الله ﷺ - أي أطلقهمـا - . وكان يُقـال لعيينة بن حصن الأحمق المطاع لأنـه كان يتبعـه عشرة آلاف مقـاتل من

تأنيث .

(١) والذي عند ابن إسحاق في مائة لا مائتين ويسار المذكور هو الحبشي وهناك يسار آخر نوبي قتله القرشيون في شوال سنة ست وعليه فلا إشكال .

(٢) المحفوظ بصيغة الماضي ذكره الزرقاني وما هنا بصفة الجمع رده البرهان .

(٣) قال اليعمري بفتح الياء أخر الحروف وقيل بضمها وقيل بالهمزة مفتوحة ساكنة الميم مع فتح أوله أو ضمه وجبار بفتح الجيم وبموحدة مخففة وبعدها ألف وراء .

فزارة . أسلم قبل الفتح .

عمرة القضاء[1]

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في « فتح الباري » : لهذه العمرة أربعة أسماء : عمرة القضاء ، والقضية ، والقصاص ، والصلح . فلما صار هلال ذي القعدة من سنة سبع[2] من الهجرة ، أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يعتمروا قضاء لعمرتهم التي صدّهم المشركون عنها بالحُدَيْبِية ، وأن لا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية ، فلم يتخلف منهم إلا رجال استشهدوا أو ماتوا بين عمرة الحديبية ، وعمرة القضاء ، وكان رجال من حاضري المدينة من العرب قالوا : يا رسول الله مالنا زاد ومالنا أحد يطعمنا . فأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينفقوا في سبيل الله تعالى وأن يتصدّقوا وأن لا يكفوا أيديهم لئلا يهلكوا ، فقالوا : يا رسول الله أنتصدق وأحدنا لا يجد شيئاً ؟ فقال رسول الله ﷺ : « بما كان ولو بشق تمرة » .

---

(١) هكذا ترجم به الحافظ البخاري عند الأكثر لأنه قاضى أي عاهد فيها قريشاً سنة الحديبية ، فالمراد بالقضاء الفصل الذي وقع عليه الصلح ولـذا تقال لهـا عمرة القضية ، قال أهل اللغة : قاضى فلاناً عاهده ، وقاضاه : عاوضـه وليست هذه العمرة قضاء عن العمرة التي صد عنها بل كانت عمرة تامة ، ولـذا عدوا عمـر النبي ﷺ أربعاً : عمرة الحديبية وعمرة القضاء وعمرة من الجعرانة وكلهن في ذي القعدة وعمرة في حجته ، ولهذا أشـار صاحب « قـرة الأبصار » بقـوله : وحـج حجتين ثم الفرضان واعتمر الأربع قالوا أيضاً قال ومسالك : ثلاثاً اعتمرن وحج مفرداً فحقق الخبر وكلهن كن في ذي القعدة على الذي صححه من عدة ، وهذه العمرة هي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ **لقـد صدق الله رسـوله الـرؤيا بـالحق لتـدخلن المسجـد الحـرام إن شـاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصـرين لا تخافون** ﴾ . الآية .

(٢) على الصحيح روى يعقوب بن سفيان في تاريخه بإسناد حسن عن ابن عمر قال : كانت عمرة القضية في ذي القعدة سنة سبع .

فخـرج رسول الله ﷺ ومن معـه من المسلمين ألفـان غيـر النسـاء والصبيان ، واستخلف على المدينة أبا رُهْم[1] الغفاري رضي الله عنه . وساق رسول الله ﷺ ستين بدنة ، وحمل السلاح والبيض[2] ، والدروع ، والرماح ، وقاد مائة فرس ، فلما انتهى إلى ذي الحليفة قدَّم الخيل أمامه عليها محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه وقدم السـلاح واستعمل عليه بشير بن سعد الأنصاري . وأحـرم[3] ولبى ﷺ ، والمسلمون يلبـون معه ، ومضى محمد بن مسلمة في الخيل إلى مر الظهران ـ وادي فاطمة ـ فوجد بها نفراً من قريش فسألوه فقال : هـذا رسول الله ﷺ يُصَبِّـح هذا المنزل غداً إن شاء الله تعالى . فأتوا قريشاً فأخبروهم ففزعوا وقالوا : والله ما أحدثنا حدثاً وإنا على كتابنا ففيم يغزونا محمد وأصحابه . فنزل رسول الله ﷺ بمر الظهران وقدم السلاح إلى بطن (يأجج) ، موضع بمكّة ، قال ياقوت موضع على ثمانية أميال وكان من منازل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ، ثم قال : ويأجج موضع آخر وهو مسجد الشجرة بينه وبين مسجد التنعيم ميـلان . انتهى . والظاهـر من قولـه بينه وبين التنعيم ميـلان أنه الموضع الذي يسمى في العصر الحاضر (أم نيفية) وهذا الموضع واقع على طـريق القادم من مـر الظهـران إلى مكّة ، حيث ينـظر إلى أنصاب الحرم ، وخلف عليه أوس بن خولي الأنصاري في مـائتي رجل ، وقـدَّم الهدي أمامه وجعل عليه ناجية بن جندب الأسلمي فحبس[4] بذي طوى ،

---

(١) بضم الراء وسكون الهاء كلثوم بن الحصين الغفاري ، وقال ابن هشام عويف بن الأخبط الديلمي وقال البلاذري أبا ذر يعني الغفاري .

(٢) بكسر الموحدة جمع بيضة وهي الواحدة من الحديد .

(٣) من باب المسجد لأنه سلك طريق الفـرع ولولا ذلـك لأهل من البيـداء . رواه الواقدي عن جابر .

(٤) أي ترك بذي طوى : واد قريب من مكة فإذا فرغ من عمرته أحضر للنحر .

فبعثت قريش مكرز بن حصن في نفر من قريش حتى لقوا رسول الله ﷺ ببطن أجج في أصحابه والهدي والسلاح قد تلاحق فقالوا لـه : والله يا محمد ما عرفت صغيراً ولا كبيراً بالغدر ، تدخل بالسلاح في الحرم على قومك وقد شرطت لهم أن لا تـدخل بسـلاح ؟ فقال ﷺ لمكـرز : « هو كذلك » . ثم رجع مكرز سريعاً إلى مكة وأصحابه وقال لقريش : هو على الشرط الذي شرط لكم . فلما اطمأنت قريش بذلك استنكف رجال من أشـراف المشركين أن ينـظروا إلى رسول الله ﷺ غيـظاً وحنقـاً وحيفـاً ، فخرجوا إلى رؤوس الجبال وتركوا مكة .

فقـدم رسـول الله ﷺ مكّـة على راحلتـه (القصـواء) والمسلمـون متوشحون السيوف محدقون برسول الله ﷺ يلبون ، فدخل الثنيـة[1] التي تطلعه على الحجون وعبد الله بن رواحة الأنصاري رضي الله عنه بين يدي رسول الله ﷺ ينشد ويرتجز :

خـلّوا بَني الكُـفّـارِ عن سَـبِيْـلِهِ ... قـد أنْـزل الـرحمنُ في تَنْـزيلِه

بـأنّ خَـيـر القـتـلِ في سَـبِيـلِهِ ... نـحـنُ قـتلنـاكُـمْ عـلى تـأويـلِهِ

كما قتلناكُمْ على تنزيلِهِ

وقال بعده :

اليـومَ نَضْـربكُم عـلى تـنـزيـلِهِ ... ضَـرْبـاً يُـزيـل الهـامَ[2] عن مَقِيلهِ

ويُـذْهِـل الـخَليـلَ عـن خَلِيْـلِهِ ... يـا رَبّ إنـي مُـؤْمـنٌ بِـقِـيـلِهِ

قَـدْ أنْـزَلَ الـرحمنُ في تنـزيلِهِ ... في صُحُفٍ تُتْـلَى على رسـولِـهِ

يـا رَبّ إنـي مُـؤْمِـنٌ بِـقِـيـلِهِ ... إنّـي رأيتُ الـحَـقّ فـي قـبـولـهِ

---

(١) هي كلمة عقبة مسلوكة ؛ والحجون جبل بمكة .

(٢) أي الرأس وعن مقيله أي محل نومه نصف النهار .

فقال له عمر بن الخطاب : يا ابن رواحة . . بين يدي رسول الله ﷺ وفي حرم الله تقول الشعر ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « خَلِّ عنه يا عمر فلهو أسرع فيهم من نضح[1] النبل » ، ثم قال رسول الله ﷺ : « يا ابن رواحة قُلْ لا إله إلاّ الله وحده نصر عبده وأعزّ جنده وهزم الأحـزاب وحده » ، فقالها ابن رواحة ، وقالها رسول الله ﷺ والناس كما قالها . فدخل رسول الله ﷺ وأصحابه مكّة راكباً ناقته (القصواء) وأصحابه محدقون به ، وقعد جمع من المشركين بجبل قعيقعان ينظرون إليه ﷺ وإلى أصحابه ، وقد قال المشركون : انه يقدم غداً قوم وهنتهم الحمى ولقوا منها شدة ، فجلسوا على قعيقعان مما يلي الحجر ـ يعني جلسوا على طرفه الشرقي وهو موقع قلعة جبل هندي المسماة اليوم ـ فاطلع الله تعالى نبيه على ما قالوا ، فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد أمر أصحابه أن يرملوا[2] الأشواط الثلاثة وأن يمشوا ما بين الركنين[3] ، ولم يمنعهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم ـ يعني الإشفـاق بهم وان لا يكون سنّـة لأمته فتكـون مشقة على ضعفائهم وشيوخهم وكهولهم ، حيث هو ﷺ المشـرّع وكل عمـل يعمله يتابعه عليه المسلمون ـ وأضطبع[4] رسول الله ﷺ بردائه وكشف عن عضده الأيمن . وفعلت الصحابة مثله . فلما رأت المشركون رملهم وقوة أجسامهم قال بعضهم لبعض : هؤلاإ الذين زعمتم أنهم وهنتهم حمى يثرب وانهم يثبون نفر الظبي . ثم استلم ﷺ الركن وخرج يهرول وأصحابه معه حتى إذا

---

(١) أي رمي السهم إليهم .

(٢) بضم الميم وهـو الإسراع ؛ وأصله أن يحـرك الماشي منكبيـه في مشيته ليـرى المشركون قوة المسلمين بهذا الفعل .

(٣) هما اليمانيـان حيث لا تراهم قـريش لكونهم من جهـة قعيقعان وهـو لا يشرف عليهما .

(٤) وهذا أول رمل وإضطباع في الإسلام .

واراه البيت منهم واستلم الركن مشى حتى استلم الركن الأسود ، ثم هرول لذلك ثلاثة أشواط ومشى سائرها . ولم يزل رسول الله ﷺ يلبي حتى استلم الركن بمحجنه[1] . ثم طاف رسول الله ﷺ بين الصفا والمروة على راحلته ، فلما كان الطواف السابع عند فراغه وقد وقف الهدي عند المروة قال ﷺ : « هذا منحر وكل فجاج مكّة منحر » ، فنحر عند المروة وحلق[2] هناك وكذلك فعل المسلمون ، وأمر رسول الله ﷺ ناساً من أصحابه أن يذهبوا إلى أصحابهم ببطن يأجج فيقيمون على السلاح ويأتي الآخرون فيقضون نسكهم ، ففعلوا .

زواجه على ميمونة بمكة

فلما انتهى رسول الله ﷺ من نسكه تزوج ميمونة بنت الحارث بن حزن الهلالية أخت أم الفضل لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب ، وكان اسمها برة فسمّاها رسول الله ﷺ ميمونة ، وكانت قبلُ عند أبي رُهْم بن عبد العزى العامري وقد تأيمت ، فأرسل رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه يخطبها فأذنت للعباس فزوّجها وأصدقها عنه أربعمائة درهم ، وأراد رسول الله ﷺ أن يبني بها بمكّة فلم تمهله قريش ، فقال لهم : « اني قد نكحت فيكم امرأة فما يضركم إن مكثت حتى أدخل بها وأصنع طعاماً فنأكل وتأكلوا معنا » . فجاء حويطب إلى رسول الله ﷺ وهو في قبته التي نصبها بالأبطح وقت الظهر ، وكان عنده سعد بن عبادة الأنصاري رضي الله عنه يتحدث معه ، فصاح حويطب : ناشدتك الله والعقد إلا ما خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث . فغضب سعد بن عبادة

---

(١) عصا معوجة الرأس يلتقط بها الراكب ما سقط منه .
(٢) وكان الحالق له ﷺ معمر بن عبد الله العدوي .

لما رأى من غلظ كلامه للنبي ﷺ فقال له : كذبت لا أم لك ، ليس بأرضك ولا أرض آبائك ، والله لا يبرح منها إلا طائعاً راضياً . فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « يا سعد لا تؤذي قوماً زارونا في رحالنا » ، وأسكت الفريقين ، ثم أمر رسول الله ﷺ أبا رافع رضي الله عنه أن ينادي بالرحيل ولا يمسي بها أحد من المسلمين ، وخلف أبا رافع ليأتي له بميمونة حين يمسي .

عودته من عمرة القضاء إلى المدينة

فخرج رسول الله ﷺ من مكّة وأتى سرف[1] ، وهو على بعد عشرة أميال من مكّة شمالاً ، وخرج أبو رافع بميمونة ، وقد لقيت ميمونة رضي الله عنها من سفهاء مكّة أذى ألسنتهم للنبي ﷺ ولها ، فقال أبو رافع رضي الله عنه لهم : هذه والله الخيل والسلاح ببطن ناجع وأنتم تريدون نقض العهد والمدة ، فولوا راجعين منكسين . وأقام رسول الله ﷺ بسرف ودخل فيه على ميمونة تحت شجرة هناك ، وأخبر رسول الله ﷺ أنها لا تموت بمكّة ، فلما ثقل عليها المرض سنة ثلاث وأربعين من الهجرة قالت : أخرجوني . فأخرجوها حتى أتوا بها ذلك الموضع الذي دخل عليها رسول الله ﷺ ، فماتت[1] فيه . وقد عاشت بعد رسول الله ﷺ ثلاثاً وثلاثين سنة .

---

(١) وهو ما بين التنعيم ووادي فاطمة وإلى التنعيم أقرب .

(٢) سنة إحدى وخمسين وقيل سنة ست وستين وقيل ثلاث وستين ، ودفنت بسرف في موضع قبتها ، وقبرها على يسار الذاهب إلى وادي فاطمة ، وصلّى عليها ابن عباس ودخل قبرها . وروى الشيخان عن عطاء قال : حضرنا مع ابن عباس جنازة ميمونة بسرف فقال ابن عباس : هذه زوجة النبي ﷺ فإذا رفعتم نعشها فلا تزعزعوها ولا تزلزلوها وارفقوا .

فلما خرج رسول الله ﷺ تبعتهم ابنة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه واسمها عمارة[1] تنادي : يا عم[2] يا عم . فتناولها علي بن أبي طالب رضي الله عنه فأخذها بيدها وقال لفاطمة بنت رسول الله ﷺ : دونكِ بنت عمك . فحملتها . فاختصم فيها علي ، وزيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم ، قال علي : أنا أخذتها وهي ابنة عمي . وقال جعفر : ابنة عمي وخالتها تحتي . وقال زيد : بنت أخي . فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال : « الخالة بمنزلة الأم » ، وقال لعلي : « أنت مني وأنا منك » ، وقال لجعفر : « أشبهت خَلقي وخُلقي » ، وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا » . وقال علي رضي الله عنه : ألا تتزوج بنت حمزة ، قال ﷺ : « إنها بنت أخي من الرضاع » . أخرجه البخاري . ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة .

انظر إلى مكارم الأخلاق وتجسمها في رسول الله ﷺ وما يلاطف به الأعداء والأصدقاء ، فقد قال لقريش لما طلبوا منه الخروج : « اني قد نكحت فيكم امرأة فما يضركم إن مكثت حتى أدخل بها وأصنع طعاماً فنأكل وتأكلوا معنا » ، وما قاله لعليّ ، وجعفر ، وزيد ، حين حكم بينهم في عمارة بنت حمزة رضي الله عنهم من الملاطفة وأخذ الخاطر ! فهكذا تكون الأخلاق الفاضلة ، وهكذا يكون اللطف ومكارم الأخلاق !! . . وبالأخص إذا صدر من وليّ الأمر وصاحب الرياسة ، فإن ورد اللطف من وليّ الأمر فله قيمة بخلاف ما إذا ورد من آحاد الناس ، لأن ملاطفته فيها

---

(١) قال الحافظ وأمامة هو المشهور وقد ترجم به في الإصابة وعزاه إلى أبي جعفر بن حبيب وابن الكلبي والخطيب في المبهمات .

(٢) إجلالاً له وإلا فهو ابن عمها أو بالنسبة إلى أن حمزة وإن كان عمه من النسب فهو أخوه من الرضاعة .

جبر الخاطر وإنعاش النفس . وذلك غريز في النبي ﷺ وهو المشرع لمكارم الأخلاق كما هو المشرع للقضايا والأحكام والعبادات والمعاملات . وقد انعكست القضية في زماننا حيث نرى كثيراً من أصحاب المقامات والحيثيات يرون أن الفظاظة والكبرياء من لوازم الرفعة وعلو المقام ، ولذلك صاروا ثقلاء على الناس وأصبحت الفظاظة حيلولة بينهم وبين أفراد الناس ، فلا حول ولا قوة إلا بالله . ألهمهم الله رشدهم وخفف من فظاظتهم وكبريائهم[1] .

إسلام
خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة وعمرو بن العاص

يقول خالد بن الوليد : انه لما أراد الله عزَّ وجلّ بي ما أراد من الخير ، قذف في قلبي الإسلام وحضر لي رشدي ، وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ﷺ ، فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني في غير شيء وأن محمداً ﷺ يظهر . فلما جاء لعمرة القضاء تغيبت ، فكان أخي الوليد بن الوليد دخل معه ، فطلبني فلم يجدني فكتب إليّ كتاباً فإذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإني لم أرَ أعجب من ذهاب رأيكَ عن الإسلام وعقلك ، ومثل الإسلام لا يجهله أحد ، قد سألني رسول الله ﷺ عنك فقال : « أين خالد ؟ » فقلت : يأتي الله به ، فقال : « ما مثله يجهل الإسلام ، ولو كان يجعل نكايته مع

---

(١) وبعض ذوي المناصب الحساسة اليوم يستعملون الغلظة والفظاظة تغطية لنقصهم ، وهو في الواقع إنحطاط لمعنويتهم لدى الجمهور فلا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم حسن خُلقنا وخَلقنا .

المسلمين على المشركين كان خيراً له ولقدّمناه على غيره » ، فاستدرك يا أخي ما قد فاتك من مواطن صالحة . قال خالد : فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الإسلام وسرّتني مقالة رسول الله ﷺ ، ورأيت في المنام كأني في بلاد ضيقة جدبة فخرجت إلى بلاد خضراء واسعة . فلما أجمعت على الخروج إلى المدينة لقيت صفوان بن أمية فقلت : يا أبا وهب أما ترى أن محمداً ظهر على العرب والعجم ، فلو قدمنا عليه واتبعناه فإن شرفه شرف لنا . فقال : لو لم يكن يبقى غيري ما تبعته أبداً . فقلت : هذا رجل قتِل أبوه وأخوه ببدر . فلقيت عكرمة بن أبي جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان ، فقال مثل ما قال صفوان ، فقلت : فاكتم ذكر ما قلت لك . قال : لا أذكره . ثم لقيت عثمان بن طلحة الحجبي ، قلت هذا لي صديق ، فأردت أن أذكر له ، ثم ذكرت قَتْل أبيه طلحة وعمه وعثمان وأخوته الأربعة مسافع ، والجلاس ، والحارث ، وكلاب ، فانهم قُتِلوا كلهم بأحُد ، فكرهت أن أذكر له ، ثم قلت له : إنما نحن بمنزلة ثعلب في حجر لو صب فيه ذَنُوب من ماء لخرج ، ثم قلت له ما قلت لصفوان وعكرمة ، فأسرع الإجابة ، ووعدني إن سبقني أقام بمحل كذا وإن سبقته إليه انتظرته ، فلم يطلع الفجر حتى التقينا ، فغدونا حتى انتهينا إلى الهدة ، فوجدنا عمرو بن العاص بها فقال : مَرْحَباً بِالْقَوم . فقلنا : وبك . قال : أين مسيركم ؟ قلنا : الدخول في الإسلام . قال : وذلك الذي أقدمني . هذا حديث خالد بن الوليد رضي الله عنه .

وأما حديث عمرو بن العاص .

قال عمرو بن العاص : لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالاً من قريش كانوا يَرَوْن رأيي ويسمعون مني ، فقلت لهم : تعلمون والله أني أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً وإني لقد رأيت أمراً فما ترون فيه ؟ قالوا : وماذا رأيت ؟ قلت : رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون

عنده فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي ، فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد ، وإن ظهر قومنا فنحن مَنْ قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلا خير . قالوا : إن هذا لرأي . قلت : فاجمعوا لنا ما نُهْديه له . وكان أحبّ ما يُهْدى إليه من أرضنا الادم ، فجعلنا له أدماً كثيراً ، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه ، فوالله انا لعنده إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري ، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه في شأن جعفر وأصحابه . قال ، فدخل عليه ثم خرج من عنده فقلت لأصحابي : هذا عمرو بن أمية الضمري لو قد دخلْتُ على النجاشي لسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه ، فإذا فعلتُ ذلك رأيت قريش اني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد . قال ، فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع فقال : مرحباً بصديقي ، أأهديت إليّ من بلادك شيئاً ؟ قلت : نعم أيها الملك ، قد أهديت إليك أدماً كثيراً . قال ، ثم قرّبته إليه فأعجبه واشتهاه ، ثم قلت له : أيها الملك . . أني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا فأعطنيه لأقتله فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا . قال ، فغضب النجاشي ثم مدّ يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره فلو انشقّت الأرض لدخلت فيها فَرَقاً منه ، ثم قلت له : أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه . قال : أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموسُ الأكبرُ الذي كان يأتي موسى لتقتله ؟ قال ، قلت : أيها الملك أكذاك هو ؟ قال : ويحك يا عمرو أطِعْني واتّبعه فإنه والله لعلى الحق وليَظْهَرَنّ على مَن خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . قال ، قلت : أفتُبايعني له على الإسلام ؟ قال : نعم . فبسط يده ، فبايعته على الإسلام ، ثم خرجت إلى أصحابي وقد حالَ رأيي عما كان عليه ، وكتمت أصحابي إسلامي ، ثم خرجت عامداً إلى رسول الله ﷺ لأسلم فلقيتُ خالد بن الوليد . هذا حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه .

ثم اصطحب الثلاثة حتى قدموا المدينة ، فلما وصلوا المدينة أناخوا ركابهم بظهر الحرة ، فأُخبر بهم رسول الله ﷺ فسرّ بهم وقال لأصحابه « رمتكم مكّة بأفلاذ كبدها » . وهذه هي الحقيقة حيث إن هؤلاء الثلاثة هم أفلاذ كبد مكّة ، لأن أحدهم صاحب رايتهم في الحرب ورئيس سدنة الكعبة ، والثاني قائد الخيل وأعظم بطل فيهم ، والثالث داهيتهم العظيم وصاحب الرأي الثاقب فيهم والسفير الأعظم عندهم .

قال خالد بن الوليد : فلبست صالح ثيابي ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ فلقيت أخي فقال : أسرع فإن رسول الله ﷺ قد سُرّ بقدومكم وهو ينتظركم . فأسرعنا المشي فاطلعت عليه فما زال رسول الله ﷺ يبتسم حتى وقفت عليه ، فسلّمت عليه بالنبوة فردّ عليّ السلام بوجه طلق فقلت : إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، قال رسول الله ﷺ : « الحمد لله الذي هداك » ، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلاَّ إلى خير » . قلت : يا رسول الله أدع الله لي يغفر تلك المواطن التي كنت أشهدها عليك . فقال رسول الله ﷺ : « الإسلام يجبُّ ما كان قبله » . وتقدّم عثمان بن طلحة فبايع ، ثم تقدّم عمرو بن العاص . قال عمرو : ثم تقدّمتُ ، فوالله ما هو إلا أن جلست بين يديه ﷺ وما استطعت أن أرفع طرفي حياء منه ، فبايعته على أن يغفر لي ما تقدّم من ذنبي ولم يحضرني ما تأخر ، فقال : « الإسلام يجبّ ما كان قبله والهجرة تجبّ ما كان قبلها » .

ومن نوادر عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : لما قدمنا على رسول الله ﷺ ، وكنت أسن منهما ـ يعني خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة ـ فأردت أن أكيدهما فقدمتهما قبل للبيعة ، فبايعا واشترطا أن يغفر لهما ما تقدّم من ذنبهما ، فأضمرت في نفسي أن أبايع على أن يغفر لي ما تقدّم من ذنبي وما تأخّر ، فلما بايعت ذكرت ما تقدّم من ذنبي وأُنسيت أن

أقول : وما تأخّر . قال الحافظ بن حجر في « الإصابة » : وذكر الزبير بن بكار أن رجلاً قال لعمرو : وما أبطأ بك عن الإسلام وأنت ، أنت في عقلك ؟ قال : إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم ، وكانوا ممن يوازي خلوبهم الخبال ، فلما بُعِث النبي ﷺ أنكروا عليه فلذنا بهم ، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا وتدبرنا فإذا حقّ بيِّن ، فوقع في قلبي الإسلام ، فعرفتْ قريش ذلك مني من إبطائي عما كنت أسرع فيه من عونهم عليه ، فبعثوا إليّ فتى منهم فناظرني في ذلك ، فقلت : أنشدك الله ربّك وربَّ مَن قبلك ومَن بعدك أنحن أهدى أم فارس والروم ؟ قال : نحن أهدى . قلت : فنحن أوسع عيشاً أم هُمْ ؟ قال : هُمْ . قلت : فما ينفعنا عليهم إن لم يكن لنا فضل إلا في الدنيا وهم أعظم منا فيها أمراً في كلّ شيء . وقد وقع في نفسي أن الذي يقوله محمد من أن البعث بعد الموت ليجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته حقّ ، ولا خير في التمادي في الباطل .

وكانت سنّ عمرو بن العاص حين أسلم نحو الستين سنة . وكانت سن خالد بن الوليد نحو الثلاثين سنة يوم أسلم ، وهو أحد أشراف قريش ، كانت إليه أعنة الخيل في الجاهلية ، وشهد مع قريش كل الحروب التي أثارتها على رسول الله ﷺ ، وكانت هزيمة أُحُد التي وقعت على المسلمين منه بسبب قتله للرماة وتقفيته للجيش . فلما أسلم ولّاه رسول الله ﷺ أعنة الخيل وسمّاه (سيف الله) .

وأخرج الترمذي ، عن أبي هريرة ، قال : نزلنا مع رسول الله ﷺ منزلاً ، فجعل الناس يمرون فيقول رسول الله ﷺ : « مَن هذا ؟ » فأقول فلان ، حتى مَرّ خالد فقال : « مَن هذا ؟ » فقلت : خالد بن الوليد ، فقال : « نعم عبد الله هذا سيف من سيوف الله » . قال الحافظ : رجاله ثقات ، وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ بعد إسلامه ، وغزا مؤتة وغيرها . وفاز خالد في كل المواقف كما سيأتي . وأرسله أبو بكر في

خلافته إلى قتال أهل الردة ، فأبلى في قتالهم بلاء عظيماً ، ثم ولّاه حروب فارس والروم ، وافتتح الشام والعراق ، وكان أمير الجنود والقائد الأعظم في مدّة خلافة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه ، وكان موفقاً في كل غزواته وحروبه . فروى البخاري في تاريخه قال : خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته واعتذر من عزل خالد من إمارة الجنود ، فقال له أبو عمرو بن حفص بن المغيرة : عزلت عاملاً استعمله رسول الله ﷺ ووضعت لما رفعه رسول الله ﷺ ؟ فقال له عمر : انك قريب القرابة حديث السن مغضب لابن عمك . فلما عزل خالداً وولى أبا عبيدة بن الجراح قال خالد : بعث عليكم ـ يعني عمر ـ أمين هذه الأمة ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خالد سيف من سيوف الله نعم فتى العشيرة » . وكان خالد مع أبي عبيدة وهو قائد الخيل في عموم مواقفه ، وكان يقول : إني لم أقاتل لأجل أبي بكر وعمر وإنما أقاتل لتكون كلمة الله العليا .

هذا خالد بن الوليد المخزومي ابن عم أبي جهل ، قد كتب الله له السعادة ونال شرف الإسلام ، ورضاء ربه سبحانه وتعالى ، ورضاء رسول الله ﷺ ، ورضاء الإسلام والمسلمين . بخلاف أبي جهل الذي نال سخط الله ورسوله والمؤمنين إلى يوم الدين ، وكان عاقبة أمره خُسْراً ومقرّه الجحيم .

وأما عثمان بن طلحة الحجبي سادن الكعبة المشرفة فهو صاحب راية قريش ومن أشرافهم وسادتهم ، وسيأتي حديثه في فتح مكّة إن شاء الله تعالى . فهؤلاء الذين قال في حقهم رسول الله ﷺ لأصحابه : « رمتكم مكّة بأفلاذ كبدها » ، فهم بحَق أفلاذ كبد مكّة ، وسيظهر في سياق الكتاب من أعمالهم العظيمة أكثر مما ذكرته « ذلك فَضْل الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاء والله ذو الفَضْل العظيم » .

سرية ابن أبي العوجاء السَّلمي

بعث رسول الله ﷺ الأخرم بن أبي العوجاء السّلَمي رضي الله عنه ، في شهر ذي الحجة سنة سبع من الهجـرة ، في خمسين رَجُلًا إلى بني سُلَيْم ، فكان لهم جاسوس مع الصحابة فخرج إليهم وسبق السرية وحَذّر بني سُلَيْم ، فجمعـوا لهم جميعاً كثيـراً ، فجـاءوهم وهم معـدون لهـم ، فدعوهم إلى الإسلام فقالوا : أي حاجة لنا بما تدعونا إليه ، فتراموا بالنبل ساعة ، وجعلت الامداد تأتيهم ، وأحدقوا بالمسلمين من كل ناحية ، فقاتل المسلمون قتالاً شديداً حتى قُتِـل عامتهم ، وأُصيب الأخـرم جريحـاً مع القتلى ، ثُم تحامل حتى بلغ المدينة في أول صفر سنة ثمان من الهجرة وأتى رسول الله ﷺ .

سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني المُلَوِّح[1]

بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه في بضعة عشر رجلًا إلى المُلَوِّح بالكَدِيد[2] ، والكَدِيـد ماء بين الحـرمين ـ ومعنى الكديد الأرض الواسعة ـ وذلك في شهر صفر سنة ثمان من الهجرة ، وأمر رسول الله ﷺ غالباً وأصحابه أن يشنوا الغارة على القوم . فخـرج غالب وأصحابه حتى إذا كـانوا بكـديد لحِقـوا الحارث الليثي فـأسروه ، فقـال الحارث : إنما خرجت إلى رسول الله ﷺ أريد الإسلام . فقالوا له : إن كنت مُسْلِماً لم يضرك ربطنا لك يوماً وليلة وإن كنت غير ذلك استوثقنا .

---

(١) بضم الميم وفتح اللام وكسر الواو المشدودة ، قال ابن سعد : وهم من بني ليث .

(٢) بفتح الكاف وكسر الدال ، وقوله ما بين الحرمين هو أقرب إلى مكة فإنه على اثنين وأربعين ميلاً منها وفي الصحيح هو ماء بين عسفان وقديد .

فشدوه وثاقاً وخلفوا عنده سويد بن صخر وقالوا له : إن نازعك فاحتز رأسه . وساروا حتى أتوا محل القوم عند غروب الشمس فكمنوا في ناحية من الوادي ، قال جندب الجهني : أرسلني القوم جاسوساً لهم فخرجت حتى أتيت تلاً مشرفاً على الحاضر ـ وهم القوم المقيمون بمحلهم ـ فلما استويت على رأسه انبطحت عليه لأنظر إذ خرج رجل منهم فقال لامرأته : إني لأنظر على هذا الجبل سواداً ما رأيته قبل ، انظري إلى أوعيتك لا تكون الكلاب جرَّت منها شيئاً . فنظرت فقالت : والله ما فقدت من أوعيتي شيئاً . فقال : ناوليني قوسي ونبلي . فناولته قوسه وسهمين ، فأرسل سهماً ، فوالله ما أخطأ بين عيني فانتزعته وثبتُّ مكاني ، فأرسل آخر فوضعه في منكبي فانتزعته وثبت مكاني ، فقال لامرأته : والله لو كان جاسوساً لتحرَّك . لقد خالطه سهمان لا أبا لك ، فإذا أصبحت فانظريهما لا تمضغهما الكلاب . ثم دخل فلما اطمأنوا وناموا شننا عليهم الغارة واستقنا النعم والشاء بعد أن قتلنا المقاتلة وسبينا الذرية ومررنا على الحارث الليثي فاحتملناه والذي يحرسه ، فخرج صريخ القوم في قومهم فجاء ما لا قبل لنا به ، فصار بيننا وبينهم الوادي ، فأرسل الله سحاباً فأمطر الوادي مطراً ما رأينا مثله ، فسال الوادي بحيث لا يستطيع أحد أن يجوز به فصاروا وقوفاً ينظرون إلينا ونحن متوجهون إلى أن قدمنا المدينة .

سرية غالب الليثي
إلى مصاب أصحاب بشير الأنصاري

أراد رسول الله ﷺ أن يبعث الزبير بن العوام رضي الله عنه إلى بني مرة بفدك الذين أصابوا أصحاب بشير بن سعد الأنصاري رضي الله عنه وقتلوهم ، فلما قدم غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه من الكديد مؤيَداً منصوراً بعثه ﷺ بدل الزبير وقال للزبير : اجلس ، وبعث معه مائتي

رجل فيهم أسامة بن زيد ، وعلية بن زيد ، وأبو مسعود عتبة بن عمرو ، وكعب بن عجوة ، وحويصة بن مسعود ، وأبو سعيد الخدري ، وعقد له لواء . فسار غالب في شهر صفر سنة ثمان من الهجرة ، حتى دنا من القوم ليلاً قام في جيشه خطيباً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله تعالى وحده لا شريك له وأن تطيعوني ولا تخالفوا لي أمراً فإنه لا رأي لمن لا يُطاع ، ولا تعصوني فإن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ يطع أميري فقد أطاعني ومَنْ عصاه فقد عصاني » ، وانكم متى تعصوني تعصوا نبيكم ﷺ . ثم ألّف بين القوم فقال : يا فلان أنت وفلان ، ويا فلان أنت وفلان ، لا يفارق رَجُل منكم زميله ، فإياكم أن يرجع الرَجُل منكم فأقول أين صاحبك فيقول لا أدري ، فإذا كبّرت فكبِّروا . فلما أحاطوا بالقوم ، كبّر غالب رضي الله عنه ، وكبّروا معه وجرَّدوا السيوف . فخرج الرجال فقاتلوا ، ووضع المسلمون فيهم السيف وكان شعارهم : أمت ، أمت . وساق المسلمون النعم والشاء والذرية ، فكان سهم كل رجل عشرة أبعرة[1] . وقد وفّق الله سبحانه وتعالى غالب الليثي بأخذ ثأر أصحاب بشير بن سعد الأنصاري وانتقم من أهل فدك شر نقمة . فهكذا يكون أخذ الثأر بالصبر والحكمة ، فإن رسول الله ﷺ لم يعاجلهم بأخذ الثأر لأنهم بعد فعلتهم تلك كانوا على حذر ، فتركهم حتى أطمأنت نفوسهم أرسل إليهم غالب الليثي ، وفي أخذ الثأر فوائد جمّة ، منها تقوية السلطان ، وتطييب خاطر المصابين ، وردع للعصاة وغير ذلك ، فمتى وجدت الهيبة في نفوس الأعداء خضعوا واستسلموا للسلطان ، وسلم السلطان من تمردهم وبغيهم وثورتهم ، ومتى زالت الهيبة من نفوسهم تطاولوا على السلطان ، وعبثوا بالأمن ، وأخلّوا بالراحة ، حيث تلك سنة شرار الخلق ، فلا يصلحهم إلا

(١) أو عدلها من الغنم لكل بعير عشرة .

السيف ، لأنهم لا يعرفون لغة غير لغته ، وذلك لأن الناس على مذاهب ومشارب شتى ، فمنهم من يصلحه الكلم الطيب وتأثيره فيهم أعظم من تأثير السيف ، ومنهم من لا يصلحه غير السيف ، وهـذا أمر طبيعي في الشر .

سرية شجاع بن وهب الأسدي
إلى بني عامر

بعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب الأسدي رضي الله عنه إلى بني عـامر (بـالسئِي[1]) وهو مـاء من ذات عرق إلى (وجـرة)[2] ، ناحيـة (ركبة) من وراء المعدن على ثلاثة مراحل من مكـة إلى طريق البصـرة وخمسة مراحل من المدينة . و (ركبة) واقعة شرق مكة بشمال ، وواقعة جنوب المدينة المنورة ، وهي أرض واسعة لا جبل فيها ولا علم ، ويبلغ طولها نحو ١٥٠ ميلاً ، وعرضها مثل ذلك ، وكان يقام في طرفها الغربي سوق عكاظ ، وفي طرفها آبار كثيرة ، وهي مرعى لهوازن (عتيبة) إذا نزل عليها المطر بغزارة ، وهي على طريق العـراق الذي عمله العبـاسيون ، ويسلكه أغلب سكان نجد حين يأتون للحج ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثمان من الهجرة ، ومعه أربعة وعشرون رجلاً إلى جمع من هوازن ـ عتيبة ـ وأمره أن يغير عليهم ، فكان يسير الليل ويكمن النهار حتى صبحهم وهم غافلون ، وقد نهى أصحابه أن يمنعوا في الطلب وذلك لأنهم قليلون وأعداؤهم لا يحصون عدداً ، وهذا يُعَدّ من أعظم سياسة القوّاد ، إذ أنهم

---

(١) بكسر السين ثم همزة ممـدودة كذا ضبـطه البرهـان وتبعه الشـامي ، والذي في الصحاح وغيره أنه بالكسر وتشديد الياء ، وكذا ضبطه أبو عبيد البكري .

(٢) قال البكري وزعم أن وجرة ماء لبني سليم على ثلاثة مراحل من مكة .

لو أمعنوا في الطلب لتمزقوا شر ممزق ، فأصابوا نعماً وشاء واستاقوا ذلك حتى قدموا المدينة ، وكانت غيبتهم خمس عشرة ليلة ، واقتسموا الغنيمة ، وكان سهم كل رجل خمسة عشر بعيراً ، وعدل البعير بشعرة من الغنم .

سرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات الأطلاح

بعث رسول الله ﷺ كعب بن عُمَير الغِفَاري رضي الله عنه إلى (ذات أطلاح) ، من أرض الشام وراء ذات القرى ، في ربيع الأول سنة ثمان من الهجرة في خمسة عشر رجُلًا ، فوجدوا جمعاً كثيراً ، وكان للقوم سابر فأخبرهم بقلّة المسلمين ، فلما دنا كعب منهم دعاهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا ، ورشقوهم بالنبل ، فقاتلهم المسلمون أشد القتال حتى قُتِلوا عن آخرهم إلا كعب بن عمير فإنه أفلت منهم ، فلما جن عليه الليل تحامل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر ، فشقّ ذلك عليه وهَمّ بالبعث إليهم فبلغه أنهم ساروا إلى محل آخر فتركهم . وما أشبه هذه الحادثة بحادثة بشير ابن سعدي الأنصاري .

سرية مؤتة(١)

وهي قرية من قرى البلقاء بأرض الشام من أعمال الكرك وعلى بُعد مرحلتين من بيت المقدس . ونقل ياقوت الحموي ، عن المهلب ، أنه

---

(١) سماها البخاري وابن اسحاق غزوة مؤتة ، وفي بعض الروايات تسميتها غزوة جيش الأمراء لكثرة جيش المسلمين فيها وما لا قوة من شدة الحرب مع الكفار وما هنا سرية لأنها طائفة من جيشه ﷺ بعثها ولم يخرج معها . وفي الروض : مؤتة مهموز الواو ، قرية من أرض البلقاء بالشام . وأما الموتة بلا همز فهي ضرب من الجنون .

قال : (مآب) و (أذْرُح) مدينتا الشراة على اثني عشر ميلاً من أذرح ضيعة تُعرف (بمؤتة) . وسبب ذلك أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي ، أحد بني لهب رضي الله عنه ، إلى ملك بُصْرى[1] بكتاب ، فلما نزل مؤتة عرض له شُرَحْبيل بن عمرو الغساني ، وهو من أمراء قيصر على الشام ، فقال : أين تريد ؟ قال : الشام . قال : لعلك من رُسُلِ محمد ؟ قال : نعم ، أنا رسول رسول الله ﷺ . فأمر به فأوثق ربطاً ، ثُم قدمه فضربت عنقه صبراً ، ولم يُقْتَل لرسول الله ﷺ رسول غيره . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه الأمر ، فندب الناس لذلك ، وتجهّز الجيش وعسكر في الجرف[2] ، وهم ثلاثة آلاف ، فأمرّ عليهم زيد بن حارثة رضي الله عنه ، وقال رسول الله ﷺ للجيش : « إنْ قُتِل زيد فأميركم جعفر » ، فوثب جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ما كنتُ أرهب أن تستعمل عليّ زيداً . فقال رسول الله ﷺ : « فإنك لا تدري أي ذلك خير » . ثم قال : « فإن قُتِلَ جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس ، فإن قُتِلَ فليرتض المسلمون برجلٍ منهم فليجعلوه عليهم » . وعقد لهم لواء أبيض ودفعه لزيد بن حارثة ، وأوصاهم أن يأتوا مَقْتَل الحارث بن عمير ويدعوا من هناك إلى الإسلام فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله تبارك وتعالى وقاتلوهم .

فخرج الجيش في شهر جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة ، وخرج رسول الله ﷺ وأصحابه معه مودعاً لهم ومشيعاً حتى بلغ ثنية الوداع ، فوقف فقال لهم : « أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً ، أغزوا باسم الله ، قاتلوا عدوّ الله وعدوّكم بالشام وستجدون رجالاً في

---

(١) أي أميرها من قبل هرقل وهو الحارث بن أبي شمر الغساني .

(٢) بضم الجيم والراء وسكونها وروي بمعجمتين على ثلاثة أميال من المدينة لجهة الشام .

صوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ، ولا تقتلوا امرأة ولا صغيراً ولا كبيراً فانياً ، ولا تقطعوا شجرة ، ولا تهدموا بناء » . وقال المسلمون لهم : دفع الله عنكم وردَّكم غانمين . وودَّع الناس أمراء رسول الله ﷺ عليهم ، فلما ودّع عبد الله بن رواحة مع من ودّع من أمراء رسول الله ﷺ بكى ، فقالوا : ما يبكيك يا ابن رواحة ؟ قال : أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله عز وجل يذكر فيها النار : « وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً » فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود ، ثم أنشد :

لكنّي أسألُ الرحمنَ مَغفرةً ... وضربةً ذات فَرْع[1] تقذِفُ الزّبدا
أو طعنةً بيدَيْ حَرّانَ مُجهِزةً ... بحربةٍ تنفُذُ الأحشاءَ والكَبِدَ
حتى يُقالَ إذا مَرّوا على جَدَثِي ... أرشَدَ اللّهُ من غازٍ وقد رَشَدَا

ثم أتى عبد الله بن رواحة رضي الله عنه رسول الله ﷺ فودّعه وقال :

فثبّت الله ما آتاك من حَسَنٍ ... تثبيتَ موسى ونصراً كالذي نُصِروا
إني تفرّستُ فيك الخيرَ نافلةً ... فراسةً خالفت فيك الذي نظروا
أنت الرسول فمن يُحْرمْ نوافلَه ... والوجهْ منه فقد أزْرَى به القدرُ

فلما توجه القوم وانصرف عنهم المودِّعون ، قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه :

خَلَف السلامُ على امرئٍ ودّعته ... في النخل خَيْرَ مشيع وخليْلِ

ثم مضوا حتى نزلوا (معان)[2] ، من أرض الشام ، فبلغ الناس أن

---

(١) بفتح الفاء وسكون الراء المهملة وبعدها عين معجمة أي واسعة يسيل دمها .
(٢) بفتح الميم وذكره البكري بضم الميم وقال هو اسم جبل .

هرقل قد نزل (مآب)[1] ، من أرض البلقاء ، في مائة ألف من الروم ، وانضم إليهم من لَخمْ ، وجُـذَام ، والقَيْن ، وبَهراء ، وبلي ، مـائة ألف عليهم رجل من (بلي) من بني راشد يقال له مالك بن رافلة ، فلما بلغ المسلمين ذلك أقاموا على (معان) ليلتين يفكرون في أمرهم ، وقالوا : نكتب لرسول ﷺ فنخبره بعدَدَ عدوّنا ، فإمّا أن يمدنا بالرجال وإمّا أن يأمرنا بأمره فنمضي له . فشجع الناس عبد الله بن رواحة ، وقال : يا قوم والله إن التي تكرهون لِلتي خرجتم لها تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدَد ، ولا قـوّة ، ولا كثرة ، ولا نقـاتلهم إلا بهذا الـدين الذي أكـرمنا الله بـه فانطلقوا ، فإنمـا هي إحدى الحسنيين : إمـا ظهور وإمـا شهادة . فقـال الناس : قد والله صدق ابن رواحة . فمضى النـاس ، فقال عبـد الله بن رواحة في محبسهم ذلك :

جَلَبْنـا الخيـل من أجَـا وفـرع ... تُقَـرّ[2] من الحشيش لهـا العُكُـومُ
حـذونـاهـا من الصَـوّان سِبْتـاً ... أزلّ كـأنّ صـفْـحـتـه أديـمُ
أقـامَتْ لـيلتـيـن عـلى مَـعـانٍ ... فـأعْقَبَ بعـد فتـرتـهـا جُمُـومُ
فَـرُحْنـا والجيـادُ مُـسَـوّمـات ... تُنَفّس في مَنـاخـرهـا الـسّمـومُ
فـلا وأبِ مـآبَ لـنَـأتِـيَـنْهـا ... وإن كـانـت بـهـا عـربٌ وروُمُ
فـعَبّـأنـا أعِـنّتـهـا فَجَـاءَتْ ... عَـوابِسَ والـغُبـارُ لـهـا بَـريـمُ

فمضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل من

---

(١) مآب : قبيلة تنسب إلى لخم بن عدي بن الحارث بن مرة بن أزد ، وجذام قبيلة تنسب إلى جذام بن عدي أخي لخم ، والقين بالقاف وبهراء بفتح الباء وبلي على وزن علي ؛ الثلاثة بطون من قضاعة .

(٢) تقر أي تجمع بعضها إلى بعض ، والعكوم جمع عكم : البريم ؛ خيط تحتزم به المرأة ، وأيضاً لفيف الناس وأخلاطهم ، وقوله حذوناها نعالاً من حديد جعله سبتاً لها ومجازاً ، وصوان من الصون أي يصون حوافرها .

الروم والعرب بقرية من قُرى البلقاء يقال لها (مشارف) . قال أبو هريرة رضي الله عنه : شهدت مؤتة ، فلما دنا العدوّ منا رأينا ما لا قِبَل لأحد به من العدَدَ ، والسلاح ، والكُرَاع[1] ، والديباج ، والحرير ، والذهب ، فبرق[2] بَصَري ، فقال لي ثابت بن أقرم : يا أبا هريرة كأنك ترى جموعاً كثيرة ؟ فقلت : نعم ، قال : أنك لم تشْهَد معنا بَدْراً ، إنا لم نُنصر بالكثرة . وانحاز المسلمون إلى قرية (مؤتة) ، فالتقى الناس عندها ، فتعبَّأ لهم المسلمون ، فجعلوا على ميمنتهم قطبة بن قتادة العذري ، وعلى ميسرتهم عبادة بن مالك الأنصاري ، ثم التقى الناس واقتتلوا ، فقاتل زيد بن حارثة رضي الله عنه براية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح العدو ، فقُتِل رضي الله عنه . فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، ذلك الغضنفر ، فقاتل بها حتى ألحمه القتال ، فاقتحم عن فرس له شقراء فعقرها[3] كي لا يغتنمها العدو ، ولا يطمع في الهزيمة ، ولم يكن أحد قبله من المسلمين عقر فرساً في القتال ، فأخذ الراية بيده اليمنى وناطح العدو وهو يقول :

يا حَبَّذا الجَنَّةُ واقترابُهَا طيبةً وبارداً شرابُهَا
والرومُ رومٌ قد دنا عذابُهَا كافرة بعيدة أنسابها
عليّ إذ لاقيتها ضِرابُهَا

---

(١) بضم الكاف : جماعة الخيل خاصة .
(٢) برق البصر دهش فلم يبصر وتحير فلم يطرف .
(٣) قال السهيلي : ولم يعب عليه أحد فدل على جوازه إذا خيف أن يأخذها العدو فيقاتل عليها المسلمين ، فلم يدخل هذا في النهي عن تعذيب البهائم وقتلها عبثاً ، غير أن أبا داود قال : ليس هذا الحديث بالقوي وقد جاء فيه نهي كثير عن الصحابة ا هـ. وفي المواهب : وكأنه يريد ليس بصحيح وإلا فهو حسن كما جزم به الحافظ .

فاقتتل مع العدو فقُطعت يمينه ، فأخذها بشماله ، فقُطعت شماله ، فاحتضنها بعضديه حتى قُتِل رضي الله عنه ، ذلك البطل العظيم وهو ابن ثلاث[1] وثلاثين سنة ، وبه بضع وتسعون من طعنة برمح أو ضربة بسيف أو رمية بسهم ، كما رواه البخاري وأصحاب السنن والسير ، ولم تكن منها واحدة في قفاه ، وهذا مما يدل على إقدامه الباهر ! وشجاعته العظيمة وبسالته الفائقة . هذا جعفر بن أبي طالب الذي قد قضى عشر سنين في بلاد الحبشة ، ولم يحضر منها إلا في فتح خيبر ، ولم يمارس الحروب في حومات الوغى ، ويُعَدّ موقفه هذا هو الأول والأخر في بابه ، فقد برهن في هذا الموقف على شدة بأسه وعظيم جرأته وثبات جأشه ، حيث لم يترك شيئاً من صفات الشجاعة إلا وقد أتى بها في هذا الموقف ، وقد عاجله المنون وكتبت له الشهادة وتسجل في صحف أعاظم الأبطال ، فرحمه الله تعالى ورضي الله عنه .

فلما قُتِل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه أخذ الراية عبد الله بن رواحة الأنصاري رضي الله عنه ، ثم تقدّم بها وهو على فرسه يقول :

يـا نَفْسُ إنْ لا تُقْتَلي تـمـوتـي ... هـذا حِمَام[2] المـوت قـد صَلِيتِ
ومـا تـمـنيت فـقـد أُعْـطِيتِ ... إنْ تَـفْـعـلي فـعلهـمـا هُـدِيـتِ

(يريد بقوله إن تفعلي فعلهما هُديتِ ، يعني زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب) ، ثم نزل ، فأتاه ابن عمه بعَرَق اللحم فقال : « شُدّ بهـذا

---

(١) وقال اليعمري أو أربع وثلاثين سنة . وفي الإصابة كان أسن من علي بعشر سنين فاستوفى أربعين سنة وزاد عليها على الصحيح . وجزم ابن عبد البر بأن سنه كان إحدى وأربعين سنة .

(٢) أي قدرة . وحم الأمر : قدر . وقوله : صليت : قد دخلت فيه .

صُلْبك فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت » . فأخذه من يديه ، ثم انْتَهَس منه نَهْسَةً ، ثم سمع الحُطَمَة في ناحية الناس ، ثم قال لنفسه : وأنت في الدنيا ، ثم ألقاه من يده وأخذ سيفه فتقدّم فقاتل حتى قُتِل رضي الله عنه سعيداً . فأخذ الراية ثابت بن أقرم العجلاني فقال : يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم . قالوا : أنت . قال : ما أنا بفاعل . فاصطلح الناس على خالد بن الوليد رضي الله عنه ، فأخذ خالد الراية فقاتل العدوّ بقية يومه ، ثم لما أصبح في اليوم الثاني جعل مقدمة الجيش ساقته ، وساقته مقدمته ، وميمنته ميسرته ، وميسرته ميمنته . واشتبك القتال ، فظن العدو أنه جاء المسلمين مدد ، وقاتل في ذلك اليوم المسلمون قتالاً شديداً ، وقاتل خالد بن الوليد رضي الله عنه قتالاً شديداً حتى اندقت في يده يوم مؤتة تسعة أسياف ، وما ثبت في يده إلا صفيحة[1] يمانية (رواه البخاري) ، فهزم المشركين[2] ، وانحاز خالد بن الوليد رضي الله عنه بالمسلمين ولم يتبع العدو لكثرة عدده ، ورجع بالمسلمين وبما حازه من سلب من قتل من العدو ، ودفن الأمراء الثلاثة زيداً ، وجعفراً ، وعبد الله بن رواحة ، في حفرة واحدة . ثم في رجوعه مَرّ على قرية بها حصن ، وكان أهل الحصن قَتَلوا رجُلاً من المسلمين في ذهابهم ،

---

(١) صفيحة : هي العريضة من السيوف . وقوله يمانية بتخفيف الياء وحكي شدها .

(٢) روى أحمد ومسلم وأبو داود عن عوب بن مالك أن رجلاً من أهل اليمن رافقه فقتل رومياً ، وأخذ سلبه فاستكثره خالد فشكاه إلى رسول الله ﷺ ، فكان ذلك دليلاً على أن ذلك كان بعد تولي خالد الإمارة ، كما أنه يرجح أنه لم يقتصر على حوز المسلمين والنجاة بهم بل باشر القتال . قال الشهاب عن الحاكم : قاتلهم خالد بن الوليد فقتل منهم مقتلة عظيمة وأصاب غنيمة . قال العلامة الزرقاني : وفي هذا عناية من الله تعالى بالإسلام ومزيد إعزاز ونصر لهم ، إذ جيش عدته ثلاثة آلاف يلقون أكثر من مائتي ألف فلا يقتل منهم إلا ثلاثة عشر مع أنهم اقتتلوا مع المشركين سبعة أيام .

فحاصرهم خالد حتى فتح الله عليهم عنوة وقتل مقاتلتهم ، فسمِّي ذلك المكان (نقيع الدم) .

روى البخاري عن أَنس ، أن النبي ﷺ نَعى زيداً ، وجعفر ، وابن أبي رواحة ، للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب ، وعيناه تذرفان ، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » . وفي حديث أبي قتادة : ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء وهو أمير نفسه ، ثم قال رسول الله ﷺ : « اللهم انه سيف من سيوفك فأنت تنصره » . فمن يومئذ سمِّي خالد سيف الله ، كذا في (فتح الباري) . وفي (زاد المعاد) للحافظ ابن القيم قال رسول الله ﷺ : « مُثِّل لي جعفر ، وزيد ، وابن رواحة ، في خيمة من دُرّ ، كل واحد منهم على سرير ، فرأيت زيداً وابن رواحة في أعناقهما صدود ، ورأيت جعفر مستقيماً ليس فيه صدد ، قال فسألت أو قيل لي أنهما حين غشيهما الموت عرضاً أو كأنهما صدّاً بوجوههما ، وأما جعفر فإنه لم يفعل » . وقال رسول الله ﷺ في جعفر : « إن الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء » . وقال موسى بن عقبة : قدم يعلى بن منبه على رسول الله ﷺ بخبر أهل مؤتة ، فقال له رسول الله ﷺ : « إن شئت فأخبرني وإن شئت أخبرتك ؟ » . قال : أخبرني يا رسول الله : فأخبره ﷺ خبرهم كله ووصفهم له . فقال : والذي بعثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفاً واحداً لم تذكره ، وإنّ أمرهم لكما ذكرت . فقال رسول الله ﷺ : « إن الله رفع لي الأرض حتى رأيت معتركهم » .

فلما أقبل الجيش ، راجعاً إلى المدينة ، تلقّاهم رسول الله ﷺ والمسلمون ، ولقيهم الصبيان يشتدون ورسول الله ﷺ مع القوم على دابة فقال : « خذوا الصبيان فاحملوهم ، واعطوني ابن جعفر » . فأُتي بعبد الله

فأخذه فحمله بين يديه . وكان شاع في المدينة أن الجيش فَرّ من لقاء العدو فجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون : يا فُرّار ، فررتم من سبيل الله ، فيقول رسول الله ﷺ : « ليسوا بالفُرّار ولكنهم الكُرّار إن شاء[1] الله تعالى » .

غنائم مؤتة

روى ابن إسحاق ، ومحمد بن عمر ، والحاكم في (الإكليل) عن جابر رضي الله عنه قال : غنم المسلمون بعض أمتعة المشركين ، وكان فيما غنموا خاتم جاء به رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : قتلت صاحبه يومئذ ، فنقله رسول الله ﷺ إياه . وروى محمد بن عمر ، عن خزيمة بن ثابت رضي الله عنه ، قال : حضرت مؤتة ، فبادرني رجل منهم يومئذ فأصبته وعليه بيضة له فيها ياقوتة ، فلم يكن همي إلا الياقوتة فأخذتها ، فلما رجعنا إلى المدينة أتيت بها رسول الله ﷺ فنفلنيها ، فبعتها زمن عثمان رضي الله عنه بمائة دينار فاشتريت بها حديقة نخل . قال في (البداية) : وهذا يقتضي أنهم غنموا منهم وسلبوا من أشرافهم وقتلوا من أمرائهم . عن سبيل الهدى والرشاد (السيرة الشامية) .

أسماء من استشهد بمؤتة

كتب الله الشهادة والسعادة والعلو في الجنة للمهاجرين والأنصار رضي الله عنهم أجمعين ، فمن المهاجرين : (١) جعفر بن طالب ، (٢) زيد بن حارثة ، (٣) مسعود بن الأسود بن حارثة العدوي ، (٤) وهب بن

---

(١) أتى بها امتثالاً لأمر الله تعالى في قوله : ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله ﴾ . ولفظ ابن اسحاق ولكنهم العكارون أي الكرارون .

سعد بن أبي السرح . ومن الأنصار : (٥) عبد الله بن رواحة الأنصاري الخزرجي ، (٦) عبادة بن قيس الخزرجي الأنصاري ، (٧) الحارث بن النعمان بن أساف النجاري الأنصاري ، (٨) سراقة بن عمرو بن عطية بن خنساء النجاري الأنصاري ، (٩) أبو كليب بن عمرو بن زيد النجاري الأنصاري . (١٠) أخوه جابر بن عمرو الأنصاري ، (١١) عمرو بن سعد بن الحارث الأنصاري (١٢) عامر بن سعد بن الحارث الأنصاري .

فهؤلاء إثنا عشر رجلاً الذين أحصيت أسماؤهم من قتلى يوم مؤتة من المهاجرين والأنصار[1] ، فأحصاهم إجمالاً ابن إسحاق وابن هشام ونقل عدتهم بالأسماء الحافظ ابن القيم في (زاد المعاد) . وفي هذه الوقعة اقتتل ثلاثة آلاف من المسلمين مع مائتي ألف من الروم والعرب المتنصرة من بادية الشمال ، دامت سبعة أيام وحمى فيها الوطيس واشتد القتال بصفة هائلة ، ولم يُقْتَل من المسلمين فيها سوى الثلاثة الأمراء ، وتسعة من أفراد الجيش ، ولم يعلم مقدار ما قُتِل من العدو مقابل الإثني عشر شهيداً ، ومقابل ما حصدتهم سيوف خالد بن الوليد التسعة التي تكسرت واندقت في أعناق الأعداء ، ومقابل ما قتل زيد بن حارثة ذلك البطل الذي عرف في مواقفه السالفة من شدة بطشه بالعدو ، ومقابل ما قتَل جعفر بن أبي طالب ، ذلك البطل العظيم الذي أدهش الناس يوم مؤتة حين ترجل عن فرسه وعقره وأخذ يسحق بسيفه رقاب الروم ، حتى طُعِن وضُرِب ببضع وتسعين سيفاً ورمحاً في صدره وقُطِعَتْ يداه ، وذلك الأنصاري عبد الله بن رواحة الذي جالَ جولاته براية رسول الله ﷺ وأخذ يسيف العدو بسيفه ، ثم ماذا عمل جيش المسلمين حينما فاز على المشركين والمتنصرة وهزمهم في اليوم

---

(١) وزاد ابن الكلبي والبلاذري هوبجة بفتح الهاء وسكون الواو وفتح الموحدة والجيم وتاء تأنيث الضبي ، وأنه لما قتل فقد جسده .

الأخير ، وأخذ يضرب بسيفه ، ويقذف برمحه ، وينبل بقوسه في أعقابهم . فمن كان يظن أن جيشاً عدد رجاله ثلاثة آلاف يهزم مائتي ألف في عدده وعدته وخيله وسلاحه وعظمته وغروره بنفسه ؟ أكان يظن أحد من أفراد ذلك الجيش الإسلامي أن يعود إلى المدينة سالماً من ذلك العدو المتلبد أمامه تلبد السُحُب ؟ ولكن من ينظر بنظر الحقيقة المجردة عن الهوى والإلحاد ويكون على علم بقواعد العرب القدماء في حروبهم ، فيعلم أولاً أن حزب الله تعالى هم الغالبون ، لأن الغرض الوحيد والهدف المقصود عند كل فرد من أفراد المؤمنين هو الشهادة في سبيل الله ، فتجد الرجل منهم لا يزال مهاجماً حتى يظفر بخصمه أو يموت شهيداً ، وذلك بخلاف خصمه ، فإنه لا يقاتل إلّا لنزعة جاهلية ، أو لعصبية قومية ، أو يكون مساقاً إلى القتال بقوة قاهرة ، فطبعاً لا يستطيع هذا أن يقابل ذاك في حومة الوغى . ثانياً : كان الحرب إما بالسيف ، أو الرمح ، أو القوس ، فكثرة العدد في تلك الحروب لا تجدي نفعاً ، فإذا تأملت ذلك الموقف تعلم أن الثلاثة الآلاف لم يقابلهم إلا مثلهم في العدد ، أو على الأكثر ضعفهم ، وباقي الجيش العظيم يظل بعيداً مكدساً خلف بعضه بعضاً فلا يمكنه أن يجول في حومة الوغى أو يصول في ميدان القتال ، لأن كثرته أصبحت حيلولة بينه وبين من يقفصد قتاله ، ثالثاً : إن قتال العرب القدماء هو على حسب فروسية كل فرد منهم وقوة شجاعته وإقدامه وشدة بأسه . وقد تواتر في التاريخ عن أفراد من العرب امتازوا على كثير من غيرهم ، جاهلية وإسلاماً ، بالفروسية ، فكان الرجل منهم يقف في ميدان القتال ويطلب البراز فلا يجد من يُبارزه . ومن الجهل والغباوة والحماقة أن تقاس تلك الحروب التي عدتها السيف والرمح والقوس ، بالحروب العصرية التي عدتها الطيارات والمدافع الضخمة والرشاشات والغازات الخانقة وغير ذلك ، لأن عمدة أولئك المتقدمين على مهارة القائد ، وبسالة الفارس ،

وشجاعة الأبطال ، وعمدة المتأخرين على الفنّ . ولكل أمّة ، وعصر ، أسلوب معلوم في الحرب لا يجهله إلا قاصر العقل والإدراك والإطلاع على تاريخ الأمم . فلهذا كان الفوز للمؤمنين على الكافرين ، والسرّ في ذلك هو قُوّةُ الإيمان ونصرة الله تعالى لعبادة المتقين الذين يُقاتلون لإعلاء كلمته ، وما النصر إلا من عند الله العلي العظيم .

ولا شك أن هذه الوقعة معجزة لرسول الله ﷺ ولأهل الإيمان المخلصين في كل أعمالهم لله تعالى . فلو كان المسلمون اليوم على هذا اليقين لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الإضطهاد والتأخر في الدِين والدنيا والوطن والرابطة والإجتماع ، حيث أنهم أصبحوا أشد بلاء على أنفسهم من عدوّهم ، وهم الذين مَهّدوا السبيل لعدوّهم على أنفسهم بخذلان بعضهم لبعض ، وبتفككهم من الرابطة الدينية والدنيوية والوطنية والإجتماعية . فلا حول ولا قوّة إلا بالله ، ألْهمهم الله رُشْدَهم .

سرية عمرو بن العاص
إلى ذات السلاسل

ذات السلاسل ، هي وراء وادي القُرى ، شمال المدينة ، وبينها وبين المدينة عشرة أيام بحسب سير القوافل عن نحو مائتين وخمسة وسبعين ميلاً ، وسبب ذلك أنه بلغ رسول الله ﷺ أن جمعاً من قضاعة قد تجمعوا يريدون أن يدنوا إلى أطراف المدينة ، فدعا رسول الله ﷺ عمرو بن العاص رضي الله عنه ، فعقد له لواء أبيض وجعل معه راية سوداء وبعثه في ثلاثمائة من سَراة[١] المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرساً ، وأمره أن يستعين بمن يمر به من بلي ، وعُذْرة ، وبلقيس[٢] ، وذلك أن عمراً كان ذا

(١) جمع سرى : وهو النفيس الشرف ، وقيل السخي ذو مروءة ، قاله ابن الأثير .
(٢) وبلقيس .

رحم فيهم ، كانت أمّ العاص بن وائل بلوية فأراد رسول الله ﷺ أن يتألّفهم بعمرو . فخرج عمرو في جمادي الآخرة سنة ثمان من الهجرة ، فسار الليل وكمن النهار ، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعاً كثيراً ، فبعث عمرو رافعَ بن مِكِيث الجهني إلى رسول الله ﷺ يستمدّه بالرجال ، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه في مائتي رجل ، وعقد له لواء ، وبعث معه سراة المهاجرين كأبي بكر الصدّيق ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما وعدة من الأنصار رضي الله عنهم أجمعين ، وأمر رسول الله ﷺ أبا عبيدة أن يلحق بعمرو بن العاص وأن يكون جمعاً ولا يختلفا . فلما لحق به أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس ، فقال عمرو : إنما قدمت عليّ مَدَداً وأنا الأمير . فقال المهاجرون : كلا ، بل أنت أمير أصحابك وهو أمير أصحابه . فقال عمرو : لا ، بل أنتم مَدَدٌ لنا . فلما رأى أبو عبيدة الإختلاف ، وكان رجُلاً ليّناً حسن الخلق ليّن الشّيمة سهلاً هيناً لا يهمّه من أمر الدنيا شيء وغرضه الوحيد أمْر رسول الله ﷺ وما عهد به إليه ، فقال : تنظرن يا عمرو ، وتعلمن أن آخر شيء عهد إليّ رسول الله ﷺ أن قال : « إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا » ، وإنك والله إن عصيتني لأطيعنك . قال عمرو : فإني الأمير عليك وأنت مَدَدي . قال أبو عبيدة : فدونك . قال ، فانطلق المغيرة بن شعبة إلى أبي عبيدة فقال : إن رسول الله ﷺ قد استعملك علينا وان ابن فلان قد اتبع أمر قوم ليس لك معه أمر ، فقال أبو عبيدة رضي الله عنه : إن رسول الله ﷺ أمرنا أن نتطاوع ، فأنا أطيع رسول الله ﷺ ، وإن عصاه عمرو ، فأطاع أبو عبيدة عمراً ، فكان عمرو بن العاص يصلي بالناس وصار معه خمسمائة ، فسار حتى نزل قريباً منهم وهم شاتون ، فجمع أصحابه الحطب يريدون أن يصطلوا وهم بأرض باردة فمنعهم ، وسار حتى وطىء بلاد قضاعة ، فدوخها حتى أتى إلى أقصى بلادهم ، ولقي في آخر ذلك جمعاً ليسوا بالكثير فاقتتلوا ساعة ، وحمل

المسلمون عليهم فهزموهم وتفرقوا ، ودوخ عمرو ما هنالك ، وأقام أياماً لا يسمع لهم بجمع ولا مكان صاروا فيه ، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنعم ، فكانوا ينحرون ويأكلون ، ولم يكن أكثر من ذلك ولم يكن في ذلك غنائم تقسم .

وقع بين عمرو بن العاص وبين كبار الصحابة رضي الله عنهم خلاف في ثلاث مسائل ، الأولى : أراد المسلمون أن يتتبعوا فلول المشركين المنهزمين فمنعهم عمرو ، الثانية : أرادوا أن يوقدوا ناراً ليصطلوا عليها من البرد فمنعهم عمرو وقال : مَنْ أوقد ناراً قذفته فيها . فشقّ ذلك عليهم لما فيه من شدّة البرد ، فكلّمه بعض سراة المهاجرين في ذلك فغلظ عليهم عمرو في القول ، وقال له : قد أمرت أن تسمع لي وتطيع . قال : نعم . قال : فافعل . يعني أطع . ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه غضب وهَمّ أن يأتيه فمنعه أبو بكر رضي الله عنه وقال : إن رسول الله ﷺ لم يستعمله إلا لعلمه بالحرب . فسكت . والثالث : احتلم عمرو بن العاص وكانت تلك الليلة شديدة البرد جداً ، فقال لأصحابه : ما ترون ، قد والله احتلمت فإن اغتسلت مت . فدعا بماء فغسل فرجه وتوضأ ثم قام وصلى بالناس . هذه هي الثلاثة المسائل التي وقع فيها الخلاف .

ثم بعث عمرو بن العاص عوف بن مالك الأشجعي مبشراً لرسول الله ﷺ بقدومهم وسلامتهم . قال عوف بن مالك رضي الله عنه : جئت رسول الله ﷺ وهو يصلّي في بيته فقلت : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . فقال : « عوف بن مالك ؟ » ، فقلتُ : نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله . قال : « أخبرني » ، فأخبرته بما كان من مسيرنا وما كان بين أبي عبيدة بن الجراح ، وبين عمرو ، ومطاوعة أبي عبيدة لعمرو . فقال رسول الله ﷺ : « يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح » . وأخبرته بمنع عمرو للمسلمين من اتباع العدو ومن إيقاد النار ومن صلاته بأصحابه وهو

جنب . فلما قَدِم عليه عمرو كلّمه رسول الله ﷺ في ذلك قال : كرهت أن يوقدوا ناراً فيرى عـدوّهم قلّتهم ، وكرهت أن يتبعـوهم فيكون لهم مـدد فيعطفون عليهم . فَحَمِدَ رسول الله ﷺ أمره . قال عمـرو : وسألني عن صلاتي فقال : « يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب ؟ » فقلت : والذي بعثك بالحق إني لو اغتسلت لمت ، لم أجد برداً قط مثله ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ولا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَهْلُكَةِ ﴾ فضحك رسول الله ﷺ .

قـال ابن إسحاق في سبب تسميـة هذه السـرية بـذات السـلاسـل نزولهم ـ يعني المسلمين ـ على ماء بجـذام يقال لـه (السلسل) قـال : وبذلك سُميت (ذات السلاسل) . وللعلماء[1] في صلاة عمرو بن العاص رضي الله عنه بالصحابة أقوال ، وملخصها في كتاب (زاد المعاد) للحافظ

(١) يسبق إلى الذهن من تعبير المؤلف أن صلاة عمرو بن العاص بالصحابة والحالة ما ذكره تجري فيها الأقوال من الصحة وعدمها . وبمراجعة ما أحال إليه من كتاب « زاد المعاد » لابن القيم وجدت في الجزء الثالث صفحة ١٥٨ ، أن أقوالاً ثلاثاً تحوم حول الرد على من احتج بهذه القصة على أن التيمم لا يرفع مع الحدث ، لأن النبي ﷺ سمى عمرو بن العاص جنباً بعد تيممـه ، وها هـو ملخص تلك الأقوال :

١ ـ سؤاله ﷺ عن صلاته بالصحابة وهو جنب كان للإستفهام والإستعـلام ولما أخبره بعذره وأنه يتمم للحاجة أقره على ذلك .

٢ ـ اختلاف الرواية عنه ، فروى عنه أنه غسل مغابنه وتوضأ للصـلاة ثم صلى بهم . ولم يذكر التيمم ، فكأن هذه الرواية أقوى من رواية التيمم لأنها أوصل لأنها عن عبد الرحمن بن جبير المصري عن أبي القيس مولى عمرو عن عمرو ولا كذلك الأخرى فإنه لم يذكر فيها أبا القيس .

٣ ـ أن النبي ﷺ أراد أن يستعلم بسؤاله فقه عمرو في تركه الإغتسال ، ولما علم فقهه لم ينكر عليه ، ويدل عليه أن ما فعله عمرو بن التيمم والله أعلم خشية الهلاك بالبرد كما أخبر به ، والصلاة بالتيمم في هذه الحال جائزة غير منكر على فاعلها فعلم أنه أراد استعلام فقهه وعلمه .

ابن القيم فليراجع لأني أكتب في التاريخ ولا أكتب في الفقه

سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر

هكذا سمى الإمام البخاري هذه السرية (بسِيف[١] البحـر) يعني ساحل البحـر ، وسماهـا أهل السيـر سريـة (الخَبَط) وهـو ورق السّلَم وبعضهم قال أنها إلى قبيلة من جهينة إسمها (الْقَبَلية) . وخلاصة روايات البخاري : إن النبي ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح[٢] رضي الله عنـه في ثلاثمائة راكب يرصدون عيراً[٣] لقريش فخرجوا ، فلما كانوا ببعض الطَريق فني زادهم ، وكان تمراً ، فأمر أبو عبيدة بجمع الزاد من الجيش فجمع ، فصار يقوتهم به قليلاً ، إلى أن صار تمرة واحدة لكل رجُل في اليوم حتى فني ، فنحر لهم قيس بن عبادة الأنصاري ثلاث جزائر ، ثم نحـر ثلاث جزائر ، ثم نحر ثلاث جزائر ، ثم إن أبا عبيدة نهاه[٤] عن ذلك فأصابهم جوع شديد حتى أكلوا الخبط فسمي جيش (الخبط)[٥] ، فلما أتوا سِيف البحر - يعني الساحل - ألقى إليهم البحر دابة يقال لها العنبر[٦] فأكلوا منه

---

(١) بكسر المهملة وسكون التحتية ففاء : أي ساحل . وقوله سرية الخيط : لكونهم أكلوا فيها الخبط .

(٢) اسمه عامر .

(٣) العير : الإبل المحملة طعاماً وغيره ، وهذا بإعتبار الإستعمال المشتهر فلا ينافي أنها في الأصل التي تحمل الميرة بالكسر (أي الطعام) .

(٤) رفقاً به لأنه كان يستدين على ذمته ولا مال له .

(٥) جيش الخبط فيه توسع فإن الجيش عند أهل اللغة ما زاد على ثلاثمائة ، والسرية عندهم من مائة إلى خمسمائة ، ثم يسري إلى ثمانمائـة ، ثم جيش إلى أربعة آلاف ، ثم جحفل .

(٦) قال الأزهري هي سمكة كبيرة طولها خمسون ذراعاً ، قال ابن حجر وقد ورد أنه

نصف شهر وأدهنوا منه حتى ثابت منه أجسامهم وصلحت ، وأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعه فنظر إلى أطول رجل في الجيش وأطول جمل فحمل عليه ومر تحته فلم يصبه ، وتزودوا من لحمه وشائق . فلما قدموا المدينة أتوا رسول الله ﷺ فذكروا له ذلك فقال : « هو رزق أخرجه الله لكم فهل معكم من لحمه تطعمونا » . فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ منه فأكل .

هذا محصل ما عند البخاري ، وعند أصحاب السير تفصيل في ذلك ، وحاصله أن الجيش خرج وعاد ولم يلتق لا بجهينة ولا بقريش ولم يلق كيداً ، ووقع خلاف في كون هذه السرية كانت في شهر رجب سنة ثمان من الهجرة ، وذكر فيها أن خروجهم كان لرصد عير قريش أو أن هذا الوقت كان وقت الهدنة فلا يتفق ، وفي ذلك شرح طويل ، وقد أزال هذا الإشكال الحافظ ابن حجر ، قال الحافظ لكن قال شيخ الإسلام ابن العراقي في شرح التقريب قالوا : وكانت هذه السرية في شهر رجب سنة ثمان من الهجرة وذلك بعد نكث قريش العهد وقبل الفتح فإنه كان في رمضان من السنة المذكورة أ . هـ . فظهر من ذلك أنها كانت في شهر رجب[1] ولرصد عير قريش بعد نقض العهد وقبل فتح مكة بشهرين والله أعلم .

كان على صورة البعيرة ، وقوله ثابت أي رجعت .

(١) وعليه نئظر في قول القائل بأن السرية في رجب وهم غير محفوظ لكن في مختصر السيرة قال : والصحيح أن هذه الغزوة كانت سنة ست قبل الهدنة كما قاله ابن سعد وصاحب الهدى .

سرية أبي قتادة بن ربعي
إلى خضرة

بعث رسول الله ﷺ أبا قتادة بن ربعي الأنصاري رضي الله عنه في خمسة عشر رجُلاً إلى (خُضْرة) ، وهي أرض محارب بنجد ، وذلك في شهر شعبان سنة ثمان من الهجرة إلى غطفان وأمره أن يشن الغارة عليهم ، فسار يسير الليل ويكمن النهار حتى هجم عليهم وأحاط بهم وقتلوا من أشرافهم ، واستاقوا الإبل والغنم ، وكانت الإبل مائتي بعير ، والغنم الفي شاة ، ووقع في أيديهم سبايا كثيرة ، فأصاب كل رجل ، بعد الخُمْس ، إثنا عشر بعيراً ، وعدل البعير بعشر من الغنم ، وكانت غيبتهم خمس عشرة ليلة .

وهذه القصة من القصص الغريبة في بابها لكون خمسة عشر رجلاً هاجموا قبيلة وأحاطوا بهم ، وقتلوا من أشرافهم ، وسبوا نساءهم ، واستاقوا مواشيهم ؟ ولكن مَن تصفّح السيرة لا يستغرب ذلك ، وما قصة (مؤتة) ببعيد ، وقد قال الله تعالى : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَة غَلَبَتْ فِئَة كثيرة بإِذْنِ الله ﴾ . وما النصر إلا من عند الله ، فالمسلم لا يستبعد وقوع ذلك ، وقد حدّثنا التاريخ عن أشياء كثيرة تشبه ذلك كما سيأتي .

سرية عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي
إلى الغاب

(الغاب) وهو الشجر الملتف ، بلغ رسول الله ﷺ أن رفاعة بن قيس في جمع عظيم نزل بالغابة يريد حرب رسول الله ﷺ ، فدعا رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي رضي الله عنه ورجلين من المسلمين فقال : « اخرجوا إلى هذا الرجل حتى تأتوني منه بخبر » ، ودفع لهم ناقة مسنّة

وقال لهم : « تبلغوا عليها واعتقبوها » . قال عبد الله بن حدرد رضي الله عنه : فركبها أحدنا ، فوالله ما قامت به ضعفاً حتى ضربت ، فخرجنا ومعنا سلاحنا : النبل والسيوف ، حتى إذا جئنا قريباً من القوم عند غروب الشمس فكنت في ناحية وصاحباي في ناحية أخرى فقلت لهما إذا سمعتماني قد كَبّرت فكَبِّروا ، فوالله إنا كذلك ننتظر غرة القوم إلا ورفاعة بن قيس المجمع للقوم خرج في طلب راع لهم أبطأ عليهم وتخوفوا عليه ، فقال له نفر من قومه : نحن نكفيك ولا تذهب أنت ، فقال : والله لا يذهب إلا أنا ، فقالوا : فنحن معك ؟ فقال : والله لا يتبعني أحد منكم ، وخرج حتى مَرّ بي ، فلما أمكنني نفحته رمية بسهم فوضعته في فؤاده ، فوالله ما تكلم ووثبت عليه فاحتززت رأسه ، وشددت في ناحية العسكر وكبّرت ، وشد صاحباي وكَبّرا ، فهرب القوم واستقنا إبلاً وغنماً كثيرة فجئنا بها رسول الله ﷺ وجئت برأسه يحمله معي إلى رسول الله ﷺ ، فأعانني رسول الله ﷺ من تلك الإبل بثلاثين بعيراً .

هذا ما كان من جرأة عبد الله بن حدرد ومغامرته في قتل رفاعة بن قيس وشن الغارة على قومه وحلته وإغتنام أموالهم ، ولم يكن معه من الجيش غير نفرين هو ثالثهم ، فكانت هذه القصة أعظم جرأة من التي قبلها وأشد مغامرة ، ولم يتقدم الإسلام في فتوحاته إلا بمغامرة أبطاله وشدتهم في البأس ، وسبب هذه الجرأة قوة الإيمان بالله تعالى وشدة يقينهم في الله بالفوز على أعدائهم ، وهذا هو مولد القوة والجرأة فيهم ، وبذلك قد فازوا على يعدائهم في عموم مواقفهم وفتوحاتهم وغزواتهم ، وما النصر إلا من عند الله تعالى .

سرية أبي قتادة
إلى بطن إضَم

لما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة وغزو أهلها بعث أبا قتادة[1] بن أبي ربعي الأنصاري رضي الله عنه إلى (بطن إضَم) ، فيما بين ذي خُشُب[2] ، وذي المروة ، على ثلاثة برد من المدينة ، في أول شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة ، وذلك لأجل أن يخفي أمره ويظن الظان أنه ﷺ توجه إلى تلك الناحية ولأن تذهب بذلك الأخبار . فلقوا عامر بن الأضبط ، فسلّم عليهم بتحية الإسلام ، فقتله مُحَلِّم بن جَثّامة لشيء كان بينه وبينه ، وسلبه متاعه وبعيره ، ثم أتوا المحل الذي يمرهم رسول الله ﷺ أن يؤتوه ، وعند وصولهم إلى المحل رجعوا ، فبلغهم أن رسول الله ﷺ قد توجه إلى مكّة ، فمالوا إليه حتى لقوه ، وأخبروه الخبر . فقال رسول الله ﷺ لمحلم : « أقتلته بعد ما قال آمنت بالله ؟ » قال مُحلم : يا رسول الله إنما قالها تحية الإسلام متعوذاً ، قال ﷺ : « أفلا شققت عن قلبه ؟ » قال : لِمَ يا رسول الله ؟ قال : « لتعلم أصادق هو أم كاذب ؟ » فقال : يا رسول الله لو شققت عن قلبه أكنت أعلم ما في قلبه ؟ فقال له : « فلا أنت قبلت ما تكلم به ولا أنت تعلم ما في قلبه » . فقال : استغفر لي يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : « لا غفر الله لك » . فقام يتلقى دمعه ببرده ، وأنزل الله تعالى فيه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة** ﴾ الآية .

---

(١) في ثمانية نفر سرية إلى بطن إضم .

(٢) واد له ذكر كثير في الحديث والمغازي كما في النهاية . وذي المروة من أعمال المدينة على ثمانية برد منها .

فلما كان رسول الله ﷺ بحنين عمد إلى ظل شجرة فجلس تحتها فقام إليه الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، يختصمان في عامر بن الأضبط ، فكان عيينة بن حصن يطلب دمه ، والأقرع بن حابس يدافع عن مُحلم بن جَثّامة ، وارتفعت الأصوات وكثرت الخصومة ، فقال رسول الله ﷺ لعيينة ومَن معه : « بل تأخذوا الدية خمسين في سفرنا هذا وخمسين إذا رجعنا » ، وهو يأبى عليه ، فلم يزل به حتى اتفقا على الدية . ثم قالوا : إن مُحلماً يستغفر له رسول الله ﷺ ، فقام محلم ، وهو رجل آدم طويل وعليه حلة قد كان تهيأ للقتل فيها ، حتى جلس بين يدي رسول الله ﷺ وعيناه تدمعان ، فقال ﷺ : « ما اسمك ؟ » قال : أنا مُحلم قد فعلت الذي بلغك وإني أتوب إلى الله تعالى فاستغفر لي يا رسول الله ؟ فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال : « اللهم لا تغفر لمحلم » ، قالها ثلاثاً بصوت عال . فقام محلم يتلقى دمعه بفضل ردائه فما مكث إلا سبعاً حتى مات ، فلما دُفِن لفظته الأرض حتى ضموا عليه الحجارة ، فأخبروا رسول الله ﷺ بذلك ، فقال لهم : « إن الأرض تقبل مَنْ هو شَرّ من صاحبكم ، ولكن الله يعظكم » . وفي رواية : « إن الله يحب أن يريكم تعظيم حرمة لا إله إلا الله » .

هذا حاصل ما وقع في هذه السرية التي بعثها رسول الله ﷺ لأجل أن يوهم على الناس أنه لا يريد غزو قريش حتى لا يفطن أهل مكّة أنه ﷺ يتهيأ لغزوهم ، وأهم ما فيها قضية محلم الذي أغضب رسول الله ﷺ بعمله ذلك ، حيث كان عمله على خلاف ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى والصلاح ، ودعاية الناس أجمعين إلى الإسلام ، وتأليف قلوبهم ، وإصلاح ذات بينهم ، وإبادة النخوة الجاهلية ، وقبول مَن كان أشد الناس عداوة له حتى ولو كان دخوله في الإسلام نفاقاً ، حيث كان على جانب عظيم من التسامح ، فكان يعفو ، ويصفح ، ويتلطف ، ويسمح ، ويتألف القلوب ،

وبهذه المعاملة دخل كثير من الناس في ابتداء أمرهم نفاقاً ، ولكنهم ما لبثوا غير قليل حتى فهموا حقيقة الدين الإسلامي وبتأثيره على أخلاقهم جعلهم من المؤمنين ، وتطهرت قلوبهم من النفاق .

فكان قتل مُحلم لعامر بن الأَضْبط ، بعد ين سلّم عليهم بتحية الإسلام التي هي شعار المسلمين من أكبر الكبائر ، حتى أثار بعمله ذلك غضب النبي ﷺ الذي لا يغضب لنفسه وإنما يغضب لمحارم الله تعالى ، وجعله يرفض أن يستغفر له ، لأن عمله هذا هو ضد القاعدة الإسلامية ومخالف لمسالك النبي ﷺ في جمع كلمة الناس على قول (لا إله إلا الله محمد رسول الله) . وذلك أن النبي ﷺ لم يُبْعَث لجر مغنم ، أو لجمع الأموال ، أو للتشفي ممن يكره ، أو للإنتقام لنفسه ، أو لإبادة البشر ، ولو خُيِّر رسول الله ﷺ بين أن يُعْطى خزائن الأرض ، وبين أن يدخل في الإسلام رجُل واحد ، ولو كان من أحقر الناس ، لأختار دخول ذلك الرجل الأشعث الأغبر ، على خزائن الأرض . فالإسلام هو الحصن المتين لعموم أفراد المسلمين ، حيث قد وضع أساسه على كلمة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وفرض على معتقيه أن يضحوا أنفسهم لإعلاء كلمة الله تعالى ، وإزالة البؤس والشقاء عن الناس ، وذلك بربط قلوبهم برابطة التوحيد ، والإخاء الصحيح ، وحقن الدماء ، وإزالة البغي والفساد من كافة أنحائه . فبذلك صار الإسلام ثابتاً في نفوس معتنقيه لم يتزعزع من قلوبهم ، وأخذ ينتشر في أنحاء المعمورة حتى عمّ جهاتها الأربع بصفة خارقة فوق تصور البشر ، رغماً عن التقلبات التي وقعت عليه من المسلمين أنفسهم ، حيث كانوا ولا يزالون هم البلاء الوحيد على أنفسهم ، وهم العقبة الكؤود ، وحجر العثرة في سبيل تقدّمهم ، فباسم الدين يتخاذلون ، وباسم الدين يتناحرون ، وباسم الدين يستحل بعضهم دماء بعض ، ولولا ذلك التخاذل ، وذاك الشقاق ، لما كان اليوم على ظهر الكرة الأرضية دِين

غير دين الإسلام ، ولا لغة غير اللغة العربية ، والتاريخ شاهد على ذلك .
ولو كان المسلمون ساروا على سير رسول الله ﷺ واقتدوا بأعماله وأفعاله ، وتخلقوا بأخلاقه ، حرفاً بحرف ، وزجروا المتطرفين منهم والمتعجرفين على الناس باسم الدِين ، أمثال مُحلم في قتل عامر بن الأَضْبط ، وبرهن القائمون بأمر الدِين ، والسياسة ، من المسلمين ، منذ عصر السلف الصالح ، عصراً بعد عصر ، وجيلاً بعد جيل ، أنهم لا يريدون من أعمالهم غير إعلاء كلمة الله تعالى ، قولاً وفعلاً ، لخضع لهم أهل الأرض عموماً ، ولأصبحوا كتلة واحدة ، وجسماً واحداً ، وأمِن بعضهم شر بعض ، وسلمت نفوسهم من القتل ، وأموالهم من النهب ، وأوطانهم من الإستعمار ، ولزال كل تحاسد ، وتباغض ، وحقد ، وتنافر فيما بينهم ، وأصبحوا أمة واحدة لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لشريف على وضيع ، ولا لغني على فقير ، إلا بالتقوى .

ولم تضع الفرصة ، حيث لا يزال طريق الهدى والصلاح سهل المسلك ، فمفتاحه كتاب الله تعالى الذي هو بأيدينا على حكمه كيوم نزل على نبي الإسلام بحروفه ، وكلماته ، وآياته ، وسوره ، ومصباحه سنّة رسول الله ﷺ ، وخارطته عمل الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، وليس على المسلمين إلّا سلوكه ، ومتى سلكوه وصلوا إلى مجدهم الخالد ، وعزِّهم التالد ، فالجادّة أمامنا ، وكل مَن سار على الدرب وصل . وما أخرّنا عن التقدم إلا تقاعدنا عن طلب السعادة من طريقها الذي سلكه سلفنا الصالح .

وهنا أذكر المرض الذي أصاب المسلمين في أرواحهم ، ونفوسهم ، وأوجب التفكك ، والتخاذل ، والإنحلال ، فيما بينهم ، وهذا المرض على قسمين :

القسم الأول : هو البدع والضلال اللذَيْن دخلا على المسلمين في

عقائدهم الدينية ، ففرّقهم شرّ تفرق ، من معتزلة ، وخوارج ، ورافضة ، وما تفرع عن ذلك حتى صار الدِين عبارة عن صفق ، ورقص ، وزمر ، وطبل ، ومغنى ، وغير ذلك كما هو معلوم ومفهوم عند مَن نوّر الله بصيرته من المسلمين ، فوجه ذلك وجهة العامة إلى غير سبيل المهتدين .

القسم الثاني : تمزّق المسلمين باسم الوطنية الجوفاء ، والعصبية الجنسية ، اللذَيْن هما من اختراعات الإستعمار ، وابتكارات المستعمرين على قاعدة (فَرّق تَسد) ، فباسم الوطنية تفرّق الإسلام شيعاً وقبائل ، وباسم الوطنية أصبح المسلم عدو المسلم ، وباسم الوطنية صار الجار المسلم لا يغيث أخاه المسلم المجاور له ، لأن الوطنية فَرّقتْ بينهم وأصبحت الحيلولة الكبرى دون ارتباطهم ببعض . ولأضرب لك مثلاً : فهذا الفلسطيني يصرخ صرخاته المتتابعة وينادي بأعلا صوته باسم الوطنية فلم يجبه أخوه المسلم لأنه يعد نفسه أجنبياً عنه لأنه لم يكن فلسطينياً . وهذه سوريا تنادي باسم الوطنية السورية ، فلا يلبّي نداءها الأفغاني ، ولا الإيراني ، ولا حتى الفلسطيني أو المصري . وهذه مصر تصرخ صرخاتها العالية ، فلا يستطيع الحبشي المسلم ، ولا الصومالي ، بل ولا المغربي أن يغيثها . وقس على ذلك عموم البلاد الإسلامية التي تمزقت شر ممزق ، فلا مغيث من المسلمين لبعضهم البعض ، ولا مجير ، ولا مدافع ، ولا معين . فكل ذلك سببه الدعوة الوطنية .

والذي يوجب الأسف أن نصراء الوطنية والذين أبحّوا أصواتهم من الصراخ بالوطنية لم يفهموا حتى الآن عدم المنفعة من النداء بالوطنية ، ولم يفكّروا في علاج غير الوطنية يتخلصون به من البلاء الذي وقعوا فيه !

وربما يسخر المتهوسون من قولي هذا ويظنونه حديث خرافة أو جهل مركب ، وسبب السخرية منهم لقولي هذا هو أن استاذهم في المدرسة

لقنهم التحيز للوطنية ، فشبوا على ذلك وشابوا ، وتصلبت أدمغتهم وأذهانهم ، على النداء بها بدون أن ينظروا أو يفكروا في الثمرة التي جنوها منها طيلة هذه المدة ، وكأنهم فرحوا بهذه الشنشنة التي لا طائل تحتها ، ولا فائدة منها ، ولو فكروا قليلاً وتبصروا في تاريخ حياة سيد الإسلام من عرب وعجم لعلموا أن العلاج الوحيد هو الإنضمام إلى الجامعة الإسلامية والنداء باسمها ، وإن ذلك أقوى وأعظم وأنفع من النداء بالوطنية حيث النداء باسم الجامعة الإسلامية إنما ينادي سبعمائة مليون من المسلمين فيهم القوي ، والغني ، والمفكّر ، والعظيم ، وصاحب الشوكة والبأس وغير ذلك كما قال النبي ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » ، ولم يقل الوطني للوطني يشد بعضه بعضاً .

وربما يعترض معترض على قولي هذا بأن النبي ﷺ قال : « حب الوطن من الإيمان » فهذا صحيح ، وقول حق ، فحب الوطن لا شك فيه وهو مقدس ، فالواجب يقضي على كل إنسان أن يفتدي الوطن بنفسه ، وماله ، وولده ، وكل عزيز لديه ، غير ين هذا لا يتعارض مع نظريتنا ، ولا يتخالف معها ، إذ أن حب الوطن بحث ، والنداء بالوطنية بحث آخر ، فحب الوطن يدعو الإنسان إلى عمارة الوطن ، وإصلاحه ، والمدافعة عنه ، وردٌ كل معتد عليه والنداء بالوطنية قطع تلك القطعة من الجسم الإسلامي ، وفصلها عن الجامعة الإسلامية ، وجعلها يكلة سائغة للعدو ، يبتلعها متى شاء ، وكيف شاء ، حيث إن الجامعة الإسلامية هي الحصن الحصين لعموم مواطن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وهي وطن عموم المسلمين . وما جاء الإسلام إلا ليجمع الناس على كلمة واحدة وهي (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ، ومبدأ واحد هو (إعلاء كلمة الله تعالى) ، وطريقة واحدة هي (الجامعة الإسلامية) ، أو (الرابطة الإسلامية) حتى يكون المسلمون كتلة واحدة ، وجسماً واحداً ، إذا

اشتكى عضو منه تـداعى له سـائر العـالم الإسلامي في مشـارق الأرض ومغاربها بالألم والضجر وأخذ يفكر في إصـلاح ذلك العضـو ، بمالـه ، ونفسه ، وأهله ، وولده ، وكل عزيز له .

وقد أبديت هذه النظرية بين كثير من المفكرين ، وناظرني بعضهم في عدم تطبيقها وقال : لو قلت وأنا في أحد أمصار المسلمين المستعمَرة يا أيها العالم الإسلامي أغثنا ؟ فهل يتسنى لأحد منهم أن يلبي دعوتنا ، أو يجيب نداءنا ، فيغيثنا ، أو يجيرنا ، أو ينقذنا من مصابنا ؟ فأجبتـه على الفور : إن قدوة المسلمين في عموم أعمالهم هـو رسول الله ﷺ ، وهـو المرشد الـوحيد لعمـوم العالم في عقـائدهم ، وعبـاداتهم ، وأعمالهم ، وسياستهم ، واجتماعهم ، فإنه ﷺ لما بعث ما قال : « يا أيها الناس كونوا مسلمين » فصاروا في الحال مسلمين . بل علّم ، وأرشد ، وناظر وصبر ، وربى أناساً من أصحابه حتى صاروا أهلاً للعمل . فمجرد النداء لا يجدي نفعاً ، ولا يتي بفائدة ، في هذا العصر الحاضر الذي نحن فيه ، بل يكون صرخة في وادٍ أجدب ، أقحل ، خال من السكان ، لأن الآذان لم تألف سماع هذا النداء ، حتى أنها بمجرد سماعهـا صوت النـادي تلبي نداءه وتجيب دعوته ، حيث أن المسلمين أصبحوا بعد تقاعدهم أزماناً طويلة عن تتبع آثار نبيهم ، وتعاليم دينهم ، صمُّ الآذان عن سماع هذا النداء ، بكم الأفـواه عن إجابـة المنادي ، بـل ربمـا سخـروا من داعي الله ، ورمـوه بالجنون ، لأنه صار أهل العصر يـرون الرجـلَ المتمسك بـدينه متعصبـاً والمتتبع لآثار نبيه متأخراً ، أو رجعياً[1] ، وهذه الألقاب قد بثها الملحدون

(١) حقاً ما قد قاله المؤلف ، فاليوم لا حرمة للكبير ولا قدر للعالم التحرير الساعي ليله ونهارَه للخير لنفع الكبير والصغير ، فقد انبروا عليه ورموه بالرجعية والجمود لكونه واقفاً لهم بالمرصاد في كل ما يخالف الدين والعقيدة لأجل نفعهم دنيا وأخرى ، فهو ، وإن لم يعط حقه كاملاً من الجيل الصاعد كما يقولون ، فكيفيه شرفاً قول

في أرواح الناشئة الإسلامية بواسطة أساتذتهم في المدارس ، وخطبائهم في الأندية والمجتمعات ، فكيف بعد هذا كله يرتجى منهم إجابة الداعي إلى الجامعة الإسلامية ، وهم متمزقون شر ممزق ، في رابطتهم الإجتماعية ، وعقائدهم الدينية ، وسياستهم الإسلامية .

وهنا يحق لنا أن نتساءل عن كيفية الوصول إلى ربط أواصر الإسلام وجمع كلمة المسلمين ، بعد هذا التفكك الشنيع ، والتخاذل المميت ، والتمزق المريع ، فأقول : لا بُدّ أن نحطم أولاً هذه القيود التي قيدنا بها أساتذة التبشير ، والإستعمار ، والإلحاد ، في مدارسنا ونرجع إلى الوراء ألف وثلاثمائة وخمسين سنة ، نرجع إلى تعاليم المؤسس لهذه الجامعة الإسلامية وهو رسول الله ﷺ ، ثم نبتصر في أعمال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك العصر السعيد . فتتبع آثار النبي ﷺ في الأخلاق ، والتشريع ، والإجتماع ، والسياسة ، والإدارة ، ونسير عليها سيراً حسناً منظماً . ثم ننظر كيف كوّن رسول الله ﷺ من فلذة أكباد المشركين القرشيين بمكّة المكرمة ، بعد صرف جهود عظيمة مدة خمس سنين ، كتلة

الله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ ، وقول رسول الله ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء » ، رواه أبو داود والترمذي . وعن عبادة مرفوعاً : « ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعمانا حقه » . والأدهى والأمر نكر أن جميل الآباء من قبل بعض الأبناء الذين لا يرعون حقوقهم الواجبة ولا يعاملونهم بما ينالون به رضاء الله تعالى ثم عطف آبائهم . قال الله تعالى : ﴿ **وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً** ﴾ . . . الآية . وفي الحديث : « بروا آباءكم تبركم أبناؤكم وعفوا تعف نساؤكم » . ومما يؤسف له أن بعضهم قد أعجب بالتطوير إلى حد أنه لم يرق في نظره تمسك آبائهم بالعادات الكريمة والتقاليد المحترمة ظناً منهم أن ذلك مدعاة للتأخر المزري وهم في سبيل النهوض والتقدم . لا حول ولا قوة إلا بالله .

مشكّلة من مائة شخص منهم الرجل والمرأة ، والشيخ والشاب ، والقوي والضعيف ، والسيد والمولى ، وكيف صبرت تلك الكتلة على أذى المشركين الذين هم الآباء والإخوة لهذه الكتلة ، وكيف ثابرت على التقدم في أعمالها ، رغماً عن كل ما قام به المشركون من تعذيبهم وارهاقهم على الإسلام ، فكان الرجل من المشركين يعذب ابنه وأخاه الصغير لأجل أن يرتد عن دين الإسلام ، ولم تأخذه الشفقة الأبوية أو الرحمة العائلية ، كما تقدّم تفصيل ذلك في الجزء الأول من هذا الكتاب . وما قصة أبي جندل مع أبيه سهيل بن عمرو ببعيد . ولم يؤثر ذلك فيهم بل قوّى ثباتهم ، ثم تحملّوا مشاق الهجرة إلى الحبشة والتشتت في الآفاق حتى صارت هجرة النبي ﷺ مع أصحابه إلى المدينة ، فآخى بين المهاجرين والأنصار ، وبين الشريف والوضيع ، والسيد والمولى ، والغني والفقير ، وقال ﷺ : « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » ، كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنّا خَلَقْناكُمْ من ذكَرٍ وأُنْثَى وجَعَلْناكمْ شُعوباً وقَبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ . فجعل الله سبحانه وتعالى التقوى أساس الإجتماع ، وعلى هذا الأساس بني صرح الجامعة الإسلامية ، وبه صار الإسلام جسماً واحداً ، وكان المسلمون روحاً واحدة ، وبموجب ذلك قال الخليفة الثاني أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (لو أن سخلة بوادي الفرات أخذها الذئب يُسْأل عنها عمر) ، معناه أن أمير المؤمنين الذي هو رأس هذا الجسد الإسلامي مسؤولاً عن (السخلة) التي هي ولد الغنم ساعة وضعه ، إذا أكلها الذئب . فإذا كان أمير المؤمنين مسؤولاً عن سخلة لا قيمة لها ، فما بالك بمسؤوليته عن الممالك الإسلامية ؟

وإني أنتقل بالقارىء الكريم إلى العصر العبّاسي ، وأذكِّره بنداء الأسيرة المسلمة في بلاد الروم حين قالت : (وامعتصماه) ، فأجابها الخليفة المعتصم العباسي من فوق عرشه ببغداد : (لبيكِ ، لبيكِ ، أتاكِ

المعتصم) ، فخرج من بغداد بجيش جرار ، وغزا الروم وخلص الأسيرة المسلمة . وأذكره بالحضارة العباسية في الشرق ، والحضارة الأموية في الغرب ، وأذكّره بالساعة التي أرسلها أمير المؤمنين هارون الرشيد إلى ملك فرنسا ، فلما وصلت إليه ظن أهل أوروبا في ذلك العصر أن فيها عفاريت من الجان يحركونها . فهل قال لكم الدِين الإسلامي تقاعدوا عن العمل والإختراع والإكتشاف ، واتركوا ذلك لأوروبا وغيرها من الأمم العاملة اليوم ، وكونوا عالة عليها حتى في سم الخياط ؟ أم كنتم تقاعدتم عن ذلك من تلقاء أنفسكم جبناً وكسلاً ؟ أو أصغيتم إلى قول الملحدين : إن الدين الإسلامي هو الذي أقعدكم عن العمل ؟ فهذا الذي دعاني إلى أن أرجع بالمسلمين إلى الوراء أكثر من ألف عام ، أرجع إلى العصور التي كان فيها الإسلام سيد العالم ، وصاحب السيطرة على معظم الكرة الأرضية ، وكان بيده نظام العالم والأمم .

أما طريق الوصول إلى ذلك المجد وربط أواصر العالم الإسلامي الذي أصبح اليوم يربو على أربعمائة مليون من النفوس ، ويقطن من رأس الرجاء الصالح بأقصى إفريقية الجنوبية إلى أقصاها شمالاً ، ومن المحيط الاتلانتيكي غرباً إلى أقصى الصين شرقاً ، ومن جزر الأوقيانوس جنوباً ، بما فيها جزر جاوا ، والهند ، والايران ، والافغان ، وتركستان ، وبخارى ، والقفقاس ، إلى تخوم روسيا شمالاً ، وأواسط آسيا ، وأطراف أوروبا ، وغير ذلك من المعمورة ، فهنا طريقان ، أحدهما : أن العالم الإسلامي يختار منه رجالاً أشداء مخلصين في إسلامهم وجامعتهم الإسلامية ، غيورين على أبناء جلدتهم من المسلمين من عموم أجناس المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، فيضعون فريقاً منهم في عموم المدارس ، بعد أن تُخلى من أساتذتها المتشبعين بالإلحاد الذين هم الداء العضال على الناشئة الإسلامية ، فيتولون تدريس أبناء المسلمين على قاعدة الإيمان

الصحيح ، وعلى تغذية أرواحهم بالجامعة الإسلامية ، والإخاء الصادق ، ومكارم الأخلاق . والطريق الثاني تشكيل جمعيات من أولي العزم يلقون محاضرات في الأندية والمجتمعات ويسيرون إلى الأمام بقدم ثابتة ، وقلب صلد ، ورباطة جأش ، فلا يهزهم التهديد ، ولا يصدّهم الوعد والوعيد ، يتسلحون بالصبر والثبات كما صبر رسول الله ﷺ على أنواع البلاء وأشد الأذاء ، فإذا ثابروا على ذلك بضع سنين فلا شك في نجاحهم ، ولا يمضي على المسلمين برهة من الزمن إلا وقد صار الإسلام قوي الجانب ، عظيم الهيبة ، مصاناً في وطنه ، وأهله ، وماله ، وهذا الطريق هو الطريق السلمي ، حيث لم يكن الإسلام بالفتّاك أو الأشر ، كما يقول أعداؤه ، بل الإسلام هو المرشد الحكيم إلى سلوك سبيل الهدى والرشاد ، ومُرَقّي العالم والأمم ، والرؤوف الرحيم بالفقراء والضفعاء والمساكين ، ولم يستعمل الشدة إلا للمتمردين على الإنسانية ، والجانين على مكارم الأخلاق ، والتاريخ شاهد على ذلك . والله الهادي إلى صراطه المستقيم .

غزوة فتح مكة

جاء اليوم الذي يطأطىء فيه أبو سفيان بن حرب رأسه أمام رسول الله ﷺ خاضعاً مستسلماً ، وآن أوان رسول الله ﷺ أن يملي على أبي سفيان إرادته كيف شاء ، ويقبلها أبو سفيان طائعاً ، وحان الوقت الذي تكسر فيه أنوف المشركين أمام سيّد المرسلين ، وتنكّس الأصنام وتُكسر ، بعد أن كانت تُعْبَد من دون الله تعالى . وجاء الزمن الذي يَعْلو فيه الإسلام وحزبه ببطنِ مكّة ، ويذلّ الشرك وأهله ، وتكون كلمة الله هي العليا . وقد دنا أجل الكُفْر بأمِّ القُرَى ، وحان حين إقامة الصلاة جَهاراً في حَرَم الله تعالى ، حول بيته المعظّم جماعة ، وتصطف صفوف المصلّين ، ويُؤذِّن بأعلى صوته مُعْلِناً ، فوق الكعبة ، وعلى أبي قبيس ، وفي الشعاب

والبطاح ، يقول : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حيّ على الصلاة ، حيّ على الصلاة ، حيّ على الفلاح ، حيّ على الفلاح ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله . بعد أن قضّى رسول الله ﷺ وأصحابه يصلُّون بدار الأرقم ، وفي الشعاب ، والجبال ، مُسْتَخْفِين بصلاتهم من المشركين ، وبعد أن وضع فرث الناقة على رأس رسول الله ﷺ وهو ساجد أمام الكعبة ، وضُرِب أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه بالنعال على وجهه حتى تورم حين قوله لكفّار قريش : أتقتلون رجُلاً أن يقول ربي الله ، حين تكالبوا على رسول الله ﷺ يريدون قتله .

هذا رسول الله ﷺ جاء مع أصحابه يفتحون مكّة للحاجِّين ، والمعتمرين والركّع السجود ، بعد أن خرج رسول الله ﷺ مع أصحابه متسللين هرباً من فتك المشركين وتعذيبهم ، فارِّين بدينهم ، محتفظين على كرامتهم . وهذا أبو سفيان الذي ما ترك حيلة ولا وسيلة في إبادة رسول الله ﷺ ، يقف أمامه بين يديه موقف الجاني والعبّاس بن عبد المطلب رضي الله عنه يتضرع إلى رسول الله ﷺ يطلب له العفو والأمان وحقن دمه ودم أهله ، وعشيرته ، بعد أن وقف أبو سفيان يوم أُحُد على بعيره يقول لعمر بن الخطّاب رضي الله عنه : هل قُتِل محمد ؟ . . بأنفة وعظمة وكبرياء ، وبعد أن علم بحياته أرسل من يقتله غيلة فلم ينجح .

كان قد نصح أبو طالب بن عبد المطلب قريشاً حال احتضاره بقوله : وايم الله كأني أنظر إلى صعاليك العرب ، وأهل الوبر ، والأطراف ، والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته ، وصدّقوا كلمته ، وعظّموا أمره ، فخاض بهم غمرات الموت ، فصارت رؤساء قريش وصناديدها

أذناباً ، ودورها خراباً ، وضعفاؤها أرباباً ، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده : فسخروا به ، وهزئوا بنصيحته ، وظنوا أنهم بشركهم فائزون ، وبكفرهم ظافرون ، وبعنادهم ناجحون ، وبحماقتهم منصورون ، فقد بلج الصباح ، وظهر الحق من الباطل ، والرشد من الغي ، وصح فأل أبي طالب ، فساد أولئك المستضعفون بالأمس بدِين الإسلام القويم ، على المشركين والمتغطرسين بكفرهم قبل ذلك اليوم على المؤمنين ، ونكست رؤوس سادات قريش وصناديدها ، وكسرت أنوفهم ، وأصبحوا صاغرين ، وظهر لهم أن نبوة محمد ﷺ صحيحة ، ووعده صدق وحق ، وقوله يقين . هذا ما وعد الله رسوله فصدق وعده ، وأعزّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا شيء قبله ولا شيء بعده ، وهذا شأن الصابرين المحتسبين في طاعة الله ، والقائمن بإعلاء كلمة الله .

خرج رسول الله ﷺ من مكّة مهاجراً إلى المدينة وأصحابه لم يتجاوزوا مائة رجل ، فأتاهم اليوم فاتحاً بعشرة آلاف من المسلمين ، بين مقنّع بالحديد ، ورامٍ بسهم ، وفارس ممتطي جواده . فلم يسع المشركين إلا الفرار على وجوههم ، يطلبون النجاة ، ولا نجاة لهم غير عطف رسول الله ﷺ وشفقته ورحمته بهم ، حيث لم يأت ذلك النبي الكريم ليبيدهم من وجه الأرض انتقاماً منهم لما عملوا من إيذاء ، وتعذيب ، وحرب ، وإثارة الفتن ، وغير ذلك مما سبق تفصيله من النكاية برسول الله ﷺ وبأصحابه ، بل أتى مكّة فاتحاً ليبيد الشرك ، ويكسر الأصنام ، ويزيل المظالم ، ويطهر بيت الله ، وحَرَم الله ، وبلد الله ، من الرجس ، والفسوق ، والعصيان ، ويصلح فساد قلوب قومه ، وعشيرته ، وأهل بلده ، ويعدل ما اعوج منهم ، ويدلّهم على طُرق السعادة والفلاح ويرشدهم إلى سبيل الهدى والنجاح ،

وذلك شأن المصلحين من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

قال الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى : هذا الفتح الأعظم الذي أعز الله به دِينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين ، واستنقذ به بلده وبيته الذي جعله هدى للعالمين من أيدي الكفّار والمشركين ، وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء ، وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء ودخل الناس به في دِين الله أفواجاً وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجاً .

وكان سبب هذه الغزوة أن بني بكر بن عبد مناة بن كنانة عدت على خزاعة وهم على ماء يُقال له (الوتير[1]) فبيتوهم وقتلوا منهم ، وكان الذي هاج ذلك أن رجُلاً من بني الحضرمي يُقال له مالك بن عبّاد خرج تاجراً ، فلما توسط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه وأخذوا ماله ، فعدت بنو بكر على رجل من بني خزاعة فقتلوه ، فعدت خزاعة على بني الأسود وهم : سلمى ، وكلثوم ، وذؤيب ، فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم . فحصل كل ذلك قبل المبعث . فلما بعث رسول الله ﷺ وجاء الإسلام حجز بينهم وتشاغل الناس بشأنه ، فلما كان صلح الحُدَيْبية بين رسول الله ﷺ وبين قريش وقع في الشروط أنه من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده فَعَل ، ومَن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فعل ، فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم ، فلما استمرت الهدنة اغتنمها بنو بكر من خزاعة وأرادوا أن يصيدوا منهم الثأر القديم ، فخرج نوفل بن معاوية الديلي في جماعة من بني بكر ، فبيت خزاعة وهم على الوتير فأصابوا منهم رجالاً

---

(١) الوتير : مساء بأسفل مكة ، وهو بفتح الواو وكسر الفوقانية وسكون التحتية وآخر راء . قال السهيلي : وهو في كلام العرب الوارد الأبيض سمي به الماء .

وتناوشوا واقتتلوا ، وأعانت قريش بني بكر بالسلاح ، وقاتل معهم من قريش صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل ، وحويطب بن عبد العزى ، وشيبة بن عثمان ، وسهيل بن عمرو ، ومكرز بن حفص ، وأخذوا معهم أرقاهم ورأس بني بكر نوفل بن معاوية ، وكانوا مستخْفِين ليلاً ، وخزاعة آمنون لما حجز الإسلام بينهم حتى انتهوا إلى أنصاب الحرم ، فقال أصحاب نوفل بن معاوية : كيف يا نوفل إلهَكَ قد دخلت الحرم ؟ فقال كلمة عظيمة (لا إله له اليوم) يا بني بكر أفلا تدركوا ثأركم من عدوكم فلعمري أنكم لتشرقون في الحرم فلا تصيبون ثأركم فيه . فلما انتهت خزاعة إلى الحرم دخلت دار بديل بن ورقاء ، ودار رافع الخزاعيين ، فانتهوا بهم في عماية الصبح ، وكان عامتهم صبياناً ونساء وضعفاء ، ودخلت رؤساء قريش منازلهم وهم يظنون أنهم لا يعرفون ، ولا يبلغ رسول الله ﷺ ، وأصبحت خزاعة مقتلّين على باب بديل ، ورافع . وقال سهيل بن عمرو لنوفل بن الحارث : قد رأيت الذي صنعنا بك وبأصحابك ؟ يريد قَتْل من بَقي . فقال : هذا ما لا أطاوعك عليه فاتركهم . فتركهم فخرجوا . وأما قريش فندموا على ما صنعوا وعرفوا أن هذا الذي صنعوه نقض الزمام والعهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ . فخرج عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً من خزاعة يستنصرون رسول الله ﷺ حتى قدموا المدينة على رسول الله ﷺ ، فأخبروه بالذي أصابهم ومعاونة قريش عليهم بالرجال والسلاح وحضور صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل ومن حضر من قريش ، وكان رسول الله ﷺ جالساً بالمسجد بين ظهراني أصحابه ، فلما فرغت خزاعة من قصتها قام عمرو بن سالم فقال :

يا رَبِّ إني ناشدٌ محمداً   حِلْفَ أبينا وأبيه الأَتْلَدَا

قـد كنتُمُ وُلْـداً وكنـا[1] والـداً ثُمّـة أسلمنا[2] ولم ننـزع يَـداً
فـانْصُر هـُداك الله نَصْراً أبَـدا وادعُ عـبـاد الله يـأتـوا مـددا
فيهمْ رَسـول الله قَـدْ تـجَـردا أبيضَ مِثْـلَ البدر يَسْموا صُعُـدا
إن سِيمَ خَسْفـاً وجْهُـهُ تـربـدا في فَيْلَقٍ[3] كالبحر يَجْري مُزْبِـدا
إنّ قـريشـاً أخْلَفـوكَ المَـوعِـدَا ونَـقَضُـوا مِيثـاقَـكَ الـمؤكـدا
وجعلوا لـي فـي كَـدَاءٍ رَصَـدَا وزَعَمـوا أنْ لَسْـتَ تَـدْعُوا أحـدا
وهُـمْ أذَلُّ وأقَـلُّ عَـدَدا هُمْ بَيّتـونـا بـالـوَتِيـرِ هُـجّـدَا
وقَـتَـلونـا رُكّـعـاً وسُـجّـدا

فلما بلغ رسول الله ﷺ قام وهو يجر رداءه ويقول : « لا نصرت إن لم أنصر بني كعب مما أنصر منه نفسي ، والله لأمنعنهم مما أمنع منه نفسي وأهل بيتي » ، ثم قال : « نصرت يا عمرو بن سالم » ، ثم عرضت سحابة لرسول الله ﷺ فقال : « إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب » . وخرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ ، فأخبروه بما أصيب فيهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم ، ثم رجعوا إلى مكّة . فبعث رسول الله ﷺ إلى قريش ضمرة بن عمرو يخيرهم بين إحدى خلال : بين أن يَدُوْا قَتْلى خزاعة ، أو يبرأوا من حلف بني نُفَاثة ، أو ينبذَ

---

(١) قال السهيلي : يريد أن بني عبد مناف أمهم من خزاعة وكذلك قصي أمه فاطمة بنت سعد الخزاعية والولد بمعنى الولد .

(٢) هو من السلم لأنهم لم يكونوا آمنوا بعد ، غير أن قوله ركعاً وسجداً يدل على أنه كان فيهم من صلى لله فقتل ا هـ من الروضة ، وأراد بقوله : ولم ننزع يداً أي لم تخرج يداً عن طاعتك ولم ينتقض ما بيننا من الخلف .

(٣) الفيلق كالجحفل : الجيش العظيم ، وجمعه فيالق ؛ أي أن قصد بذل له أو لأحد من أهل عهده ، تربد وجهه تغير ، لأنه ﷺ لا يرضى الضيم والنقض .

إليهم على سواء ، فأتاهم ضمرة فأخبرهم بالذي أرسله به رسول الله ﷺ فقال قرطة بن عمرو : إما أن نَدِي قَتْلى خزاعة فإن نفاثة فيهم عز فلا نوديهم فلا يبقى لنا سيد ، وإما أن نبرأ من حلفهم فإنه ليس قبيلة من العرب تحج هذا البيت أشد تعظيماً له من نُفَاثة فلا نبرأ من حلفهم ، فلا يبقى لنا سيِّد ، ولكننا ننبذ إليه على سواء . فرجع ضمرة إلى رسول الله ﷺ ، وذكر قولهم لرسول الله ﷺ . وندمَتْ قريش على رد رسول الله ﷺ ، وبعثت أبا سفيان بن حرب ، فقال رسول الله ﷺ للناس : « كأنكم بأبي سفيان وقد جاء ليشد العقد ويزيد في المدة » . فلقي أبا سفيان بديل بن ورقاء بعسفان ، حين عودته من رسول الله ﷺ ، فقال أبو سفيان لبديل : من أين أقبلتَ يا بديل ؟ فظن أنه أتى النبي ﷺ فقال : سرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي . فقال له أبو سفيان : أو ما جئت محمداً ؟ قال : لا . فلما راح بديل إلى مكّة قال أبو سفيان : لئن كان جاء هذا المدينة لقد علف بها النوى . فأتى مَبْرَك راحلته فأخذ من بعرها ففتّه فرأى فيها النوى فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمد . ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة ، فدخل على ابنته أمّ حبيبة ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه . فقال : يا بُنَيّة ، ما أدري أرغبتِ بي عن هذا الفراش ، أم رغبتِ عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت مُشْرِك نجس ، فقال : والله لقد أصابكِ بعدي شرّ . ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ ، فكلمه فلم يرد عليه شيئاً ، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلّمه أن يكلّم رسول الله ﷺ أبو بكر : ما أنا بفاعل . ثم أتى عمر بن الخطّاب فكلّمه . فقال : أنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ ، فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به . فأتى عثمان بن عفّان فقال له : ليس في القوم أحد أقرب رحماً منك ، فزد في المدة وجَدِّد العهد ، فإن صاحبك لا يردّه عليك أبداً . فقال عثمان : جواري في جوار

رسول الله ﷺ . ثم جاء فدخل على عليّ بن أبي طالب ، وعنده فاطمة ، والحسن غلام يدب بين يديهما ، فقال : يا عليّ ، إنك أَمَسّ القوم بي رحماً وإني قد جئت في حاجة فلا أرجعن كما جئت خائباً ، اشفع لي إلى محمد . فقال عليّ : ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت إلى فاطمة فقال لها : هل لك إلى أن تأمري ابنكِ هذا فيجير بين الناس فيكون سيّد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما يبلغ ابني ذاك أن يجير بين الناس وما يجير أحد على رسول الله ﷺ . قال أبو سفيان : يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت عليّ فانصحني ؟ قال عليّ : والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك ، ولكنك سيّد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك . قال أبو سفيان : أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً ؟ قال عليّ : لا والله ما أظنه ولكني لم أجد لك غير ذلك . فقام أبو سفيان في المسجد فقال : أيها الناس إني قد أجرت بين الناس . ثم ركب بعيره فانطلق . فلما قدم على قريش قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئت محمداً فكلّمته فوالله ما ردّ عليَّ شيئاً ، ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيراً ، ثم جئت عمر بن الخطّاب فوجدته أعدى العدو ، ثم جئت علياً فوجدته ألين القوم قد أشار عليّ بشيء صنعته ، فوالله ما أدري هل يغني عني شيئاً أم لا . قالوا : وبِمَ أمرك ؟ . . قال : أمرني أن أجير بين الناس ففعلت . فقالوا : هل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا . قالوا : ويلك ، والله إن زاد الرجل على أن لعب بك . قال : لا ، والله ما وجدت غير ذلك .

هذا أبو سفيان بن حرب قد داس على أنفته وكبريائه ، وأخذ يتوسل بمن كان بالأمس يحتقرهم ويزدريهم ويمتهنهم ، فلم يجد له قبولاً ، فهل كان يظن أن العاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين ؟ هل كان يخطر بباله أنه يترامى على أبواب أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليّ ، حتى

وفاطمة والحسن الطفل الصغير ؟ فَيُرْفَض طلبه ويعود من حيث أتى وتذهب توسلاتـه أدراج الريـاح ، وكان بـالأمس يقود الجيـوش لاستئصال رسـول الله ﷺ ؟ هذا ما وعد الله رسوله ، وصدق الله وعده ، وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً .

وأمر رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها فقال لها : « جهزينا وأخفي أمرك » . ثم خرج من الحجرة فجلس عند بابها ، وكان إذا جلس وحده لم يأته أحد حتى يدعوه ، فدخل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على عائشة رضي الله عنها وهي قائمة بتحضير جَهَاز رسول الله ﷺ ، فقال لها : أي بُنَيّة أمركن رسـول الله ﷺ بتجهيزه ؟ قـالت : نعم فتجهز . قـال : فأين يـريد ؟ قـالت : لا والله لا أدري . فقال رسـول الله ﷺ : « ادع لي أبا بكر » ، فجاء فجلس بين يديه ، فتناجيا طويلاً ، فقال أبو بكر : يا رسول الله أتريد أن تخرج مخرجاً ؟ قال : « نعم » قال أبو بكر : لعلك تريد بني الأصفر . قال : « لا » . قال : أفتريد أهل نجد ؟ قال : « لا » . قال : فلعلك تريد قريشاً ؟ قال : « نعم » . قال : يا رسول الله أليس بينك وبينهم مدة ؟ قال : « أو لم يبلغك ما صنعوا ببني كعب بن خزاعة ؟ » ، ثم أمره فجلس عن يمينه . ثم قال ﷺ : « أدع لي عمر » . فجاء عمر وجلس إلى أبي بكر ، فناجاه طويلاً ، فرفع عمر رضي الله عنه صوته فقال : يا رسول الله رأس الكفر هم الذين زعموا أنك ساحر ، وأنك كاهن وأنك كذاب ، وأنك مُفْترٍ . . . ولم يدع شيئاً مما كان أهل مكّة يقولون . فأمره أن يجلس من الجانب الآخر ، فجلس أحدهما عن يمينـه والآخر عن شمـاله . ثم دعا ﷺ الناس فقال : « أخبركم بمثل صاحبيكم هـذين ؟ » قالـوا : نعم يا رسول الله . فأقبل بوجهه إلى أبي بكر ، فقال : « إبراهيم كان ألين في الله تعالى من الدهن في الليل » ، ثم أقبل على عمر فقال : « إن نوحاً كان أشد في الله من الحجر وإن الأمر أمر عمر فتجهزوا وتعاونوا » . فتبع الناس

أبا بكر رضي الله عنه فقالوا : يا أبا بكر كرهنا أن نسأل عمر عما ناجاك به رسـول الله ﷺ؟ قال : قـال لي : « كيف تأمـرني في غزو مكّـة » ، قال قلت : يا رسول الله هم قومك حتى رأيت أنه سيطيعني ، ثم دعا عمر فقال عمر : هم رأس الكفر ، حتى ذكر له كل سوء يقولونه ، وأيم الله لا تذل العرب حتى تذل أهل مكّة ، وقد أمركم بـالجهاد ليغـزوا مكّة . وأرسـل رسول الله ﷺ إلى أهل البادية ومَنْ حوله مِنَ المسلمين في كل ناحية يقول لهم : « مَنْ كان يؤمن بالله واليـوم الآخر فليحضـر رمضان بـالمدينـة » . وقـال ﷺ : « اللهم خُذِ العُيـونَ والأخبار عن قـريش حتى نَبْغَتَهـا[1] في بلادها ، اللهم خُذْ على أسماعهم وأبْصَارهم فلا يرونا إلا بغتةً ولا يسمعون بنا إلا فَجْأة » . وأمر رسول الله ﷺ جماعة أن تقيم بالأنقاب[2] ، وكـان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه يطوف على الأنقاب ، فيمر بهم ويقول : لا تدعوا أحداً يمرّ بكم تنكرونه إلا رددتموه . وكانت الأنقـاب مسلكة لمن يسلك إلى مكّة . ثم قدمت المدينة من قبائل العرب : أسلم ، وغفار ، ومزينة ، وأشجع ، وجهينة . وأرسـل أيضاً رسـول الله ﷺ جماعـات من الصحابة على عموم الطرقات التي تؤدي إلى مكة وأمرهم أن لا يَدَعوا أحداً يمر بهم ينكرونه إلا ردّوه .

ولما أجمع رسول الله ﷺ المسير إلى قريش وعلمه عموم الناس ، كتب حـاطب بن أبي بلتعة إلى بعض أشـراف قـريش وهم : سهيـل بن عمرو ، وصفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل ، كتاباً يخبـرهم بمسير

---

(١) أي يأتيها بغتة : أي فجأة ؛ واستجاب الله عز وجل دعوته فلم يعد به أحد حتى نزل مر الظهران .

(٢) الأنقاب : جمع نقب وهو الطريق بين جبلين . وأنقـاب المدينـة : طرقهـا التي تفضي إليها . اهـ .

رسـول الله ﷺ إليهم وأعـطاه امـرأة يقـال لهـا سـارة[1] ، مـولاة لنبي عبد المطلب ، وقال لها : اخفيه ما استطعت ولا تمرّي على الطريق فإن عليه حرساً . وأعطاها عشرة دنانير وكساها بردة ، فأخفته في عقاصهـا ، فسلكت عن نقب على يسـار المحجنـة في العلوق حتى رأت الـطريق بالعقيق ، فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث رسـول الله ﷺ عليّ بن أبي طـالب ، والـزبيـر بن العـوام ، والمقـداد بن الأسود ، رضي الله عنهم وقال لهم : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[2] ، فإن بها ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها » . فانطلقوا تعـادي بهم خيلهم حتى أتوا الروضة ، فإذا هم بالظعينة ـ يعني المرأة ـ فقالوا لها : أخرِجي الكتاب ؟ قالت : مـا معي كتاب . فقـالوا : لتخـرجن الكتاب أو لنلقين الثياب ؟ ـ يعني نجردكِ من ثيابك ـ ، فأخرجته من عِقاصها[3] ، فأتوا به رسول الله ﷺ ، فإذا فيه : مِن حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من قريش يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ . فقال رسول الله ﷺ : « يا حاطب ما هذا ؟ » قال حـاطب : يا رسـول الله لا تعجل[4] علي ، إني كنت امـرأً مُلْصَقاً في قريش (يعني حليفاً) ولم أكن من أنفُسِها ، وكان مَن معك مِنَ

---

(١) هي بنت صيفي بن أبي صيفي بن هاشم ، كانت مغنية أهل مكة جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله ، فقال ﷺ : « أجئت مهاجرة » ؟ قالت : لا . قال : « فما جئت له » ؟ قالت : أنتم الأهل ولا مواسي . فقال لهما رسول الله ﷺ : « ما كان في غنائك ما يغنيك » ؟ قالت : إن قريشاً منذ قتل منهم من قتل ببدر تركوا الغناء . فأعطاها رسول الله ﷺ نفقة وثياباً . قال في (جواهر السيرة) : ومضت سارة إلى مكة وكانت مغنية فأقبلت تتغنى بهجاء رسول الله ﷺ وقد ارتدت عن الإسلام .

(٢) على بريد من المدينة . قال السهيلي : وصحفه أبو عوافة وهشيم بخاء وجيم .

(٣) هو الخيط الذي تعتقص به أطراف الذوائب والشعر المضفور .

(٤) بالمؤاخذة على ما صنعت . ولابن اسحاق : أما والله أني لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت .

المهاجرين مَنْ لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم ، فأحببت ، إذ فاتني ذلك من النسب فيهم ، أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي ، ولم أفعله إرتداداً عن دِيني ولا رضاءً بالكفر بعد الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « أمَا أنه قد صَدَقكم » ، فقال عمر : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق[١] ؟ فقال رسول الله ﷺ —: « إنه قد شهد بَدْراً ، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بَدْراً قال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . فأنزل الله تعالى السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ . وصورة الكتاب الذي أرسله حاطب كما في (فتح الباري) : أما بعد ، يا معشر قريش . . فإن رسول الله ﷺ جاءكم بجيش كالليل يسير كالسيل فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله وأنجز له وعده فانظروا لأنفسكم والسلام .

خروجه إلى مكة للفتح

فخرج رسول الله ﷺ من المدينة في اليوم العاشر من شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة ، واستعمل على المدينة أبا رُهْم كلثوم[٢] ابن الحُصَيْن الغفاري ، واستعمل على الصلاة ابن أم مكتوم ، وكان جيش

---

(١) قال هذا لأنه قوي في الدين ويبغض من ينسب للنفاق . وأطلق عليه منافق لكونه أبطن خلاف ما أظهر ولم يرد أنه أظهر الإسلام وأبطن الكفر ، وعذر حاطب خوفه على أهله بمكة فإنه فعل ذلك متأولاً أن لا ضرر منه .

(٢) على الصحيح الذي رواه ابن اسحاق وغيره .

رسول الله ﷺ عشرة آلاف مقاتل بمن لحقه[1] بالطريق من القبائل كبني أسد ، وبني سُلَيم ، ولم يتخلف أحد من المهاجرين والأنصار ، وكان المهاجرون سبعمائة ومعهم ثلاثمائة فرس ، وكانت الأنصار أربعة آلاف ومعهم خمسمائة فرس ، وكانت مزينة ألفاً وفيها مائة فرس ، وكانت أسلم أربعمائة ومعها ثلاثون فرساً ، وكانت جهينة ثمانمائة ومعها خمسون فرساً ، فكان مجموع الخيل التي خرج بها رسول الله ﷺ من المدينة ، خلاف مَنْ لحقه بالطريق من القبائل ، تسعمائة وثمانين فرساً ، بعد أن كانت يوم بَدْر ثلاثة أفراس . وكان معه من زوجاته أم سلمة وميمونة رضي الله عنهما ، وكان خروجه ﷺ في رمضان ، وكان صائماً والمسلمون صيام ، حتى بلغ (الكَدِيد[2]) بين عسفان وقُدَيد ، أو كراع الغميم ، فلما استوى على راحلته ، بعد العصر ، دعا باناء من لبن أو ماء فوضعه على راحلته ليراه الناس فشرب فأفطر فناوله رجالاً إلى جبنه فشربوا ، فلم يزل مفطراً حتى انسلخ الشهر .

فلما بلغ الجحفة لقيه عمه العبّاس بن عبد المطلب قد خرج من مكّة مهاجراً بأهله وعياله ، فأرسل أهله وعياله إلى المدينة وسار مع رسول الله ﷺ إلى مكّة ، فقال له رسول الله ﷺ : « هِجْرَتك يا عم آخر هجرة كما

---

(١) وفي « الاكليل » للحاكم و« كتاب شرف المصطفى » للنيسابوري : إثنا عشر ألفاً والجمع بينهما بأن العشرة آلاف خرج بها من نفس المدينة ثم تلاحق به الفان .

(٢) بفتح الكاف وكسر الدال : الماء الذي بين قديد . بضم القاف وفتح الدال : قرية قرب مكة وعسفان . بضم العين وسكون السين : قرية على ثلاثة مراحل من مكة . والكديد أقرب إليها من عسفان . وفي رواية في الصحيح : حتى إذا بلغ كراع الغميم بفتح المعجمة وهو واد أمام عسفان بثمانية أميال . وكان الكديد وكراع الغميم متقاسمان فمنهم من يذكر هذا ومنهم من يذكر هذا . قال النووي : وقد غلط بعض العلماء فتوهم أن الكديد وكراع الغميم قريب من المدينة .

أن نبـوتي آخـر نبـوة » . ثم مضى رسـول الله ﷺ حتى إذا بلغ نقب العقـارب ، بين مكّـة والمـدينـة أو الأبـواء[1] ، لقيـه أبـو سفيـان[2] بن الحـارث بن عبـد المـطلب ، وهـو ابن عم رسـول الله ﷺ ، وأخـوه في الرضاع ، أرضعتهما حليمة السعدية ، وكان يشبه رسـول الله ﷺ ، وكان ممن يؤذي النبي ﷺ بمكّـة ويهجوه ويؤذي المسلمين ، وكـان معـه ابنـه جعفر ، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي صهر النبي ﷺ وابن عمتـه عـاتكـة ، وأخـو أمّ سلمـة[3] أمّ المؤمنين ، وكـان شـديـداً على المسلمين ، وهو الذي قال للنبي ﷺ : لن نؤمن لك حتى تفجـر لنا من الأرض ينبوعاً ، وكان شديـد العداوة لـه ، فقد هـدى الله تعالى الثـلاثة وأسلموا وهاجروا والتقوا برسول الله ﷺ بالأبواء مسلمين ، فالتمسوا الدخول على رسول الله ﷺ فمنعهم فكلمته أمّ سلمة فقال : يا رسول الله إبن عمك (تعني أبا سفيان) وابن عمتك وصهرك (تعني عبد الله) فقال ﷺ : « لا حاجة لي بهما ، أما ابن عمي فهتك عِرْضي ، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكّة ما قال » . فقالت أمّ سلمة : لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك . فلما خرج الخبر إليهما بذلك قال أبو سفيان :

---

(١) كما ذكره ابن عبد البر وغيره ، وقيل بين سقيا والعرج ، وبه جزم ابن إسحاق وعين المحل فقال : لقياه بنقب العقاب بين مكة والمدينة .

(٢) اسمه كنيته ، وقال جماعة المغيرة لكن جزم ابن قتيبة وابن عبد البر بأن المغيرة أخوه شهد من المشاهد حنيناً توفي سنة خمس عشرة أو عشرين وصلى عليه عمرو في الروض . مات من ثؤلول حلقه الحلاق في حج فقطعه مع الشعر فنزف منه الدم ، وقال عند موته : لا تبكن علي فإني لم أنطق بخطيئة منذ أسلمت .

(٣) لأبيها بنت أبي أمية ووالدتها عـاتكة بنت جنـدل الطعـان وكان لأميـة بن المغيرة زوجتان كل منهما تسمى عاتكة ، واسم أبي أمية حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي ، ويقال له زاد الركب ، لأنه إذا سافر معه أحد كان زاده عليه .

والله ليأذنن لي أو لآخذ بيد ابني جعفر هذا ، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً ؟ فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه : يا أبا سفيان ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف : ﴿ **تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين** ﴾ فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً : ففعل أبو سفيان ذلك ، فقال له رسول الله ﷺ : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » ، فأنشده أبو سفيان بن الحارث أبياتاً منها :

لَعَمرُك إني حين أحمِلُ رَايةً   لَتغْلِبَ خَيْلُ اللات خيلَ محمّدِ
لكالمدلج الحيرانِ أظْلم ليلُهُ   فهذا أواني حين أُهْدَى فاهتَدِي
هداني هادٍ غَيْرُ نفْسي ودلني   على الله من طرّدته كل مطرّدِ

فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : « أنت طردتني كل مطرد ؟ » وحسن إسلامه بعد ذلك ، ويُقال أنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياءً منه ، وكان رسول الله ﷺ يحبّه ويشهد له بالجنة ، وقال : « أرجو أن يكون خلفاً من حمزة » . وكذلك دخل عليه عبد الله بن أبي أمية وقبله وحسن إسلامه وحصروا معه فتْح مكّة وصارا أسعد الناس بعد أن كانا أشقى الناس .

ثم عقد رسول الله ﷺ الألوية والرايات بقُدَيد ، فأعطى راية المهاجرين للزبير بن العوام ، وأعطى راية الأنصار لسعد بن عبادة ، وأعطى لبني سُلَيم لواء وراية ، ولبني غفار راية ، ولأسلم لواءين ، ولبني كعب راية ، ولمزينة ثلاثة ألوية ، وكان جماعة بني بكر أسلموا فأعطاهم لواء ، ولأشجع لواءين ، ثم سار رسول الله ﷺ حتى أتى مر الظهران ـ وهو المسمى اليوم بوادي فاطمة ، وهو فسيح جداً وخصب ، ويقال أنه كان به ثلاثمائة خيف وعين ماء في ذلك العصر ، وأما اليوم فليس به سوى أربعة

وأربعين عين ماء بخيوفها ، وليس حول مكّة واد أخصب[1] منه كما تقدّم تفصيله في الجزء الأول ـ فلما نزل رسول الله ﷺ كان نزوله عشاء ، فأمر الجيش أن يوقدوا النيران ، فأوقدت عشرة آلاف نار[2] ، وجعل على الحرس عمر بن الخطّاب رضي الله عنه . وقد عميت الأخبار عن قريش فلا يأتيهم خبر عن رسول الله ﷺ ولا يدرون ما هو فاعل .

وكان قد خرج تلك الليالي أبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء ، يتجسسون الأخبار وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به ، وقد كان العبّاس بن عبد المطلب رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ ، فلما كان بمر الظهران ورأى عظمة الجيش وهو منتشر في طول الوادي وعرضه قال : وا صباح قريش والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكّة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه فإنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر . قال العباس رضي الله عنه : فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء فخرجت عليها حتى جئت الأراك ، فقلت لعلي : أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكّة فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخل عليهم عنوة ، قال : فوالله إني لأسير عليها وألتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان ، وبديل بن ورقاء ، وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول : ما

---

(١) واليوم في عهد الملك المعظم (فيصل بن عبد العزيز آل سعود) أخذ هذا الوادي في النهوض والتقدم سواء من ناحيته العمرانية أو الزراعية أو المواصلات . والثقافية أيضاً ، فأنشئت فيه المدارس وأسست البلدية واتصل طريقه المسفلت إلى القضيمة ثم المدينة المنورة ، كل ذلك لراحة شعبه وراحة الوافدين إلى بيت الله الحرام ليمروا منه إلى المدينة المنورة لقصر هذا الطريق ، ولا يزال هذا الوادي آخذاً في وثبة إلى حالة أفضل على ممر الأيام وفق إليه العاملين للاصلاح .

(٢) ولم يأمر من معه ، وهم ألفان ، بالإيقاد تخفيفاً فليس في أمره بذلك أن الدين معه عشرة آلاف فقط ، وهذا على القول بأن عدد المقاتلين إثنا عشر ألف مقاتل .

رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً . فقال بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب ، قال أبو سفيان : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ، قال العباس : فعرفت صوته ، فقلت : يا أبا حنظلة ؟ فعرف صوتي فقال : أبو الفضل ؟ قلت : نعم . قال : ما لك فداك أبي وأمي . قلت : ويحك يا أبا سفيان ، هذا رسول الله ﷺ في الناس ، واصباح قريش والله . قال : فما الحيلة فداك أبي وأمي ؟ قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فاستأمنه لك ، قال فركب خلفي ورجع صاحباه ، فجئت به ، وكلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : مَنْ هذا ، فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا : عم رسول الله ﷺ على بغلته ، حتى مررت على عمر بن الخطّاب رضي الله عنه فقال : مَن هذا ؟ وقام إليّ ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة ، قال : أبو سفيان عدو الله . الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ ، وركضْتُ البغلة فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجُل البطيء ، فاقتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله ﷺ ، ودخل عليه عمر فقال : يا رسول الله ، هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ، فدعني لأضرب عنقه ؟ قلت : يا رسول الله ، إني قد أجرته . ثم جلستُ إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه فقلت : والله لا يناجيه الليلة دوني رجُل . فلما أكثر عمر في شأنه قلت : مَهْلاً يا عمر ، فوالله أن لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت هذا ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف ، فقال : مهلاً يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليّ من إسلام الخطّاب لو أسلم ، وما بي إلا قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطّاب لو أسلم ، فقال رسول الله ﷺ : « إذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به » . قال : فذهبتُ به إلى رحلي ، فبات

عندي ، فلما أصبح عنده رأى الناس وقد ثاروا إلى طهورهم ، فقال أبو سفيان : يا أبا الفضل ما للناس ، أأمروا في شيء ؟ قال : لا ، ولكنهم قاموا إلى الصلاة . فأمره أن يتوضأ ، ثم انطلق به إلى النبي ﷺ ، فلما دخل في الصلاة ﷺ كَبّر الناس بتكبيره ، ثم ركع فركعوا ، ثم رفع فرفعوا ، فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم طاعة قوم جمعهم من ههنا ومن ههنا ولا فارس ، ولا الروم ، ذات القرون ، بأطوع منه له . ثم قال : يا أبا الفضل أصبح ابن أخيك والله عظيم الملك . فقال العباس : إنه ليس بملك ولكنها النبوة . قال : أو ذاك . قال العباس : فلما فرغ رسول الله ﷺ غدوت به إليه ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله » . قال : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله قد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد ، ثم قال : « ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله » . قال : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً ، فقال العباس : ويحك يا أبا سفيان أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك . فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله .

ثم أتى عقب أبي سفيان بن حرب حكيم بن حزام إلى رسول الله ﷺ وهو ابن أخي أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ، وكان صديق النبي ﷺ قبل المبعث وكان يوده ويحبه بعد المبعث وإنما تأخر إسلامه إلى عام الفتح مجاراة لقريش لأنه من ساداتها وأشرافها ، فقال حكيم بن حزام وأبو سفيان : يا رسول الله جئت بأوباش الناس من عرف ومن لا يعرف إلى أصلك وعشيرتك . فقال رسول الله ﷺ : « أنتم أظلم وأفجر قد غدرتم بعهد الحُدَيْبِية وظاهرتم على بني كعب بالإثم والعدوان في حرم الله تعالى وأمنه » فقال حكيم وأبو سفيان صدقت يا رسول الله ، ثم قالا يا رسول الله

لو كنت جعلت عدتك ومكيدتك لهوازن فإنهم أبعد رحماً وأشد عداوة لك ؟ فقال ﷺ : « إني لأرجو أن يجمعهما الله لي فتح مكة وإعزاز الإسلام بها وهزيمة هوازن وغنيمة أموالهم » . فقال أبو سفيان وحكيم : فادع الناس بالأمان ، أرأيت ان اعتزلت قريش فكفت أيديها أآمنون هم ؟ قال ﷺ : « مَن كفّ يده وأغلق داره هو آمن » . قالا : فابعثنا نؤذن بذلك فيهم ؟ فقال العباس : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً ؟ قال : « نعم من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل دار حكيم فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » . وكان دار أبي سفيان بأعلى مكة ودار حكيم بأسفلها . قاله ابن عقبة .

فلما أراد رسول الله ﷺ السير من الظهران قال العباس رضي الله عنه لرسول الله ﷺ : لا آمن أن يرجع أبو سفيان فيكفر . فقال رسول الله ﷺ للعباس : « أحبس أبا سفيان عند خطم[1] الجبل حتى ينظر إلى المسلمين » . فحبسه العباس ، فقال أبو سفيان : أغَدْراً يا بني هاشم ؟ قال العباس : لا ، ولكن لي إليك حاجة ، فتصبح فتنظر جنود الله وما أعد الله للمشركين . فحبسه بالمضيق دون الأراك حتى أصبحوا . فأمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي لتظهر كل قبيلة ما معها من الأداة والعدة ، وقدم رسول الله ﷺ الكتائب ـ وهي القطعة[2] من الجيش ـ وكان أبو سفيان ينظر إليهم ويسأل عنهم ، فكان أول من تقدم خالد بن الوليد رضي الله عنه في بني سُلَيم وهم ألف ، معهم لواءان وراية ، يحمل أحد اللواءين العباس بن

(١) أي طرف الجبل ؛ وفي رواية خطم الخيل (بالحاء المهملة والخاء المعجمة وسكون التحتية) : أي إزدحامها . وللبغوي : احتبسه بمضيق الوادي عند حطم الخيل .

(٢) سميت بذلك لاجتماعها وهي فصيلة من الكيث بفتح فسكون وهو الجمع .

مرداس ، والآخر خُفَاف بن نُدْبة ، ويحمل الراية الحجاج بن علاط ، فلما أقبلوا نحو أبي سفيان كبّروا ثلاث تكبيرات ، فقال أبو سفيان للعباس : مَن هؤلاء ؟ قال : خالد بن الوليد . قال : خالد الغلام . قال : ومَن معه ؟ قال : بنو سُلَيم . قال أبو سفيان : مالي ولبني سُلَيم . ثم أقبل نحوه الزبير بن العوام رضي الله عنه في خمسمائة من المهاجرين وأفناء العرب ومعه راية سوداء فكبّروا ثلاثاً ، فقال أبو سفيان للعباس : مَن هؤلاء ؟ قال : الزبير بن العوام . قال ابن أختك ؟ قال : نعم . ثم أقبلت نحوه كتيبة بني غفار في ثلاثمائة يحمل رايتهم أبو ذر الغفاري رضي الله عنه ، فلما حاذوه كَبّروا ثلاثاً ، فقال أبو سفيان : من هؤلاء ؟ قال العباس : بنو غفار . قال : مالي ولبني غفار . ثم أقبلت (أسلم) في أربعمائة فيها لواءان ، يحمل أحدهما بريدة بن الحصيب ، والآخر ناجية بن الأعجم ، فما حاذوه كبّروا ثلاثاً ، فقال أبو سفيان : يا عباس مَن هؤلاء ؟ قال : أسلم . قال : مالي ولأسلم . ثم أقبلت بنو كعب بن عمرو وهم خزاعة في خمسمائة يحمل رايتهم بشر بن سفيان ، فلما حاذوه كَبّروا ثلاثاً ، فقال : مَنْ هؤلاء ؟ قال : بنو كعب إخوة اسلم . قال أبو سفيان : هؤلاء حلفاء محمد ؟ قال : نعم . ثم أقبلت مزينة في ألف وفيها مائة فارس وثلاثة ألوية يحمل أحدها النعمان بن مقرن ، والثاني عبد الله بن عمرو بن عوف ، والثالث بلال بن الحارث ، فلما حاذوه كبّرواً ثلاثاً ، قال أبو سفيان : يا عباس مَن هؤلاء ؟ قال : مزينة . قال : مالي ولمزينة قد جاءتني تقعقع من شواهقها . ثم أقبلت جهينة في ثمانمائة فيها أربعة ألوية ، يحمل أحدها معبد بن خالد ، والثاني سويد بن صخر ، والثالث رافع بن مكيث ، والرابع عبد الله بن بدر ، فلما حاذوه كبّروا ثلاثاً ، قال أبو سفيان : يا عباس من هؤلاء ؟ قال : جهينة . قال : مالي ولجهينة والله ما كان بيني وبينهم حرب قط . ثم أقبلت كتائب بني ليث ، وضمرة ، وسعد بن بكر في مائتين ، يحمل لواءهم أبو

واقد الليثي ، فلما حاذوه كَبّروا ثلاثاً ، قال أبو سفيان : مَن هؤلاء ؟ قال العباس : بنو بكر ، قال : نعم أهل شُؤم ، والله هؤلاء الذين غزانا محمد بسببهم . قال العباس : فذخر الله تعالى لكم في غزو محمد ﷺ إياكم أمنكم ودخلتم في الإسلام كافة . ثم أقبلت أشجع ، وهم ثلاثمائة معهم لواءان ، يحمل أحدهما معقل بن سنان ، والآخر نعيم بن مسعود الأشجعي ـ ذلك الذي قد جعل الله هزيمة الأحزاب على يده بأسلوبه السياسي الذي استعمله في تفرقتهم ـ فلما حاذوه كبّروا ثلاثاً ، قال أبو سفيان : مَن هؤلاء ؟ قال العباس : اشجع . قال أبو سفيان : هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد . فقال العباس : أدخل الله الإسلام في قلوبهم ، فهذا فضل الله تعالى . ثم أقبلت بنو تميم ، وفزارة ، وسعد بن هذيم ، وهم من قضاعة ، فلما حاذوه كَبّروا ثلاثاً ، فقال أبو سفيان : أبعد ما مض محمد ؟ فقال له العباس : لو أتت الكتيبة التي فيها محمد ﷺ لرأيت الخيل ، والحديد ، والرجال ، وما ليس لأحد به طاقة . قال أبو سفيان : ومَن له بهؤلاء من طاقة ؟ وجعل الناس يمرون ، وهو يقول عند مرور كل قبيلة : ما مَرّ محمد ؟ فيقول العباس : لا . حتى أقبلت كتيبة رسول الله ﷺ ومعه كبار المهاجرين وعموم الأنصار ، تلك الكتيبة التي فيها سبعمائة فارس ، وألف مقنّع بالحديد ودارع ، لا يرى منهم إلا الحدقة وفيها الرايات والألوية ، مع كل بطن من بطون الأنصار لواء وراية ، ولعمر بن الخطاب رضي الله عنه فيها زجل[1] بصوتٍ عال وهو يقول : رويداً ، يلحق أولكم آخركم . فقال أبو سفيان : سبحان الله يا عباس مَن هؤلاء ؟ قال العباس : هذا رسول الله ﷺ في الأنصار . فقال أبو سفيان : ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك

---

(١) زجل : جلبة وصوت رفيع عال كأنه الرعد .

اليوم عظيماً . فقال : يا أبا سفيان إنها النبوة . فقال : نعم إذاً . فلما حاذاه سعد بن عبادة ، وكانت راية رسول الله ﷺ بيده قال : يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة ـ يعني يوم الحرب الذي لا مفر منه ـ اليوم تستحل الكعبة ، اليوم أذل الله قريشاً . فقال أبو سفيان : يا عباس حبذا يوم الدمار ـ يعني : هل يروق في نظرك أن تدمّر قومك اليوم ولم تدفع عنهم ـ . فسمع ذلك رجال من كبار المهاجرين منهم[1] بن الخطّاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفّان ، فقالوا لرسول الله ﷺ : ما نأمن أن تكون لسعد صولة في قريش . فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان ، وهو بين أبي بكر الصدّيق وأسيد بن حضير رضي الله عنهما ، قال أبو سفيان : يا رسول الله أمرت بقتل قومك ؟ قال : « لا » . فأخبره بما قال سعد بن عبادة ، ثم قال : أنشدك الله والرحم في قومك ، فإنك أبر الناس وأرحمهم وأوصلهم . فقال رسول الله ﷺ : « كذب[2] سعد يا أبا سفيان ، اليوم يوم المرحمة ، اليوم يعز الله قريشاً ، وهذا اليوم يعظم الله فيه الكعبة ، ويوم تكسى الكعبة » . فأمر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يأخذ الراية من سعد بن عبادة ويسلمها لابنه[3] قيس بن عبادة . فقال العباس رضي الله عنه لأبي سفيان : النجاة إلى قومك . فأقبل أبو سفيان على قومه ، فصرخ بأعلا صوته : يا مَعشر قريش هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به أسلموا تَسلموا ، مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . فقامت هند بنت عتبة ، امرأة أبي سفيان ، فأخذت بشاربه فقالت : اقتلوا

---

(١) صرح به ابن هشام ، وقال الحافظ : وفيه بعد لأن عمر كان معروفاً بشدة البأس عليهم اهـ . وفي مغازي الواقدي والأموي : أن عثمان وعبد الرحمن قالا ذلك جميعاً ، وعلى هذا فليتأمل جمع المؤلف .

(٢) الكذب هو الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عمداً أو سهواً .

(٣) وأبى سعد أن يسلمها إلا بإمارة ، فأرسل ﷺ بعمامته ، فدفعها إلى ابن قيس .

الحَمِيتَ ـ يعني الزق[1] ـ الدّسِمَ الأَحْمَس ، قُبِّح من طليعة قوم . قال أبو سفيان : وَيْلَكُمْ ، لا تَغُرَنَكَمْ هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قِبَل لكم به ، ثم قال لهند : يحك ، اسكتي وادخلي بيتك ، والله لتسلمن أو لأضربن عنقك . ثم صرخ في قريش : مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . قالوا : قاتلك الله وما تغني عنا دارك . قال : ومَن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومَن دخل المسجد فهو آمن . فتفرقوا إلى دورهم وإلى المسجد .

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى ذي طُوى[2] وقف على راحلته مُعتجراً[3] بشقة برد[4] حبرة حمراء ، وإن رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله تعالى حين رأى ما أكرمه الله تعالى به من الفتح حتى أن عثنونه[5] ليكاد يمس واسطة الرحل . فأمر رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رضي الله عنه أن يدخل من الليط ، أسفل مكة ، في بعض الناس ، وكان خالد على المجنبة اليمنى وفيها : أسلم ، وسُليم ، وغفار ، ومزينة ، وجهينة ، وقبائل من قبائل العرب ، وقال ﷺ لخالد ومَن معه : « إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصداً حتى توافوني على الصفا » ، وكان أبو عبيدة بن الجراح على الرجالة ، والحسر[6] ، وبعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم وأمره أن يدخل مكة من كداء[7] ،

---

(١) أو وعاء السمن . والأحمس : الذي لا خير فيه عنده .

(٢) هي البئر الموجودة اليوم بجرول عند مفرق الطريقين بمدخل مكة طريق جرول وطريق الحجون .

(٣) اعجر : لوى الثوب على رأسه واعتم به .

(٤) برد حبرة : ضرب من ثياب اليمن موشى ومخطط .

(٥) لحيته .

(٦) وهم الذين لا سلاح معهم .

(٧) بفتح الكاف وبالمد غير مصروف ومصروف وفي شرح البهجة ، قال في التوشيح :

بأعلى مكّة ، وأن يركز رايته بالحجون ، وأن يمكث عند الراية - ولا يبرح حتى يأتيه . وكان لواء رسول الله ﷺ أبيض ورايته سوداء تسمى (العقاب) وأمر خالد بن الوليد أن يغرز رايته عند أدنى البيوت[1] ، وأمر سعد بن عبادة أن يسير أمامه في كتيبة الأنصار وأعاد الراية إليه ، وأمرهم أن يكفّوا أيديهم عن القتال ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، ثم سارت الأمراء بكتائبهم كما أمر رسول الله ﷺ .

ثم أن صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، كانوا قد جمعوا أناساً بالخندمة[2] ليقاتلوا رسول الله ﷺ ، وقد كان حِمَاس بن قيس أخو بني بكر يعد سلاحاً قبل دخول رسول الله ﷺ ويصلح منه فقالت له امرأته : لماذا تُعِدُّ ما أرى ؟ . . قال : لتمحمد وأصحابه ، قالت : والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وأصحابه شيء . قال : والله إني

وكانت صعبة المرتقى ، فسهلها معاوية ، ثم عبد الملك ، ثم المهدي ا هـ ، قلت : وفي عهد الملك فيصل بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية سنة ١٣٨٦ هـ أصبح هذا الطريق في غاية من اليسر والسهولة حتى أنه (سفلت) لتمر فيه السيارات بدون توقف . وهكذا امتدت يد الاصلاحات في هذا العهد إلى طرق المشاعر المقدسة . وفق الله المصلحين لما فيه خير البلاد والعباد من فائدة . كدى (بضم الكاف مع القصر) : موضع عند باب الشبيكة بقرب شعب الشاميين من ناحية قيقعان . قال العدوي : وبمكة موضع ثالث يقال له كدى (بالضم والتصغير) يخرج منه إلى جهة اليمن . وهي التي ينحدر منها إلى المقبرة المسماة عند العامة بـ (المعلاة) وتسمى بـ (الحجون) عند الخاصة ، ذكره في « تحفة الأحوذي » ؛ والحجون (بفتح المهملة وضم الجيم) ؛ وبعض الناس ينطق باللام بدل النون . وإني ، منذ ولادتي بمكة حتى الآن سنة ١٣٨٦ هـ حين كتابة هذا التعليق ، لم أجد أثراً لهذا الباب لأن بناءه كان في القرن السابع .

(١) وهذا الموضع مشهور اليوم بأول حارة الباب عند بئر يسمى بئر خالد بن الوليد وبئر الراية .

(٢) وهو من أعظم جبال مكة واقع شرق المسجد الحرام تتخلل شعابه منازل مكة .

لأرجو أن أخْدِمَكِ بعضهم ، ثم قال :

أن يقـولـوا[1] اليـوم فمـالي عِلّةْ   هــذا سـلاحُ كـامـلٌ وألَّـةْ
وذو غِـرَاريـن سـريـع السَّـلّه

فشهد الخندمة مع صفوان بن أمية وعكرمة وسهيل بن عمرو ، وقد وبشت قريش أوباشاً لها فقالوا نقدم هؤلاء فإن كان لقريش شيء كنا معهم وإن أصيبوا أعطينا الذي سئلنا .

فلما أقبل رسول الله ﷺ على مكّة من الحجون ، بأعلا مكّة ، وقد ضرت له هناك قبة في شعب أبي طالب الذي حصرت قريش فيه بني هاشم وبني المطلب عند مدخل الحجون من المعلى وفيه ركزت الراية ، وكان أرد أسامة بن زيد بن حارثة خلفه فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا هريرة » . قال أبو هريرة : لبيك يا رسول الله وسعديك . فقال : « اهتف لي بالأنصار ولا يـأتيني إلا أنصاري » . فهتف بهم فجـاؤا ، فأطـافوا بـرسول الله ﷺ فقال : « أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم » . ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى : « احصدوهم حصداً حتى توافوني بالصفـا » قال أبـو هريـرة : فانطلقنا فما يشاء أحد منا أن يقتل منهم إلا شاء وما أحد منهم وجه إلينا شيئاً ، وركزت راية رسول الله ﷺ بالحجون عند مسجد الفتح .

---

(١) أن يغلبوا (بالبناء للفاعل) : أي أصحاب رسول الله ﷺ يقول في زعمه إن لم يكن هناك سبب لغلبهم لنا فإن لدينا من أسباب النصر ما يكفينا من أداة القتال ، وأخيراً إن ضحكت عليه امرأته لما هرب وأغلق البـاب على نفسه مـع استداده بـالسلاح . والنصـر من عند الله نـاصر نبيـه والمسلمين مهما تنـوعت المعدات الحربية ، وصدق الله العظيم في قوله : ﴿ **لينصرن الله من ينصره** ﴾ . وقوله وألّه (بفتح الهمزة وبعدها لام مشددة مع ألـ بالفتح أيضاً) بمعنى السلاح العريض .

معركة خالد مع الأوباش

فاندفع خالد بن الوليد رضي الله عنه حتى دخل مكّة من أسفلها وقد تجمع بها ناس من بني بكر ، وبني الحارث بن عبد منـاف ، وناس من هذيل والأحابيش الذين استنصرت بهم قريش ، فقاتلوا خالداً ومنعوه من الدخول وشهروا السلاح ورموه بالنبل وقالوا لا تدخلها عنوة ، فصاح خالد في أصحابه واشتبك القتال فقاتلهم فانهزموا أقبح هزيمة ، وقتل من بني بكر نحو أربعة عشر رجلاً ، ومن هذيل أربعة ، حتى انتهى بهم القتال إلى الحزورة(١) ، ثم دخلوا الدور ، وارتفعت منهم طائفة على الجبال هرباً وتبعهم المسلمون ، فصاح حكيم بن حزام ، وأبو سفيان ، يا معشر قريش عَلى مَ تَقْتُلون أنفسكم مَن دخل داره فهو آمن ، ومَن وضع السلاح فهو آمن . فجعلوا يقتحمون الدور ويغلقون أبوابهـا ، ويطرحـون السلاح في الأسواق فيأخذها المسلمون ، ثم أتوا خندمة ، فلقي خالد صفوان بن أمية وعكـرمة بن أبي جهـل ، وسهيـل بن عمـرو ، ومَن تجمّـع معهم القتـال المسلمين ، فوضع السيف فيهم ، فلم يثبتوا إلا قليلاً ، وانهزموا شر هزيمة بعد أن قتل منهم ثلاثة عشر وقتل من المسلمين سلمة بن الميلاء الجهني ، ثم انهزم حِمَاس بن قيس حتى دخل بيته ، ثم قال لامرأته اغلقي الباب علّي . قالت : فأين ما كنت تقول ؟ فأين الخدم الذي أوعدت أن تأتني بهم من أصحاب محمد ؟ فقال لها :

إنّـكِ لـو شَهِـدتِ يـوم الخنـدمَـهْ　　إذ فَـرَّ صفـوانُ ، وفَـرَّ عِكْـرمَـهْ
وأبـو يـزيـدَ قـائم كـالمؤتِمَـهْ(٢)　　واستقبَلَتْهُمْ بـالسُّيـوف المسْلِمَـهْ

---

(١) وكانت سوق بمكة جهة السوق الصغير مما يلي باب الوداع .

(٢) أيتمت المرأة فهي مؤتم : قتل زوجها فبقي أولادها أيتـاماً . وقـوله المسلمـة : المسلمون ، والغمغمة : الأصوات التي لا تفهم من اختلاطها . والنهيت : صوت

يقطعْنَ كلّ ساعد وجُمْجُمَهْ   ضَرْباً فلا يُسْمَع إلاّ غَمْغَمَهْ
لهمْ نهيتٌ خَلْفَنا وهَمْهَمَهْ   لم تنطِقي في اللّوم أدنى كلمَهْ

وكان شعار رسول الله ﷺ يوم الفتح ، وحنين ، والطائف ، لأصحابه المهاجرين (يا بني عبد الرحمن) وشعار الخزرج (يا بني عبد الله) وشعار الأوس (يا بني عبيد الله) .

وكان قد عهد رسول الله ﷺ إلى أمراء المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكّة أن يقتلوا أناساً وإن وُجِدوا تحت أستار الكعبة ، منهم :

(١) عبد الله بن سعد أخو بني عامر بن لؤي ، لأنه قد أسلم ، وكان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فارتد مشركاً ورجع إلى قريش ، وكان أخا عثمان بن عفّان من الرضاع ، فأخذه عثمان وغيبه حتى أتى رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن الناس وأهل مكّة فاستأمن له ثم أسلم .

(٢) عبد العزى بن خطل التميمي ، وذلك أنه أسلم فبعثه رسول الله ﷺ مصدقاً[٢] وبعث معه رجلاً من الأنصار وكان معه مولى له يخدمه وكان مسلماً ، فنزل منزلاً وأمر المولى أن يذبح له تيساً فيصنع له طعاماً ، فنام فاستيقظ ولم يصنع له شيئاً ، فعدا عليه فقتله ، ثم ارتد مشركاً . ولما دخل رسول الله ﷺ إلى ذي طُوى أقبل ابن خطل من أعلى مكّة مدججاً في الحديد على فرس وبيده قناة ، فمر ببنات سعيد بن العاص فقال لهن : أما والله لا يدخلها محمد حتى ترين ضرباً كأفواه المزاد[١] . ثم خرج حتى انتهى إلى الخندمة فرأى خيل الله ورأى القتال فدخله رعب حتى ما

الصدر . والهمهمة : الكلام الخفي .

(١) أي آخذاً لصدقات النعم .

(٢) يريد ضرباً ينفجر منه الدم كما ينفجر ماء القرب .

يستمسك من الرعدة فرجع حتى انتهى إلى الكعبة ، فنزل عن فرسه وطرح سلاحه وأتى البيت فدخل تحت أستاره ، فأخذ كعب أحد بني عامر سلاحه وأدرك فرسه عابراً فاستوى عليه ولحق برسول الله ﷺ بالحجون فقال له : ابن خطل متعلق بأستار الكعبة ، فقال رسول الله ﷺ « اقتلوه »[1] . وكانت قينتان[2] لابن خطل أحداهما (فَرْتَنِي) والأخرى (فريبة) ، وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ ، فأمر بقتلهما جميعاً .

(٣) الحويرث بن نُقَيد بن وهب ، وذلك أن العباس بن عبد المطلب حمل فاطمة ، وأم كلثوم ، بنتي رسول الله ﷺ من مكّة يريد بهما المدينة على بعير ، فنخس الحويرث البعير فرمى بهما إلى الأرض ، وقد كان يؤذي النبي ﷺ بمكّة أيضاً ، فبينما هو في منزله قد أغلق عليه بابه فسأل عنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقيل هو بالبادية ، فأخبر الحويرث أنه يُطلب ، فتنحى عليّ عن بابه فخرج الحويرث يريد أن يهرب من البيت فتلقاه عليّ فضرب عنقه .

(٤) مِقْيَس بن صُبَابة ، وذلك لقتله الأنصاري الذي قتل أخاه[3] خطأ بعد أن أخذ ديته ورجع إلى مكّة مشركاً ، فقتله نُمَيْلة بن عبد الله .

(٥) سارة ، مولاة لبعض[4] بني عبد المطلب ، وكانت مغنّية نوّاحة بمكّة ، وكانت قدمت على رسول الله ﷺ قبل الفتح فطلبت منه الصلة

---

(١) على الأرجح قتله أبو برزة (بفتح الموحدة وسكون الراء وفتح الزاي آخره هاء (واسمه نضلة بن عبيد على الأصح .

(٢) تثنيه قينة الأمة غنت أم لم تغن ، وكثيراً ما يطلق على المغنية .

(٣) هشاماً في غزوة ذي قرد ظنه من العدو .

(٤) ويقال في تعيين هذا البعض كانت مولاة عمرو بن صيفي بن هاشم . قال ابن اسحق : وتعبت حتى أوطأها رجل فرساً بالأبطح فقتلها في زمن عمر .

وشكت الحاجة ، فقال رسول الله ﷺ : « ما كان في غنائك ما يغنيك ؟ » قالت : إن قريشاً ، منذ قُتِلَ مَن قُتِل منهم ببدر تركوا الغناء ، فوصلها رسول الله ﷺ وأوقر لها بعيراً طعاماً ، فرجعت إلى قريش ، وكان ابن خطل يلقي عليها هجاء رسول الله ﷺ فتغني به ، وهي التي وجد عندها كتاب حاطب بن أبي بلتعة فأسلمت وعاشت إلى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٦) عكرمة بن أبي جهل ، فهرب إلى اليمن ، وأسلمت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، فاستأمنت له من رسول الله ﷺ فأمّنه ، فخرجت في طلبه إلى اليمن حتى أتت به رسول[١] الله ﷺ ، فأسلم . وأما عبد الله بن خطل فقتله سعيد بن الحارث المخزومي ، وأبو برزة الأسلمي ، اشتركا[٢] في قتله . وأما قينتا ابن خطل (فرتني) ، و (فريبة) ، فقُتِلَتْ فريبة واستؤمنت الأخرى .

(٧) هبار بن الأسود ، فكان شديد الأذى للمسلمين ، وعرض لزينب بنت رسول الله ﷺ لما هاجرت فنخس بعيرها فأسقطت جنينها ، ولم يزل ذلك المرض بها حتى ماتت ، فهدر دمه فأعلن إسلامه[٣] ، فقبل منه وعفا عنه .

(٨) الحارث بن طلاطل الخزاعي ، قتله علي بن أبي طالب .

(٩) كعب بن زهير ، كان يهجو النبي ﷺ ويحرِّض المشركين بشعره ، فهدر دمه ، فجاء بعد ذلك إلى المدينة وامتدح رسول الله ﷺ بقصيدته

---

(١) قال الزهري وابن عقبة : فلما رآه رسول الله ﷺ وثب إليه فرحاً به فوقف بين يديه ومعه زوجته متنقبة .

(٢) سبق أن الأرجح قتله أبو برزة مباشرة ، وتحمل بقية الروايات على الابتداء دونها .

(٣) أسلم بالجعرانة بعد الفتح .

المشهورة (بانت سعاد) ، وأسلم .

(١٠) وحشي بن حرب ، قاتل حمزة بن عبد المطلب ، هـرب إلى الطائف ، ثم أسلم بعد ذلك .

(١١) هند بنت[٢] عتبة ، امرأة أبي سفيان آكلة كبد حمزة في أُحُد ، نجت بالإسلام .

(١٢) ارنب ، مولاة ابن خطل ، قُتِلَتْ .

(١٣) أم سعد ، إحدى القينتين ، قُتِلَتْ .

فعدة مَن أهدر دمه ثمانية رجال ، وست نسوة ، سلم معظمهم من القتل بعفو رسول الله ﷺ ودخولهم في الإسلام .

فجاء إلى رسول الله ﷺ أبو سفيان ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء ، فقالوا : يا رسول الله هلكت قريش ، لا قريش بعد اليوم . قال : « ولِمَ ؟ » قالوا : خالد بن الوليد لا يلقى أحداً من الناس إلا قتله . فقال لرجل من الأنصار عنده : « يا فلان » . قال : لبيك يا رسول الله . قال : « ائت خالد بن الوليد وقل له إن رسول الله يأمرك أن لا تقتل بمكّة أحداً » . فجاء الأنصاري فقال لخالد : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تقتل من لقيت من الناس . فاندفع خالد فقتل سبعين رجلاً . فجاء إلى النبي ﷺ ، فأخبره أنه لا يزال خالد يقتل في الناس ، فقال ﷺ : « ادع لي خالداً » . فدعاه له ، فقال ﷺ : « يا خالد ألم أرسل إليك أن لا تقتل أحداً ؟ » قال : بل أرسلت أن أقتل مَن قدرت عليه . فقال رسول الله ﷺ : « ادع لي الأنصاري » . فدعاه له ، فقال ﷺ : « أما أمرتك أن تأمر خالداً أن لا يقتل

---

(١) روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها ، قالت هند بن عتبة : يا رسول الله ما كان لي على ظهر الأرض من أهل خباء أريد أن يذلوا من أهل خبائك ثم ما أصبح اليوم على وجه الأرض أحب إلي من أن يفروا من أهل خبائك .

أحداً ». قال : بلى ، ولكنك أردت أمراً ، وأراد الله غيره . فسكت رسول الله ﷺ ولم يقل للأنصاري شيئاً ، فقال رسول الله ﷺ لخالد : « كُفّ عن الطلب » . قال : قد فعلت : فقال رسول الله : « قضى الله أمراً » . ثم قال : « كُفّوا السلاح إلا خزاعة عن بني بكر إلى صلاة العصر » وهي الساعة التي أحلت لرسول الله ﷺ . قالت أسماء ابنة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما : لما وقف رسول الله ﷺ بذي طُوى قال أبو قحافة ـ والد أبي بكر الصدّيق ـ لابنة له من أصغر ولده : أي بُنَيّة ، اظهري بي على أبي قبيس . قالت : وقد كفّ بصره ، فأشرفت به عليه . فقال : أي بُنَيّة ماذا ترَيْن ؟ قالت : أرى سواداً مجتمعاً . قال : تلك الخيل . قالت : وأرى رجلاً يسعى بين يدي ذلك السواد ، مُقْبِلاً ومُدْبِراً . قال أي بُنَيّة ذلك الوازع ـ يعني الذي يأمر الخيل ـ . ثم قالت : قد والله انتشر السواد . فقال : والله اذن دفعت الخيل فأسرعي بي إلى البيت . فانحطت به تلقاء الخيل قبل أن يصل إلى بيته ، قالت : وفي عنق الجارية طوق من وَرِق ـ أي في عنق بنت أبي قحافة طوق من فضة ـ فلقيها رجل فقطعه من عنقها . فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد أتى أبو بكر بأبيه يقوده ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتية فيه ؟ » قال أبو بكر : يا رسول الله هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت : قال ، فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره ثم قال له : « أسلم » ، فأسلم ، فدخل به أبو بكر وكان رأسه ثغامة ـ شديد البياض ـ فقال رسول الله ﷺ « غيروا هذا من شعره » ، ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته ـ أم فروة ـ وقال : أنشد الله والإسلام طوق أختي ؟ فلم يجبه أحد . فقال : أي أخيّة احتسبي طوقك فوالله إن الأمانة في الناس اليوم القليل . قالت أم هانيء ابنة أبي طالب[1] : لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكّة ، فَرّ إليّ رجلان من

(١) الهاشمية فأخته ، وقيل هند وقيل فاطمة ، أسلمت عام الفتح وصحبت ولها

أحمائي ـ وهما الحارث بن هشام ، وزهير بن أبي أمية بن المغيرة ـ من بني مخزوم ، وكانت أم هانيء زوج هبيرة بن أبي وهب المخزومي ، قالت : فدخل عليّ علي بن أبي طالب أخي فقال : والله لأقتلنهما . فأغلقتُ عليهما باب بيتي ثم جئت رسول الله ﷺ بأعلا مكّة ، فوجدته يغتسل ، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به ثم صلى ثمان ركعات من الضحى ثم انصرف إلى فقال : « مرحباً وأهلاً بأم هانيء ، ما جاء بك ؟ » فأخبرته خبر الرجلين وخبر علي فقال : « قد أجرنا من أجرتِ وآمنا من آمنتِ فلا يقتلهما » . وقد قُتِل من خيل خالد بن الوليد رضي الله عنه ، يومئذ ، رجلان : حبيش بن الأشعر ، واسمه خالد بن سعد بن منقذ الخزاعي ، وكرز بن جابر الفهري ، وكان من رؤساء المشركين وهو الذي أغار على سرح النبي ﷺ في غزوة بَدْر الأولى ، ثم أسلم بعد ذلك ، وأمّره رسول الله ﷺ على البعثة التي خرجت في طلب العرنيين ، والسبب في قتلهما أن الرجلين سلكا طريقاً فشذّا عن عسكر خالد فقتلهما المشركون .

طريقه ﷺ إلى المسجد الحرام

ثم نهض رسول الله ﷺ وأقبل من أعلى مكّة على راحلته مردفاً أسامة بن زيد ومعه بلالٍ وعثمان بن طلحة الحجبي والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله ، فلما ظهر على أذاخر نظر إلى البارقة مع فضض المشركين فقال : « ما هذه البارقة ألم أنْهَ عن القتال » . قالوا : يا رسول الله خالد بن الوليد قُوتِلَ ولم يُقَاتَلَ ما قاتل ، وما كان يا رسول الله ليعصيك ولا يخالف أمرك . فقال رسول الله ﷺ : « قضاء الله خير » . ثم لما رأى بيوت مكّة وقف عليها فحمد الله وأثنى عليه وسلّم ، ونظر إلي موضع قبّته

أحاديث ، ماتت في خلافة معاوية وكنيت بابن لها يسمى هانئاً .

فقال : « هذا منزلنا يا جابر حيث تقاسمت قريش علينا في كفرها » فقال أسامة بن زيد رضي الله عنه ، وكان ردف (خلف) رسول الله ﷺ : يا رسول الله أين تنزل غداً ، أتنزل في دارك ؟ فقال : « وهل ترك لنا عقيل من رباع[1] أو دار » . وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب ، ولم يرثه جعفر ولا علي رضي الله عنهما لأنهما كانا مسلمين ، وكان عقيل وطالب كافرَيْن ، وأسلم عقيل بعد ذلك ، وكان عقيل قد باع منزل رسول الله ﷺ ومنزل إخوته من الرجال والنساء بمكّة ، فقيل لرسول الله ﷺ فانزل في بعض بيوت مكّة غير منازلك ، فأبى رسول الله ﷺ وقال : « لا أدخل البيوت » . فأتى رسول الله ﷺ المسجد فدخله ، وأقبل على الحجر الأسود فاستلمه بمحجنه[1] وكبّر ، وكبّرَ المسلمون لتكبيره ، فرجعّوا التكبير حتى ارتجت مكّة تكبيراً حتى جعل رسول الله ﷺ يشير إليهم أن اسكتوا ، والمشركون فوق الجبال ينظرون ، ثم طاف بالبيت على راحلته القصواء[2] ومحمد بن مسلمة آخذ بزمام الناقة ، ولم يكن ﷺ يومئذ محرماً[3] وفي يده

---

(١) جمع ربع (بفتح الراء وسكون الموحدة) : وهو المنزل المشتمل على أبيات ، وقيل للدار ، وعليه قوله أو دار إما للتأكيد أو من شك الراوي ، قاله الحافظ .

(٢) المحجن : عصا محنية الرأس .

(٣) قوله طاف على راحلته ، وفي شرح البهجة قال هذا خلاف ما في الصحيحين . وسنن أبي داود والترمذي والنسائي عن ابن عباس أن ذلك إنما كان في حجة الوداع لا يوم الفتح اهـ . وأقول ويوم الفتح أيضاً ، فقد روى أبو داود عن صفية بنت شيبة قالت : لما اطمأن رسول الله ﷺ بمكة عام الفتح طاف على بعيره يستلم الركن بمحجن في يده ، قالت ، وأنا أنظر إليه اهـ . ولماذا طاف ﷺ راكباً يبين سببه ما جاء عن جابر رضي الله عنه قال : طاف رسول الله ﷺ بالبيت وبالصفا والمروة في حجة الوداع على راحلته يستلم الركن بمحجنه لأن يراه الناس وليشرف ويسألوه فإن الناس غشوه .

(٤) وروى ابن أبي رشيد باسناد صحيح عن طاووس قال : لم يدخل النبي ﷺ مكة محرماً إلا يوم فتح مكة .

قوس ، وكان حول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنماً مشدودة بالرّصاص ، فجعل يطعنها بالقوس ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً . جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » ، والأصنام تتساقط على وجوهها ، فلما أكمله[1] أتى إلى المقام ، وهو يومئذ لاصق[2] بالكعبة ،

---

(١) ونزل عن راحلته جاء معمر بن عبد الله فأخرج راحلته وأتى إلى المقام لصلاة الركعتين .

(٢) ولما لم يرد خبر عن رسول الله ﷺ صرح مرفوع يعلم منه موضع المقام من عهد إبراهيم الخليل إلى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فقد جرى في ذلك الخلاف على خمسة أقوال ذكرها العلامة السنجاري في كتابه المخطوط المسمى منائح الكرم نقلاً عن العلامة ابن الجزري الشافعي الذاكر لها في مؤلف أفرده بذكر المقام ، أولها أن عمر أول من أمر أي بنقله إلى هذا الموضع ، وخامسها أن المقام كان في موضعه هذا زمن إبراهيم وهو على ذلك إلى سيل أم نهشل فأعاده عمر إلى محله الذي كان فيه . وقلت : وقد أفرده بالتأليف الشيخ عبد الرحمن المعلمي أمين مكتبة الحرم الملكي المتوفى بمكة سنة ١٣٨٦ هـ سماه مقام إبراهيم ، وتصدى للرد عليه في تأليف خاص الشيخ سليمان بن عبد الرحمن بن حمدان المدرس بالحرم المكي « نقض المباني في فتوى اليماني » ، ولما اطلع عليه مفتي الديار السعودية الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ تعقبه بتأليف سماه « نصيحة الأخوان » ، وتعقبه أيضاً الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود بتأليف سماه « تحقيق المقال في جواز تحويل المقام » . وجميع هذه المؤلفات ظهرت مطبوعة ؛ وبهذه المناسبة أقول إن رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة بعلمائها الكرام من شتى الأقطار الإسلامية قد قررت نقل قبة المقام بعواميدها ومظلتها ومقصورتها النحاسية المربعة لكونها حادثة لا يترتب على ازالتها أي ضرر ، بل وفي ذلك حفظ على أرواح الطائفتين من شدة الزحم الحاصل زمن موسم حج كل عام لما في بقائها من الضيق ، وتضايق الطائفين لأخذها مساحة كبيرة لوقوعها وسط صحن المطاف ، وهذا مع إبقاء نفس المقام بموضعه الحال واتخاذ ما يحفظه ويرعاه ، وقد نال هذا القرار عطف ملك المملكة العربية السعودية فيصل المعظم الذي يسعى بجهوده الجبارة في الحفاظ على المشاعر المقدسة بكل ما أمكن وأداء الحج والعمرة بتمام الإطمئنان والراحة .

في رواية ، وفي رواية أخرى أنه في موضعه الذي فيه اليوم وعليه الدرع والمغفر[1] وعمامته بين كتفيه ، فصلّى ركعتين ، ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها وقال : « لولا أن تغلب بنو عبد المطلب لنزعت منها دلواً » ، فنزع له العباس بن عبد المطلب دلواً ، فشرب منه وتوضأ والمسلمون يبتدرون وضوء رسول الله ﷺ يصبونه على وجوههم ، والمشركون ينظرون إليهم ويتعجبون ويقولون : ما رأينا مَلِكاً قط أبلغ من هذا ولا سمعنا به .

وأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أن يدخل الكعبة فيمحو ما كان منقوشاً من التماثيل ويخرج ما كان مجسماً ، وكان في الكعبة صورة إبراهيم ، وإسماعيل ، وفي أيديهما الأزلام[2] ، فقال رسول الله ﷺ : « قاتلهم الله لقد علموا ما استقسا بها قط » . فأخرجهما عمر بن الخطّاب . وكان من الصور التي كانت في جوف الكعبة صورة عيسى وأمه ، ولما أخرج عمر بن الخطّاب رضي الله عنه الأوثان والأصنام وصار يلقيها على الأرض ، قال الزبير بن العوام رضي الله عنه لأبي سفيان بن

---

(١) الدرع : ما يلبس من الحديد كالثوب ، والمغفر : زرد بنسج من زرد الدروع على قدر الرأس ، وفي المحكم هو ما يجعل من فضل درع الحديد على الرأس القلنسوة ، وقوله : وعمامته ، يريد أنه ﷺ كانت عليه عمامة سوداء قد أرخى طرفها بين كتفيه وكونها سوداء إشارة إلى أن هذا الدين لا يغير كما أن السواد لا يقبل التغيير ، بل جميع الألوان ترجع إليه ولا يرجع هو إلى لون منها .
قال السندي في حاشيته على النسائي بعدم تعارض حديث المغفر والعمامة لإحتمال أن تكون العمامة فوق المغفر أو بالعكس ، أو كان دخوله على رأسه المغفر ثم أزاله ولبس العمامة بعد ذلك .

(٢) الأزلام جمع زلم (بضم الزاي ، ويقال بفتحها ، واللام مفتوحة فيهما) : وهو السهم . فهم يستقسمون بها ، في الخير والشر ، مكتوب عليها : افعل ، لا تفعل ، فإذا أراد أحدهم فعل شيء أخرج واحداً منها فإن خرج الأمر قضى بشأنه وإن خرج النهي كف .

حرب : قد كسر هُبل ، أما أنك قد كنت في يوم أُحد في غرور حين تزعم أنه قد أنعم . فقال أبو سفيان : دَعْ هذا عنك يا ابن العوَّام ، فقد أرى لو كان مع إله محمد ﷺ غيره لكان غير ما كان ، وكان على سطح الكعبة صنم لخزاعة من قوارير ـ زجاج[1] ـ أصفر فقال رسول الله ﷺ : « يا علي إرم به » . فحمل رسول الله ﷺ علياً حتى أصعده ، فرمى بالصنم فكسره فجعل أهل مكّة يتعجبون ويقولون : ما رأينا أسحر من محمد . كذا في سبيل الهدى والرشاد .

فأمر رسول الله ﷺ عثمان بن طلحة الحجبي أن يأتي بمفتاح البيت ، وكان عثمان أودع مفتاح الكعبة عند أمه سلافة بنت سعيد يوم هاجر إلى المدينة مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، فجاء عثمان إلى أمّه فقال لها : ادفعي إليّ المفتاح فإن رسول الله ﷺ أمرني أن آتيه به ، فقالت أمه : لا واللات والعزى لا أدفعه إليك أبداً ، فقال عثمان : لا لات ، ولا عزّى ، إنه قد جاء أمر غير ما كنا عليه ، وإنكِ إن لم تفعلي قُتِلْت أنا وأخي ، فأنتِ قتلتنا ، ووالله لتدفعنه أو ليأتينّ غيري فيأخذه منك . فقالت أمه : إن أخذه منكم لا يعطيكموه أبداً . فأبطأ عثمان على رسول الله ﷺ وهو قائم ينتظره حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق ويقول : « ما يحبسه ؟ » . فسعى إليه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما . فبينما عثمان وأمه على ذلك الحال وهو يكلمها إذ سمعتْ صوت أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في الدار وعمر رافع صوته يقول : يا عثمان أخرج . فقالت أمه :

---

(١) من قوارير صفر (بضم الصاد وكسرها) لغة : نحاس على شكل القوارير جمع بعضها إلى بعض . وفي حديث علي : وكان من نحاس موتداً بأوتاد من حديد إلى الأرض ، وعلى هذا فلينظر قول المؤلف من زجاج أصفر حيث لا تلاؤم بينهما أي الزجاج والنحاس .

يا بُني خذ المفتاح ، فإن تأخذه أنت أحب إليّ من أن يأخذه تيم وعدي - تعني أبا بكر وعمر - ، فأخذه عثمان فجاء به ففتَح فدخل رسول الله ﷺ[1] ومعه أسامة بن زيد ، وبلال ، وعثمان بن طلحة ، فمكث فيها نهاراً طويلاً ، فوجد بقية آثار الصور ، وهي صور إبراهيم ، وإسماعيل ، ومريم ، وعيسى ، وصور الملائكة ، ووجد صورة حمامة من عيدان ، فأمر رسول الله ﷺ أسامة بن زيد أن يأتيه بدلو من ماء فأتاه فجعل يمحوها ويقول : « قاتلهم الله حيث جعلوا شيخاً يستقسم بالأزلام ، ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » ، وكسر الحمامة ثم أغلق الباب عليه ، وعلى أسامة ، وبلال ، وعثمان بن طلحة ، فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب حتى إذا كان بينه وبينه قدرْ ثلاثة أذرع وقف وصلّى هناك ، ثم دار في البيت وكبّر في نواحيه ووحّد الله ، ثم فتح الباب وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينتظرون ماذا يصنع ، فأخذ بعضاضتي الباب ، وهُمْ تحته ، فقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مَأْثُرَة أو مال أو دم يدَّعي فهو تحت قدميّ هاتين إلا سِدَانة البيت وسِقَاية الحاج ، ألَّا وقتيلُ الخطأ شبه العمد ، بالسوط ، والعصا ، ففيه الدية مُغلطة مائة من الإبل أربعون منها في بطونها أولادها ، يا معشر قريش إن الله قد أذهب

---

(١) وروى أبو داود الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت : خرج رسول الله ﷺ من عندي وهو مسرور ، ثم رجع وهو كئيب ، فقال : إني دخلت الكعبة ولو استقبلت من أمري ما استدبرت ما دخلتها ، إني أخاف أن أكون قد شققت على أمتي .
ولفظ الترمذي : وددت أني لم أكن فعلت إني أخاف أن أكون قد أتعبت أمتي من بعدي . وفي الهدى : أن دخوله البيت في غزاة الفتح لا في حجة ولا في عمرة .
وفي صحيح البخاري عن إسماعيل بن أبي خالد قال قلت لعبد الله بن أبي أوفى أدخل النبي ﷺ في عمرته البيت قال : « وسألته عائشة أن تدخل البيت فأمرها أن تصلي في المحجر ركعتين .

عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم ، وآدم من تراب » . ثم تلا ﷺ هذه الآية : ﴿ يَا أَيها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ . ثم قال : « يا مَعْشر قريش ما ترونَ إني فاعل بكم ؟ » قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : « فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته ، لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطُلَقَاء » ، وفي البخاري أن النبي ﷺ قال في خطبة الفتح : « إن مكّة حرَّمها الله ولم يحرِّمها الناس ، لا يحل لامرىء يؤمن بالله وباليوم الآخر أن يَسْفِك بها دَماً ولا يَعْضِد بها شجراً ، فإن أحد ترخصَّ لقتال رسول الله فيها فقولوا له إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم ، وإنما أذن له فيه ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلغ الشاهد الغائب .

ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد فقام إليه علي[1] بن أبي طالب رضي الله عنه ومفتاح الكعبة في يده ، فقال : يا رسول الله اجمع لنا الحجابة[2] مع السِقاية صلى الله عليك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أين عثمان بن طلحة » ، فدعي له ، فقال له : « هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء » . وفي (الطبقات) لابن سعد عن عثمان بن طلحة قال : كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الاثنين والخميس ، فأقبل رسول الله ﷺ يوماً يريد أن يدخل الكعبة مع الناس فأغلظت له فنلت منه فحلُم عني ثم قال : « يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يوماً بيدي أضعه حيث شئت » ، فقلت : لقد هلكت قريش يومئذ وذلَّت . فقال : « بل عمرت وعزَّت

(١) سؤاله لهما ليس لنفسه بل لعمه فلا ينافيه طلب العباس لهما .

(٢) هي سدانة البيت : أي خدمته وتولي أمره وفتح بابه وإغلاقه . والسقاية : هي أحواض من أدم يوضع فيها الماء العذب لسقاة الحاج ، وقد يطرح فيه التمر والزبيب ، فعل ذلك عبد المطلب لما حضر زمزم وقام بها بعده العباس .

يومئذ » ، ودخل الكعبة ، فوقعت مني موقعاً ظننت يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال ، فلما كان يوم الفتح قال « يا عثمان ائتني بالمفتاح » فأتيته به فأخذه مني ثم دفعه إليّ وقال : « خذوها خالدة تالدة[1] ، لا ينزعها منكم إلا ظالم ، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف » ، قال : فلما وليّت ناداني ، فرجعت إليه ، فقال : « ألم يكن الذي قلت لك » ، قال : فذكرت قوله لي بمكّة قبل الهجرة « لعلك سترى هذا المفتاح بيدي أضعه حيث شئت » ، فقلت : بلى ، أشهد أنك رسول الله . وذكر الحافظ ابن حجر في (فتح الباري) من رواية ابن عائذ أن النبي ﷺ دفع مفتاح الكعبة إلى عثمان فقال : « خذوها خالدة مخلدة إني لم أدفعها إليكم ولكن الله دفعها إليكم ولا ينزعها منكم إلا ظالم » . ومن طريق ابن جريج أن علياً قال للنبي ﷺ : اجمع لنا الحجابة والسقاية فنزلت : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** ﴾ فدعا عثمان بن أبي طلحة فقال : « خذوها يا بني شيبة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم[2] . ومن طريق علي بن أبي طلحة أن النبي ﷺ قال : « يا بني شيبة كلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف » . وكان العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ممن تطاول يومئذ لأخذ المفتاح في رجال من بني هاشم ، ولكن إرادة الله تعالى فوق كل إرادة .

ثم أتى رسول الله ﷺ الصفا فعلاه حيث يرى من موقفه الكعبة ، فرفع يديه فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره ويدعوه ، والأنصار تحته ، فقال الأنصار فيما بينهم : أتَرون أن رسول الله ﷺ إذا فتح الله أرضه وبلده

---

(١) أي مقيمة ، ولا ينزع هذه السدانة منهم إلا ظالم ، وهم يجب عليهم أن يأكلوا بالمعروف مما يصل إليهم بسبب خدمة البيت من التبرعات والصلة .

(٢) قال العلماء فيحرم أن ينزعها أحد منهم لأنها ولاية لهم من رسول الله ﷺ فتبقى دائمة لهم لا ينازعون فيها ولا يشاركون ما دام فيهم صالح .

يقيم بها . فلما فرغ رسول الله ﷺ قال للأنصار : « ماذا قلتم ؟ » قالوا : لا شيء يا رسول الله . فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال ﷺ : « معاذ الله ، المحيا محياكم ، والممات مماتكم » .

ثم أمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يصعد على الكعبة فيؤذّن وكان أبو سفيان بن حرب ، وعتاب بن أَسِيد ، والحارث بن هشام ، وأشراف قريش جلوساً بفناء الكعبة ، فقال عتاب : لقد أكرم الله أَسِيداً أن لا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه . وقال الحارث : أما والله لو أعلم أنه حق لاتبعته ، أمَا وجَدَ محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذّناً . وقال آخر من قريش : لقد أكرم الله فلاناً - يعني أباه - إذ قبضه قبل أن يرى هذا الأسود على ظهر الكعبة . وقال آخر منهم : والله الحدث الأعظم أن يصبح عبد بني جمع ينهق على البيت . فقال أبو سفيان : أما والله لا أقول شيئاً ، لو تكلمت لأخبرتْ عني هذه الحصباء[1] . فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال لهم : « لقد علمت الذي قلتم » ، ثم ذكر ذلك لهم فقال : « أما أنت يا فلان فقد قلت كذا ، وأما أنت يا فلان فقد قلت كذا ، وأما أنت يا فلان فقد قلت كذا » . فقال أبو سفيان : أما أنا يا رسول الله فما قلت شيئاً . فضحك رسول الله ﷺ . وقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ، والله ما اطلع على هذا أحد منا فنقول أخبرك . فنظر أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ وقال في نفسه : ليت شعري بأي شيء غلبني . فأقبل رسول الله ﷺ حتى ضرب يده بين كتفيه فقال : « بالله غلبتك يا أبا سفيان » . فقال أبو سفيان : أشهد أنك رسول الله .

وصار بعض فتيان قريش يقلدون صوت بلال رضي الله عنه استهزاء وغيظاً ، وكان من جملتهم أبو محذورة أوس بن معير ، الجمحي ، وكان

---

(١) هي الحصى الصغار .

من أحسنهم صوتاً ، فلما رفع بالأذان مستهزئاً سمعه رسول الله ﷺ فأمر به فمثُل بين يديه وهو يظن أنه مقتول ، فمسح رسول الله ﷺ ناصيته وصدره بيده الشريفة ، قال أبو محذورة : فامتلأ قلبي والله إيماناً ويقيناً فعلمت أنه رسول الله ﷺ . فألقى عليه الأذان وعلّمه إياه وأمره أن يؤذن لأهل مكّة ، وكان سنّه ست عشرة ، وعاش إلى سنة تسع وسبعين من الهجرة ، وصار أذان مكّة ، من بعده ، في عقبه يتوارثون الأذان .

ثم دخل رسول الله ﷺ دار أم هانىء بنت أبي طالب فاغتسل وصلى ثماني ركعات في بيتها ، وكان ضحى ، فظنها من ظنها صلاة الضحى ، وإنما هذه صلاة الفتح . وكان أمراء الإسلام ، إذا فتحوا حصناً أو بلداً ، صلّوا عقيب الفتح هذه الصلاة اقتداء بررسول الله ﷺ . وفي القصة ما يدل على أنها بسبب الفتح شكراً لله تعالى عليه فإنها قالت : ما رأيته صلى قبلها ولا بعدها . كذا قاله الحافظ ابن القيم في (زاد المعاد) .

خطبة الفتح

فلما كان الغد ، من يوم الفتح ، قام رسول الله ﷺ في الناس خطيباً ، فحمد الله تعالى وأثنى عليه ومجدّه بما هو أهله ، ثم قال : « أيها الناس ، إن الله حرَّم مكّة يوم خلق السموات والأرض ولم يحرمها الناس ، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، فلا يحلّ لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً أو يعضد بها شجرة ، فإن أحداً ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا إن الله أذن لرسوله ﷺ ولم يأذن لكم وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلغ الشاهد الغائب » . وقال ﷺ يوم الفتح : « إن الله حبس عن مكّة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنها لن تحل لأحد كان قبلي وإنها أحلت لي ساعة من نهار ، وإنها لن تحل لأحد بعدي فلا ينفر صيدها ولا يختلى

شوكها ولا تحل ساقتها إلا لمنشد ، ومَن قُتِل له قتيل فهو بخير النظرين ، إما أن يُفْدى وإما أن يُقْتَل ». فقال العباس رضي الله عنه : إلّا الأذخر يا رسول الله فإنا نجعله في قبورنا وبيوتنا . فقال رسول الله ﷺ : « إلا الأذخر » . فقال أبو شاه ، رجل من اليمن ، : أكتبها يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : « اكتبوا لأبي شاه » (يعني خطبته هذه) ـ كل ذلك ورد في الصحيحين ـ . وفي مسلم قال ﷺ يوم الفتح : « لا هجرة ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا » . وقال ﷺ يوم الفتح : « إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطه إلا من عرفها ولا يختلى خلاها » . فقال العباس : يا رسول إلا الأذخر فإنه لقينهم ـ القين الصائغ والحداد ـ ولبيوتهم . فقال : « إلا الأذخر » . وبيّن رسول الله ﷺ في خطبته جملة أحكام ، منها أن لا يُقْتَل مسلم بكافر ، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين ، ولا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ، والبيّنة على المدعي واليمين على مَن أنكر ، ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاث ليال إلا مع ذي محرم ، ولا صلاة بعد العصر ولا بعد الصبح ، ولا يصام يوم الأضحى ولا يوم الفطر .

فلما كان الغد من يوم الفتح أتى ابن الأثوع الهذلي حتى دخل مكّة ينظر ويسأل عن أمر الناس وهو على شركه ، فرأته خزاعة فعرفوه ، وكان قد قتل (أحمر) من[1] شجعان خزاعة فاحتاطوا به فقالوا له : أنت قاتل أحمر ؟ قال : نعم . فأقبل خراش بن أمية الخزاعي ، حلّاق رسول

---

(١) وكان إذا نام غط غطيطاً منكراً ، يبيت في حيه معتزاً ، وكان يثور كالأسد إذا نودي يا أحمر لا يقوم لسبيله شيء . فأقبل غزي من هذيل يريد حاضره حتى إذا دنوا من الحاضر استمهلهم الأثوع الهذيلي لينظر الأحمر فإن وجد فلا سبيل إليهم ، فلما سمع غطيطه مشى إليه ووضع السيف في صدره فقتله وحينئذ أغاروا على الحاضر .

الله ﷺ ، وهو مشتمل على سيفه ففرج الناسَ عن ابن الأثوع الهذلي فحمل عليه فطعنه بالسيف في بطنه ، فقال له ان الأثوع الهذلي فحمل عليه فطعنه بالسيف في بطنه ، فقال له ابن الأثوع : أقد فعلتموها يا معشر خزاعة . فوقع قتيلاً . فبلغ رسول الله ﷺ ذلك فقال : « يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل فقد كثر القتل إن نقع لقد قتلتم قتيلاً لأدِيَنّه ، فمن قتل بعد مقامي هذا فأهله بخير النظرين : إن شاءوا قدم قاتله وإن شاءوا فعقله » . ثم ودى رسول الله ﷺ ذلك الرجل .

بيعة الفتح

ثم جلس رسول الله ﷺ للناس في المسجد يبايعونه على الإسلام ، وقال لعمه العباس : « أين ابنا أخيك لا أراهما ؟ » يعني عتبة ، ومعتب ، ابني أبي لهب ، فقال العباس رضي الله عنه : قد تنحيا فيمن تنحى من مشركي قريش ، قال : « ائتني بهما » ، فركب إليهما إلى عرفة فأتى بهما ، فدعاهما للإسلام ، فأسلما ، فسُرّ رسول الله ﷺ بإسلامهما ودعا لهما ، ثم قام رسول الله ﷺ وأخذ بأيديهما وانطلق بهما حتى أتى الملتزم فدعا ساعة ثم انصرف والسرور يُرى في وجهه . قال العباس له : سَرّك الله يا رسول الله ، إني أرى السرور في وجهك قال : « إني استوهبت ابني عمي هذين من ربي فوهبهما لي » وشهدا معه حنيناً والطائف ، ولم يخرجا من مكّة ولم يأتيا المدينة ، وقلعت عين معتب في حنين . فهذا معتب وأخوه عتبة ، وهما ابنا أبي لهب عم رسول الله ﷺ ذلك الذي كان أشد الناس عداوة وبغضاً لرسول الله ﷺ ، وقد تقدم في الجزء الأول بعض ما كان يصنعه في عرقلة الناس عن الدخول في الإسلام وكيف كان يتتبع رسول الله ﷺ حين كان يطوف على قبائل العرب في المواسم يدعوهم للإسلام فيفسد عليه أمره ويكذبه ويؤذيه ، فانظر بماذا عامل النبي ﷺ ابني ذلك العدوّ اللّدُود من

العطف ، والشفقة ، والمحبة ، والرأفة والرحمة ، فهذا شأن أرباب النفوس الطاهرة النقية ، ولا يقاس المصلح بالمفسد ، فكل إنسان تجد في قلبه الرحمة ، تعلم أن ذلك من نور الإيمان الذي في قلبه ، وكل إنسان تجد في طباعه الفظاظة والغلظة وشراسة الأخلاق وتتبع عورات الناس والسعي في مضرة الخلق ، فهو دليل واضح على خلوّ قلبه من الإيمان . ثم أرسل سهيل بن عمرو ، ولده عبد الله ليأخذ له أماناً من رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أبي تؤمّنه ؟ فقال ﷺ : « نعم ، هو آمن بالله فليظهر » . ثم قال لمن حوله : « مَن لقي سهيل بن عمرو فلا يحدّ إليه النظر ، فلعمري أن سهيلاً له عقل وشرف ، وما مثل سهيل بجهل الإسلام » . فخرج ابنه عبد الله إليه فأخبره بمقالة رسول الله ﷺ ، فقال سهيل : كان والله براً صغيراً وبراً كبيراً ، فكان سهيل يقبل ويدبر فخرج إلى حنين مع رسول الله ﷺ وهو على شركه حتى أسلم بالجعرانة . فهذا سهيل بن عمرو ذلك الذي كان يملي على رسول الله ﷺ يوم الحدَيْبِية شروط الهدنة حسب إرادته ، ولما كتب في العقد (محمد رسول الله) قال له بكل أنفة وكبرياء : أمحها ، لو كنت أعلم أنك رسول الله ﷺ لما منعتك من دخول مكّة . حتى أثارت شروطه نفوس أصحاب رسول الله ﷺ تلك الثائرة التي كادت تخرجهم عن حد الطاعة لولا أن الله تعالى تداركهم بلطفه ، فأصبح اليوم يرسل ولده ليأخذ له الأمان من ذلك الذي كان بالأمس يقول له لو كنت أعلم أنك رسول الله ما منعتك . ثم تأمل بأي لطف وعطف قابله النبي ﷺ . وأما صفوان بن أمية بن خلف الجمحي فكان من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ وللمسلمين ، كما سبق تفصيله ، وكانتا له الأزلام في الجاهلية بعد أبيه ، وقد أهدر دمه فاختفى وخرج إلى جدّه[1] وأتى إلى

(١) جدة واقعة على البحر الأحمر وهي مدينة عظيمة واسعة الأرجاء ذات العمارات الشاهقة الضخمة على الشكل الحديث وحركتها التجارية قوية وبها الكثير من

البحر ليلقي نفسه فيه ، فجاء ابن عمه عُمَيْر بن وهْب الجمحي إلى رسول الله ﷺ فقال : يا نبي الله إن صفوان سيّد قومه قد هرب ليقذف بنفسه في البحر ، فأمنّه ، فإنك أمنت الأحمر والأسود ؟ فقال له رسول الله ﷺ : « أدرك فهو آمن » . فقال : اعطني آية يعرف بها أمانك فإني قد طلبت منه العَوْدَ ، فقال لا أعود معك إلا أن تأتيني بعلامة أعرفها . فأعطاه ﷺ عمامته التي دخل بها مكة فلحقه بها ـ وهذا عُمَيْر بن وهب هو الذي كان أرسله صفوان بن أمية بعد وقعة بَدْر إلى المدينة ليقتل النبي ﷺ ، فعلم به النبي ﷺ من طريق الوحي ، وأخبره بما ورد لأجله فأسلم ـ فلما أدركه ، وهو على طريق البحر ، قال له صفوان : أغرُبْ عني ، لا تكلمني . فقال : أي صفوان ، فداك أبي وأمي ، جئتك من عند أفضل الناس ، وأبَرّ الناس ، وأحلَم الناس ، وخير الناس ، وهو ابن عمك ، عزّه عزّك ، وشرفه شرفك ، وملكه ملكك . قال : إني أخافه على نفسي . قال : هو أحلم من ذلك وأكرم . وأراه العمامة التي جاء بها ، فرجع معه حتى وقف على رسول الله ﷺ ، فقال : إن هذا يزعم أنك أمّنتي ؟ قال : « صدق » .

التجار ، وميناؤها من أعظم الموانىء على البحر الأحمر وبها سفراء الدول ، ويمر منها عشرات الألوف كل سنة من الحجاج القاصدين بيت الله العظيم ويلمسون توفر المواصلات وسهولة السير منها وإليها في طريق معبد مسفلت ، فمسافة ثمانين كيلومتراً تقطعها السيارة في ساعة وربع الساعة على أكبر تقدير ، زد على ذلك أن انتعاش هذه المدينة إلى هذا الحد كان بوصول عين العزيزية إليها مسحوبة من وادي فاطمة على بعد شاسع حتى أصبحت الآن عماراتها تحيط بها الأشجار الباسقة والزهور العطرة ، وكذلك شوارعها ، وعموم سكانها يشربون ماء حلواً عذباً بعد أن كانوا يعانون المتاعب في الحصول على شربة ماء حلو ؛ فرحم الله الملك الراحل (عبد العزيز) آل سعود والد الملك الحالي (فيصل) المعظم ، فهو الذي وفقه الله تعالى ، فأسدى هذه الصدقة الجارية بما استنفذته من ملايين الريالات العربية ابتغاء لوجه الله تعالى ففي صحائفه كتبت له هذه المفخرة العظيمة بمداد من نور ، وله الأجر العظيم من رب العالمين . وفق الله المؤمنين لمرضاته آمين .

فقال : أمهلني بالخيار شهرين . فقال له رسول الله ﷺ : « أنت بالخيار أربعة أشهر » . وخرج مع رسول الله ﷺ إلى حنين ، وهو مشرك ، واستقرض منه رسول الله ﷺ أربعين ألف درهم ودرعاً كانت عنده وأعطاه من غنائم هوازن ثلاثمائة من الإبل ، وأعطاه شعباً مملوءاً نعماً وشاء ، فقال صفوان : إن الملوك لا تطيب نفوسها بمثل هذا ، ما طابت نفس أحد قط بمثل هذا إلا نبي ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله . فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه قبل أن تمضي من المدة التي أخذها شيء . وكان يقول : كان للنبي ﷺ أبغض الخلق إليّ ، فما زال يعطيني حتى صار أحب الخلق إليّ . فمن ذلك يعلم أن الكرم والعطاء يلين حتى قلوب الأغنياء لأن قريش من أغنى قريش . ثم أخذت قريش وغيرها من القبائل القاطنة بمكّة ، يبايعون رسول الله ﷺ على السمع والطاعة لله ولرسوله ، وعلى الإسلام .

ولما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرجال ، بايع النساء ، وفيهن هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان بن حرب متنقبة متنكرة خوفاً[1] ومن رسول الله ﷺ ، فلما أُذنين من رسول الله ﷺ ، قال لهن : « بايعنني على أن لا تشركن بالله شيئاً ، ولا تسرقن ، ولا تزنين ، ولا تقتلن أولادكن ـ وذلك بإسقاط الأجنة ـ ولا تلحقن بأزواجكن غير أولادهم ، ولا تقعدن مع الرجال في خلاء ، ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن ، ولا تعصين في معروف » . وقال المفسرون في قوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك** ﴾ : لما فتح رسول الله ﷺ مكّة وفرغ من بيعة الرجال وهو على الصفا ، أتته النساء يبايعنه ، وعمر بن الخطاب أسفل منه يبلغهن

---

(١) لأجل صنيعها بحمزة رضي الله عنه ، فقد كانت هند أول من مثل بقتلى المسلمين وأمرت نساء المشركين أن يمثلن بهم ، فجدعن الأنوف والآذان ، فمثلن بالجميع إلا حنظلة الغسيل .

عنه ، وهند بنت عتبة متنقبة متنكرة مع النساء خوفاً من رسول الله ﷺ أن يعرفها ، فقال رسول الله ﷺ : « أبايعهن على أن لا يشركن بالله شيئاً » . فرفعت هند رأسها وقالت : والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أخذته على الرجال . وكان قد بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط ، فقال النبي ﷺ : « ولا يسرقن » . فقالت هند : إن أبا سفيان رجل شحيح وإني أصبت من ماله هنات فلا أدري أيحل لي أم لا ؟ فقال أبو سفيان ، وكان حاضراً : ما أصبتِ من شيء فيما مضى فأنتِ في حل منه ، عفا الله عنك . فضحك النبي ﷺ وعرفها فقال لها : « وإنك لهند بنت عتبة » . قالت : نعم ، فاعف عمّا سلف عفا الله عنك ؟ فقال ﷺ : « ولا يزنين » . فقالت هند : أوَ تزني الحرة ؟ فقال : « ولا يقتلن أولادهن » . فقالت هند : ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً فأنتم وهم أعلم - وكان ابنها حنظلة بن أبي سفيان قد قُتِلَ يوم بَدْر - فضحك عمر بن الخطاب حتى استلقى ، وتبسم رسول الله ﷺ فقال : « ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيدين وأرجلهن » . فقالت هند : والله إن البهتان لقبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق . فقال ﷺ : « ولا يعصينك في معروف » . فقالت هند : ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء . فأقر النسوة بما أخذ عليهن من البيعة . قال ابن الجوزي : وجملة من أحصي من المبايعات أربعمائة وسبع وخمسون امرأة . ولم يصافح في البيعة امرأة وإنما بايعهن بالكلام . وفي (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يبايع النساء بالكلام بهذه الآية على أن لا يشركن بالله شيئاً ، وما مسّت يد رسول الله ﷺ يد امرأة لا يملكها . ومعنى ﴿ **ولا يعصينك في معروف** ﴾ بما أمرتهن من مكارم الأخلاق ، وهو النهي عن النوح ، والدعاء بالويل ، وتمزيق الثياب ، وحلق الشعر ، أو نتفه ، وخمش الوجه ، وغير ذلك . وفي (الصحيحين) عن ابن مسعود رضي الله

عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية » ، فبايعهن على هذا الشرط ﴿ واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم ﴾ ، وجاء عنه ﷺ : « النائحة إذا لم تتب تقوم يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب ولا تقبل الملائكة على نائحة وليس للنساء في اتباع الجنائز من أجر » ، فقالت هند : إني إمرأة مؤمنة أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله ، ثم كشفت عن نقابها وقالت : أنا هند بنت عتبة . فقال رسول الله ﷺ : « مرحباً بك » . ثم أرسلت إليه بهدية وهي جديان مشويان مع مولاه لها ، فأستأذنت فأذن لها ، فدخلت عليه وهو ﷺ بين نسائه أم سلمة ، وميمونة ، ونساء من بني عبد المطلب ، وقالت له : إن مولاتي تعتذر إليك وتقول أن غنمهما اليوم لقليل الوالدة . فقال رسول الله ﷺ : « اللهم بارك لهم في غنمهم وأكثر والدتها » ، فأكثر الله لهم ذلك . ثم جاءت هند إلى رسول الله ﷺ وقالت له : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح ، ولا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني إلا ما أخذته من ماله بغير علم ، فهل عليّ في ذلك من جناح ؟ فقال رسول الله ﷺ : « خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك » . أخرجه مسلم . ولما أسلمت هند عمدت إلى صنم كان في بيتها وجعلت تضربه بالقدوم وتقول : كنا معك في غرور .

وفي (الصحيحين) عن عائشة رضي الله عنها قالت : قالت هند بنت عتبة : يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليّ من أن يذلوا من أهل خبائك ، ثما ما أصبح اليوم ما على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليّ أن يعزّوا من أهل خبائك . قال رسول الله ﷺ : « وأيضاً والذي نفس محمد بيده » . وكانت هند امرأة ذات أنفة ، ورأي ، وعقل .

وأراد فَضَالة بن عُمَير بن المُلَوِّح الليثي قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت ، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : « أفَضَالة ؟ » قال : نعم ، فَضَالة

يا رسول الله ، قال : « ماذا كنت تحدّث به نفسك ؟ » قال : لا شيء ، كنت أذكر الله عز وجل . فضحك النبي ﷺ ، ثم قال : « استغفر الله » ، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه . قال فَضالة : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما مِنْ خلق الله شيء أَحَب إليّ منه .

وأما شيبة بن عثمان بن أبي طلحة الحجبي ، سادن الكعبة ، الذي هو جد آل الشيبي سدنة الكعبة اليوم ، فأسلم عام الفتح ، وكان يحدّث عن إسلامه فيقول : ما رأيت أعجب مما كنا فيه من لزوم بعض ما عليه أباؤنا من الضلالات ، ولما كان عام الفتح ودخل رسول الله ﷺ مكّة ثم سار إلى حرب هوازن ، قلت : أسير مع قريش إلى هوازن بحنين فعسى أن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة فأقتله فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها وأُدرك ثأري من محمد ، وقلت : لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتبع محمداً ما تبعته لا يزداد ذلك الأمر عند إلا شدة . فلما اختلط الناس ، يوم حنين ، ونزل رسول الله ﷺ عن بغلته ، أصلتُّ السيف ودنوت منه أُريد الذي أريد منه ، ورفعت السيف حتى إذا لم يبق إلا أن أتره بالسيف وقع لي شهاب من نار كالبرق ، فرجعت القهقرى ، فالتفت إليّ فقال : « تعال يا شيبة » ، فوضع يده على صدري ، فرفعت إليه بصري وهو أحب إليّ من سمعي وبصري . قال الحافظ بن حجر في (الإصابة) : وكان شيبة ممن ثبت يوم حنين بعد أن كاد أراد أن يغتال النبي ﷺ فقذف الله في قلبه الرعب ، فوضع النبي ﷺ يده على صدره فثبت الإيمان في قلبه وقاتل بين يديه . وفي (الطبقات) لابن سعد قال : دعا رسول الله ﷺ شيبة بن عثمان فأعطاه مفتاح الكعبة فقال : « دونك هذا فأنت أمين الله على بيته » ، وقال مصعب الزبيري دفع المفتاح إليه وإلى عثمان بن طلحة وقال : « خذوها يا بني أبي طلحة خالدة تالدة لا يأخذها منكم إلا ظالم » . قال القسطلاني في (المواهب) ما خلاصته : إن هذه

الآية ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ نزلت في عثمان بن طلحة الحجبي ، فأمر رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه أن يرد المفتاح إلى عثمان ويعتذر إليه ، ففعل علي ذلك وقال له : لقد أنزل الله في شأنك قرآناً ، وقرأ عليه الآية . وجاء جبريل عليه السلام فقال : ما دام هذا البيت أو لبنة من لبناته قائمة فإن المفتاح والسدانة في أولاد عثمان ، فالمفتاح والسدانة في أولادهم إلى يوم القيامة . فشيبة هذا هو ابن عثمان بن أبي طلحة ، وأما عثمان بن طلحة فمات عقيماً ، انتهى .

وكان شيبة سادن البيت منذ هاجر عثمان بن طلحة مع خالد بن الوليد عام سبع من الهجرة ، ثم سكن عثمان المدينة ، من بعد الفتح ، إلى أن مات بها . وشيبة هو الذي كان يقوم بسدانة البيت ، وأقام شيبة للناس الحج سنة تسع وثلاثين ، وكان السبب في ذلك أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بعث قثم بن العباس ليقيم للناس الحج ، وبعث معاوية بن أبي سفيان يزيد بن شجرة ، فتنازعا ، فسعى بينهما أبو سعيد الخدري وغيره فاصطلحا على أن يقيم الحج شيبة بن عثمان ويصلّي بالناس . ومات شيبة سنة تسع وخمسين من الهجرة رضي الله عنه ولا يزال المفتاح والسدانة في عقبه إلى اليوم ، ذلك لقوله ﷺ لما أعطاهم المفتاح : « خالدة تالدة » ، فهذا السر في بقاء نسلهم إلى اليوم وبقاء سدانة الكعبة عندهم إلى اليوم ، وإلى يوم القيامة . ولم يثبت من طريق صحيح أن مفتاح الكعبة نزع منهم منذ دفعه رسول الله ﷺ لأسلافهم طيلة هذه الأربعة عشر قرناً ولا مرة واحدة .

وجاءت أم حكيم ، امرأة عكرمة بن أبي جهل ، إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله قد ذهب عكرمة عنك إلى اليمن وخاف أن تقتله ، فأمّنه يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : « هو آمن » . فخرجت أم حكيم في طلبه ، فأدركته وقد انتهى إلى البحر ، فركب سفينة ، فجعل النوتي

يقول له : أخلص ، أخلص . قال : أي شيء أقول ؟ قال : قل (لا إله إلا الله) . قال عكرمة : ما هربت إلا من هذا ، وأن هذا أمر تعرفه العرب والعجم ، حتى النوتي ما الدين إلا ما جاء به محمد ، وغيّر الله قلبي ، وجاءتني أم حكيم على هذا الأمر ، فجعلتْ تليح إلي وتقول : يا ابن عمّ ، جئتك من عند أبر الناس ، وأوصل الناس ، وخير الناس ، لا تهلك نفسك ، فوقف لها حتى أدركته فقالت له : إني قد استأمنت لك رسول الله ﷺ فأمّنك . فرجع معها ، فلما وافى مكّة قال رسول الله ﷺ : « يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً فلا تسبوا أباه ، فإن سب الميت يؤذي الحي » . فلما رأى رسول الله ﷺ عكرمة ، زاد فرحاً بعكرمة ، ثم جلس رسول الله ﷺ ، فوقف عكرمة بين يديه ، ومعه زوجته متنقبة ، فقال : يا محمد إن هذه أخبرتني أنك أمّنتني ؟ فقال رسول الله ﷺ : « صدقت ، فأنت آمن » . قال عكرمة : فإلى م تدعو يا محمد ؟ قال ﷺ : « أدعو أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتفعل » ، حتى عَدّ خصال الإسلام ، فقال عكرمة : والله ما دعوت إلا إلى خير أمر حسن جميل ، قد كنت فينا يا رسول الله ، قبل أن تدعونا إلى ما دعوتنا إليه ، وأنت أصدقنا حديثاً وأبرنا براً . ثم قال عكرمة : فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ . فَسُرّ بذلك رسول الله ﷺ ، ثم قال : يا رسول الله علّمني خير شيء قوله ؟ قال : « تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله » . قال عكرمة ثم ماذا ؟ قال : رسول الله ﷺ : « تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد من حضرني أني مسلم مجاهد مهاجر » . فقال عكرمة ذلك .

كان السائب بن عبد الله المخزومي شريك رسول الله ﷺ قبل إسلام ، فلما كان يوم الفتح أتى رسول الله ﷺ فقال : « مرحباً بأخي وشريكي ، كان لا يداري ولا يماري ، يا سائب قد كنت تعمل أعمالاً في

الجاهلية لا تتقبل منك وهي اليوم تتقبل منك » ، وكان ذا سلف وخلة ، فجعل عثمان وغيره يثنون عليه فقال لهم رسول الله ﷺ : « لا تعلموني به ، كان صاحبي » .

وكانت أم هانىء بنت أبي طالب رضي الله عنها أجارت الحارث بن هشام ، وعبد الله بن ربيعة ، وأجاز رسول الله ﷺ أم هانىء في ذلك ، فقال الحارث بن هشام : فانطلقنا فأقمنا يومين ثم خرجنا إلى منازلنا فجلسنا بأفنيتنا لا يعرِض لنا أحد ، وكنا نخاف عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، فوالله إني لجالس ما شعرت إلا بعمر بن الخطّاب ، فإذا معه عدة من المسلمين ، فسلّم ومضى وجعلت أستحي أن يراني رسول الله ﷺ ، وإذكر رؤيته في كل موطن مع المشركين ثم أذكر برّه ورحمته وصلته فألقاه وهو داخل المسجد فلقيني بالبِشْر ، فوقف حتى جئته ، فسلّمت عليه وشهدت بشهادة الحق ، فقال ﷺ : « الحمد لله الذي هداك ما كان مثلك » .

وكان عبد الله بن الزِّبَعْرَي قد هرب إلى نجران فأرسل حسان بن ثابت رضي الله عنه أبياتاً يريد بها ابن الزبَعْري ، فلما جاء الزبعري شِعْرُ حسان خرج إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في أصحابه ، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال : « هذا ابن الزبعري ومعه وجد فيه سرور الإسلام » . فلما وقف على رسول الله ﷺ قال : السلام عليك يا رسول الله ، أشهد أن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله ، الحمد لله الذي هداني للإسلام ، لقد عاديتك وأجلبت عليك وركبت الفرس والبعير ومشيت على قدمي في عداوتك ، ثم هربت منك إلى نجران ، وينا أريد أن لا أقر بالإسلام أبداً ، ثم أرادني الله منه بخير فألقاه في قلبي وحببه إليّ ، وذكرت ما كنت فيه من الضلالة واتباع ما لا ينبغي من حجر يعبد ويذبح له ، لا يدري مَن عَبَده ومَن لا يعبده . قال رسول الله ﷺ : « الحمد لله الذي هداك للإسلام وإن الإسلام يحبُّ ما كان قبله » ثم أنشد عبد الله بن الزبعري :

يـا رسـولَ المليـك إنّ لِسَـاني   راتِقٌ مـا فتـقـتُ إذْ أنـا بُـورُ
إذْ أُبَـارِي الشيطان في سَنَن البـ   ـغي ومَنْ مـالَ مَيْلَه مثبـور
آمَنَ الـلّحْـمُ والعِـظَامُ لِـرَبّـي   ثُمّ قلبي الشهيـدُ أنتَ النّـذيـر
إنّـني عَنْـكَ زاجِـرٌ ثـمّ حَـيّـا   مِـنْ لُـؤي وكُـلّهُـمْ مَـغْـرُورُ

وهكذا صار يُقْبِل أشْراف قريش وساداتهم على رسول الله ﷺ واحداً بعد واحد ، وصاروا يدخلون في الإسلام ، ويندمون على ما وقَع منهم من حرب رسول الله ﷺ وعداوته ومشاكسته ، ورسـول الله ﷺ يقبلهم بصدر رحب منشرح . فَرِح بإسلامهم ، مسرور بإيمانهم ، وصار يوم الفتح يوم سرور وانشراح على رسـول الله ﷺ وعلى أصحابـه وأهل مكّـة من أهله وعشيرته . ذلك الأمر الذي ماكان يخطر على بال أحد من قريش أن رسول الله ﷺ يستقبلهم بهذا الإستقبال بعد أن وقع منهم في حقه ما وقـع مدة إحـدى وعشـرين سنـة ، فيغفـر لهم رسـول الله ﷺ تلك الإسـاءات ، والتعدّيات ، والتجاوزات ، التي تقدّم شيء من ذكرها . هل كان يخـطر ببال هند بنت عتبة ، وصفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، وعامة قريش إنه سيأتي عليهم يوم مثل هذا يجدون فيه من الرأفة والـرحمة والشفقـة والملاطفـة من الرجـل الذي كـانوا بـالأمس يقاتلونـه ويطاردونه ، ويتطاولون عليه وعلى أصحابه بكل ما أُوتوا من قـوة وسباب وشتيمة وبذاءة ، فبدل أن يناقشهم الحساب على ما وقـع منهم ، صفح عنهم وعفا ، ولاطف وأكرم ، فما أظن أن ذلك يخطر على قلب أحد في العالم أجمع ، كما أنه لا يوجد أحد في العالم ، مهما كانت حالته ، أن يباري رسول الله ﷺ في شفقته ، ورأفته ، وتسامحه ، وملاطفته ، ولذلك وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وإنّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

ثم نادى منادي رسول الله ﷺ بمكّة : مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر

فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره .

ثم أمر رسول الله ﷺ بتحديد أنصاب الحرم يوم الفتح ، وهي المسماة اليوم (بالأعلام) أو (العلمان) الموضوعة لبيان حد الحرم . روى الأزرقي أن أول من نصب أنصاب الحرم إبراهيم عليه الصلاة والسلام . كان جبريل عليه السلام يدله على موضعها فلم تحرك ، حتى كان إسماعيل عليه السلام فجددها ، ثم لم تحرك حتى كان قصي بن كلاب فجددها ، ثم لم تحرك حتى كان يوم الفتح ، فبعث رسول الله ﷺ تميم بن أسد الخزاعي فجدّد أنصاب الحرم[1] .

ونهى رسول الله ﷺ عن قتل قريش صُبْراً . روى مسلم في صحيحه ، عن عبد الله بن مطيع عن أبيه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم فتح مكّة : « لا يقتل قرشي صبراً[2] بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة » .

ونهى رسول الله ﷺ يوم الفتح عن ثمن الخمر ، والخنزير ، والميتة . روى ابن أبي شيبة عن جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ ، عام الفتح ، يقول : « إن الله تعالى حَرّم بيع الخمر ، والخنزير ،

---

(١) وبعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أربعة من قريش كانوا يتبدون في بواديها فجددوا أنصاب الحرم ، منهم مخرمة بن نوفل وأبو هود سعيد بن يربوع المخزومي وحويطب بن عبد العزى وأزهر بن عبد عوف الزهري ، ذكره الوليد الأزرقي ؛ قلت ثم عثمان بن عفان ثم معاوية ثم عبد الملك بن مروان . وفي عام مائة وتسع وخمسين لما رجع المهدي من الحج أمر بتجديدها ، وهكذا امتدت يد التجديد والاصلاح . وفي سنة ألف وثلاث وعشرين جدد السلطان أحمد الأول العلمين من جهة عرفة . ورأيتهما في عهد الملك فيصل مجددين سنة ١٣٨٦ هـ .

(٢) إذا قتل في غير معركة ولا حرب ولا خطأ من الصبر وهو الحبس فكأنه أمسك عن الموت وحبس عليه .

والميتة ، والأصنام » ، فقال رجل : يا رسول الله ، ما ترى في شحوم الميتة فإنه يدهن بها السُفُن ، والجلود ، ويستصبح بها ، قال : « قاتل الله اليهود ، إن الله لما حَرّم عليهم شحومها أخذوها فحملوها ثم باعوها وأكلوا ثمنها » .

ونهى رسول الله ﷺ عن غزو مكّة يوم الفتح . روى الإمام أحمد والترمذي ، وقال حسن صحيح عن الحارث بن مالك رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم فتح مكّة : « لا تُغْزَى هذه بعد اليوم إلى يوم القيامة » .

ثم بعث رسول الله ﷺ سراياه إلى الأوثان التي كانت حول مكّة ، فكسرت كلها ، منها : والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى . فبعث خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى (العزى)[1] لخمس ليال بقين من شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة ليهدمها ، فخرج إليها في ثلاثين فارساً من أصحابه حتى انتهوا إليها فهدمها[2] ، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : « هل رأيت شيئاً ؟ » قال : لا . قال : « إنك لم تهدمها ، فارجع إليها فاهدمها » . فرجع خالد رضي الله عنه ، وهو متغيظ ، فجرّد سيفه ، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس ، فجعل السادن يصبح بها ، فضربها خالد فجزلها اثنتين ، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال :

---

(١) قال البغوي : اشتقوها من اسم الله تعالى العزيز . وقيل العزى تأنيث الأعز . قال مجاهد : هي شجرة . وقال الضحاك : صنم وضعه سعد بن ظالم الغطفاني لما قدم مكة ورأى أهلها يطوفون بين الصفا والمروة فأخذ من كل حجراً ونقلهما إلى نخله وسماهما الصفا والمروة ، ثم أخذ ثلاثة أحجار فأسندها إلى شجرة فقال هذا ربكم فجعلوا يطوفون بين الحجرين ويعبدون الحجارة .

(٢) أي هدم البيت التي هي فيه ، وكان على ثلاث سمرات كما رواه البيهقي عن أبي الطفيل فقطعها وهدم البيت وكسر الصنم .

« نعم ، تلك العزى ، وقد أيست أن تعبد في بلادكم أبداً »[1] . وكانت بنخلة بالسيل[2] الكبير على طريق الطائف وهي على بُعد سبعين ميلاً من مكّة شرقاً بشمال وكانت لقريش وجميع بني كنانة ، وكانت أعظم أصنامهم[3] ، وكانت سدانتها في بني شيبان . ثم بعث عمرو بن العاص إلى (سُوَاع) ، وهو صنم لهذيل[4] على ثلاثة أميال من مكّة جنوباً ، في نهاية شهر رمضان ليهدمه . قال عمرو : فانتهيت إليه وعنده السادن . فقال : ما تريد ؟ قلت : أمرني رسول الله ﷺ ين أهدمه . فقال السادن : لا تقدر على ذلك . قلت : لِمَ ؟ قال : تمنع . قلت : حتى الآن أنت على الباطل ، ويحك ، فهل يسمع أو يبصر ؟ قال : فدنوت منه فكسرته وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا فيه شيئاً ، ثم قلت للسادن : كيف رأيت ؟ قال : أسلمت لله .

ثم بعث[5] رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأشهلي إلى (مناة) ،

---

(١) ومن نقل البغوي تعلم أنها كانت شيطانة خرجت من أصل الشجرة .

(٢) قديما كانت تمر منه الجمال وفي عهد الملك عبد العزيز آل سعود أصبحت تأتيه السيارات بكافة أنواعها ، واليوم حين تولى ابنه الملك فيصل المعظم أمر بتعبيده وسفلتته ضمن الطريق من مكة إلى الطائف ليرتاح المارون منه .

(٣) أجلها بزعمهم الفاسد فإن عمر بن لحي أخبرهم بأن الرب يشتي عند اللات ويصيف عند العزى فعظموها وبنوا لها بيتاً وكانوا يهدون إليها كما يهدون للكعبة ويعظمونها كتعظيمها ويطوفون وينحرون عندها .

(٤) ابن مدركة بن الياس بن مضر .

(٥) الترتيب المفاد من ثم هنا ذكرى لأن هذه السرية كانت لست بقين من رمضان وسرية خالد لخمس وقدمت لأنها كانت لقريش . وفي المواهب قال : من الغريب ما وقع في معالم التنزيل عن بعضهم أن اللات والعزى ومناة أصنام من حجارة كانت في جوف الكعبة يعبدونها ، ولو كانت كذلك لأزالها في جملة ما أزاله من الأصنام وما بعث إليها .

وكانت بالمشلل عند قديد للأوس ، والخزرج ، وغسان ، وغيرهم ، فخرج في عشرين فارساً حتى انتهى إليها وعندها سادن ، فقال السادن : ما تريد ؟ قلت : هدم مناة . قال : أنت وذاك . فأقبل سعد يمشي إليها ، فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها . فقال لها السادن : مناة دونك بعض عصاتك ، فضربها سعد فقتلها وأقبل إلى الصنم فهدمه وكسره ولم يجدوا في خزانته شيئاً . كذا في (زاد المعاد) . وقال القسطلاني : وكان ذلك لست بقين من رمضان .

سرية خالد بن الوليد إلى بني جَذِيمَة

بنو جذيمة ، قبيلة من عبد القيس[1] بناحية يلملم جنوب مكّة ، ويلملم ميقات أهل اليمن[2] ، وبينها وبين مكّة نحو أربعين ميلاً ، وذلك في غزة شوال سنة ثمان من الهجرة . وكان بنو جذيمة أشرّ حي من أحياء العرب في الجاهلية ، وقد قتلوا في الجاهلية الفاكه عمّ خالد بن الوليد ، وقتلوا والد عبد الرحمن بن عوف ، وقتلوا مالك بن الشريد وأخويه من بني سليم . ثم لما رجع خالد بن الوليد رضي الله عنه من هدم العزى ، ورسول الله ﷺ مقيم بمكّة ، بعثه إلى بني جذيمة داعياً إلى الإسلام ولم

---

(١) وهم الحافظ ابن حجر من جعلها من عبد القيس ، بل هي من كنانة حتى قام إمام المغازي ابن اسحق الجويني جذيمة من كنانة ، وتبعه الإمام اليعمري وغيره .

(٢) اليمن يشتمل على تهامة ونجد ، فنجده جباله وأعمالها ، وتهامته سواحله والمدن التي تقاربه كزبيد فيلملم ميقات تهامته لا نجده لأن نجده ميقاته ، ميقات نجد الحجاز وهو قرن المنازل ويقال قرن الثعالب وقيل قرن المنازل موضع في هبوط وقرن الثعالب موضع في صعود قريب منه وكلاهما ميقات وإنما تعرضت لهذا وإن كان محله كتب الفقه لأن كلام المصنف يوهم أن يلملم ميقات اليمن بقسميه المذكورين .

يبعثه مقاتلاً ، فخرج في ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار وبني سليم ، فانتهى اليهم ، فقال : ما أنتم ؟ قالوا : مسلمون ، قد صلّينا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد في ساحتنا وأذّنّا فيها . فقال : فما بال السلاح عليكم ؟ قالوا : إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوا هم . (وقد قيل أنهم قالوا : صبأنا ، صبأنا ، ولم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا) قال لهم خالد : فضعوا السلاح . فوضعوه ، فقال لهم : استأسروا . فاستأسروا ، فأمر بعضهم فكتف بعضاً وفرَّقهم في أصحابه ، فلما كان في السحر نادى خالد بن الوليد : مَن كان معه أسير فليضرب عنقه . فأما بنو سليم فقتلوا مَن كان في أيديهم ، وأما المهاجرون ، والأنصار ، فأرسلوا أسراهم . فانطلق رجل من بني جذيمة إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما فعل خالد . فقال له النبي ﷺ : « هل أنكر عليه أحد ما صنع ؟ » قال : نعم ، رجل أصفر ربعة ، ورجل طويل أحمر . فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : والله يا رسول الله أعرفهما ، أما الأول فهو ابني عبد الله فهذه صفته ، وأما الثاني فهو سالم مولى أبي حذيفة . فعند ذلك قال النبي ﷺ : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » مرتين . ثم دعا رسول الله ﷺ لميه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له : « أخرج إلى هؤلاء القوم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » . فخرج علي حتى جاءهم ، ومعه مال ، فلم يبق لهم شيء إلا دفعه لهم ديته من رجال وأموال ، فقال لهم علي رضي الله عنه : هل بقي لكم دم أو مال ؟ قالوا : لا . قال : أعطيكم ما بقي معي من المال احتياطاً بدا ما لا تعلمون . فأعطاهم علي رضي الله عنه ما بقي معه من المال الذي زاد عن دية القتلى وقيمة الأموال التي فقدوها زيادة عما يستحقوه ، فرجع إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر ، فقال له : « أصبت وأحسنت » . وفي البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : بعث النبي ﷺ خالد بن

الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فجعلوا يقولون : صبأنا ، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر . قال الحافظ ابن حجر : أما خالد فحمل هذه اللفظة على ظاهرها ، لأن قولهم صبأنا ، أي خرجنا من دين إلى دِين ، ولم يكتف خالد بذلك حتى يصرحوا بالإسلام ، وفي السيرة الحلبية : ثم لما رجع خالد إلى مكّة وقع بينه وبين عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما شَرّ بسبب ذلك ، فقال له عبد الرحمن : عملت بأمر الجاهلية في الإسلام ؟ فقال خالد : إنما أخذت بثأر أبيك . فقال له عبد الرحمن : كذبت ، أنا قتلت قاتل أبي ، فكيف تأخذ مسلمين بقتل رجل في الجاهلية ؟ فقال خالد : ومَن أخبركم أنهم أسلموا ؟ فقال : أهل السرية كلهم أخبرونا بأنك قد وجدتهم بَنَوْا المساجد وأقروا بالإسلام ، وإنما أخذت بثأر عمك الفاكه . فقال رسول الله ﷺ : « مَهْلاً يا خالد ، دع عنك أصحابي ، فوالله لو كان لك أُحُد ذهباً فأنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل منهم ولا روحته » . وفي (الصحيحين) ، واللفظ لمسلم عن أبي سعيد ، قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء فسبَّه خالد ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تسبُّوا أحداً من أصحابي ، فإن أحدكم لو أنفق مثل أُحُد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه » .

فحاصل هذه القضية أن خالد بن الوليد رضي الله عنه تسرع في قتل القوم قبل أن يتثبت من إسلامهم كما ينبغي ، لأن من خصائص النبي ﷺ الرفق بالناس ، وجلب قلوبهم إلى الإسلام بالرفق واللين رغبة في هداية الخلق بالتي هي أحسن ، وأحب ما لديه أن يدخل العالَم بأجمعه في الإسلام ، ولو خيِّر بين قتل أعظم عدو له وبين دخوله في الإسلام لأختار دخوله في الإسلام على قتله ، ومن ذلك عفوه عن قتل أشد الناس له عداوة في اليوم الذي مكّنه الله من قتله مثل أبي سفيان ، وامرأته هند بنت عتبة ،

وصفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل ، وفضالة بن الملوح ، وشيبة بن عثمان الحجبي ، الذي أراد قتله ممن هدر دمهم ، لأنه ﷺ بُعِثَ رحمة للعالمين بَشيراً ونَـذيراً لقـوم يفقهون ، وليمثـل للناس مكـارم الأخلاق ، وهـداية النـاس بالتي هي أحسن ، ولم يبعث لإبـادة الخلق ، أو لسفك الدماء . فلذلك لم يرض عن فعل خالد ، وتبرأ من فعله ، ولو لم يكن ذلك اجتهاداً من خالد لما سمح عنـه رسول الله ﷺ . وطبيعـة الفاتحين وعادتهم التسرع في البطش ، وقد وقع من خالد بن الوليد رضي الله عنه مثل هذا التسرع مرة أخرى في خلافة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه لما بعثه لقتال أهل الردة ، وكان من أمره مع مالك بن نويرة الذي أسره خالد وأصحابه ، وكان زمن شتاء وبرد ، فنادى منادي خالـد في الجيش : إن دفئوا أسراكم . فظن القوم أنه أراد قتلهم ، فقتلوهم . فلما سمع خالـد بذلك قال : إذا أراد الله أمراً أمضاه . فأحضر خالد مالك بن نويرة وقال له : كيف ترتد عن الإسلام وتمنـع الزكـاة ؟ ألم تعلم أن الزكـاة قرينـة الصلاة ؟ فقال : كان صاحبكم يزعم ذلك . فقال له : أهو صاحبنا وليس هو بصاحبك ؟ يا ضرار اضرب عنقه . ثم بعد تزوج خالد زوجة مالك ، وكانت من أجمل النساء ، فقال اعداء خالد : إنه لم يقتل مالكاً إلا لأجل أن يتزوج امرأته ، وهذا بعيد عن نفسية خالد ، ذلك البطل العظيم والشهم الكبير ، وأمثال هذه النظريات لا توجـد إلا عند أربـاب النفوس الـدنيئة والأخلاق الواطئة ، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، قال لأبي بكر الصدّيق رضي الله عنه : اعزل خالداً فإن في سيفه رهقاً ـ أي شراً وطغياناً ـ كيف يقتل مالكاً ويأخذ زوجته ؟ فقال أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه : لا أشم سيفاً سله الله على الكـافرين والمنـافقين ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نعم عبد الله أخو العشيرة خـالد بن الـوليد ، سيـف من سيـوف الله ، سلّه الله على الكافـرين والمنافقين » ، ثم قـال أبو بكـر :

عجزت النساء أن يلدن مثل خالد . وهذه الحادثة أوجدت في نفس عمر بن الخطاب على خالد ، فلما تولى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه الخلافة ، فأول شيء بدأ به به عزل خالد بن الوليد من القيادة العامة ، فأرسل لأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه بعزل خالد وأخذ نصف ماله ، فقاسمه أبو عبيدة ماله حتى إحدى نعليه ، وخالد يقول : سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين . ثم بلغ عمر أن خالداً أعطى الأشعث بن قيس عشرة آلاف وقد قصده ابتغاء إحسانه ، فأرسل عمر لأبي عبيدة أن يصعد على المنبر ويوقف خالداً بين يديه وينزع عمامته وقلنسوته ، ويقيّده بعمامته ، لأن العشرة آلاف ، إن كان دفعها من ماله فهو سرف ، وإن كان من مال المسلمين فهي خيانة ، ففعل ذلك أبو عبيدة . ثم قدِمَ خالد على عمر بالمدينة ، فقال له عمر : من أين هذا اليسار الذي تجيز منه بعشرة آلاف ؟ فقال خالد : من الأنفال والسهمان . قال عمر : ما زاد على التسعين ألفاً فهو لك . ثم قوّموا يمواله وعروضه وأخذ منه عشرين ألفاً . ثم قال له عمر : والله إنك عليّ لكريم وإنك لحبيب ولن تعمل لي بعد اليوم على شيء . وكتب عمر إلى الأمصار : إني لم أعزل خالداً عن مبخلة ولا خيانة ، ولكن الناس فتنوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع .

فإذا تأملت ذلك تعلم أن خالداً لم يعزله النبي ﷺ من أجل غلظة مقابل ما جعل الله فيه من البأس ، والشدة ، والإقدام ، والفوز ، والنصر ، وكذلك لم يعزله أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه مدة خلافته من أجل غلظة ، وكان هو الفاتح لفارس ، والروم ، واليمن ، والقائم بتأديب المرتدين من العرب ، ولذلك افتتن الناس بخالد بن الوليد رضي الله عنه ، ويحق لهم أن يفتتنوا به ليس لشدة بأسه وبطشه بالكافرين فحسب ، بل لشدة طاعته لأمر الله تعالى وللخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكان خالد بن الوليد رضي الله عنه مثال القيادة ، والشهامة ، والشجاعة ،

والبأس ، والكرم ، والطاعة التامة ، ولم يؤثر فيه تنكيل عمر بن الخطاب رضي الله عنه له ، بل قوة الإيمان الذي غرزه الله تعالى في قلبه جعله أن يكون مجاهداً في سبيل الله إلى آخر حياته ، فكان بعد ذلك يقاتل مع جيش أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه كأحد أفراد الجند حتى الممات ، وكان يقول : لَمْ أقاتل لأجل أبي بكر وعمر ، وإنما أقاتل لتكون كلمة الله هي العليا .

إني ذكرت ما ذكرته في حق خالد بن الوليد رضي الله عنه مع إني لم أوْفِه حقه ، فإنه فوق ما ذكرت وأعظم مما وصفت ، ومع ذلك فلا يخطر ببالك ، أيها القارىء ، أن خالداً أفضل من عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، أو أن عمر وقع ما وقع منه في حق خالد لغرض شخصي أو لهوىً متبع ، معاذ الله ، فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرفع من ذلك وأجلّ ، بل هو أعظم من خالد سياسة ، وإدارة ، وعصره أعظم عصور الإسلام مجداً ، وسؤدداً ، ونظره أبعد مرمىً ، فإنه ينظر إلى الأمور بنظر محنك خبير ، فقد قال بعض المؤرخين أن الحكمة في عزل عمر لخالد هو من أجل المصلحة ، لأن عمر كان شديداً في الله على الناس فينبغي أن يكون عماله فيهم اللين ، ولذلك ولّى أبا عبيدة لأنه ليّن وصاحب رفق ، وكان أبو بكر رضي الله عنه ليناً وصاحب رفق فمن المصلحة أن يكون عماله أصحاب شدة ، فلذلك استعمل خالداً لأنه شديد على الكافرين ليحصل التعادل . ولا يسلم عظماء الرجال الأفذاذ من غلطة ، خصوصاً قواد الجيش والفاتحون ، لأنهم غير معصومين ، وكفى بالمرء فخراً أن تعد غلطاته ، وفي نظر المنصف أن غلطة أو غلطتين تقع من مثل قائد كخالد بن الوليد رضي الله عنه لا تبنى إلا على الإجتهاد ، فالمصيب له أجران ، والمخطىء له أجر ، لأنه لم يتعمّد الخطأ في أعماله أصلاً ، وكل أعماله مبنية على حسن النية وسلامة الخاطر ، فكان عمر رضي الله عنه مع

خالد أوسع وأبعد مرمى ، وصبر خالد رضي الله عنه على ما ناله من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أعظم تحمل ، فكان عمر أبعد نظراً ، وكان خالد أشد تحمّلاً ، وكلا البطلين عظيم في مبدئه ، فجزاهما الله تعالى عن اجتهادهما خير الجزاء . وسيأتي من عمل البطلين ، في الفتح الإسلامي ، ما يحير العقل ، ويدهش أرباب العقول الراقية ، والله أعلم .

ولما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى هوازن ، وهم قبائل عتيبة ، استقرض مائة وثلاثين ألف درهم من ثلاثة نفر من قريش ، أخذ من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم ، ومن عبد الله بن أبي ربيعة ألف درهم ، ومن خويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم ، وفرقها على أصحابه من أهل الضعف ، ثم وفاهم إياها من غنائم هوازن .

ولاية عَتَّاب بن أسِيد[١] إمارة مكة

ثم ولّى رسول الله ﷺ ، حال خروجه من هوازن ، عتاب بن أسيد الأموي القرشي بمارة مكّة ، وكان عمره نيفاً وعشرين سنة ، وكان صالحاً فاضلاً ، وجعل معه معاذ بن جبل رضي الله عنه بمكّة معلّماً للناس السنن والفقه ، وكان شديداً على المريب ، ليناً على المؤمنين ، وكان يقول : والله لا أعلم متخلفاً عن هذه الصلاة في جماعة إلا ضربت عنقه ، فإنه لا يتخلّف عنها إلا منافق . فقال أهل مكّة : يا رسول الله استعملت على أهل الله أعرابياً جافياً ؟ فقال ﷺ : « إني رأيت فيما يرى النائم أنه أتى باب الجنة فأخذ بحلقة الباب فقعقعها حتى فُتِح له ودخل » . وهو أول أمير صلّى بمكّة بعد الفتح جماعة ، وقد أمره رسول الله ﷺ أن يصلّي بالناس ،

---

(١) بكسر السين .

ولما ولّى رسول الله ﷺ عتاباً على مكّة قال له : « انطلق فقد استعملتك على أهل الله » ، قال ذلك ثلاثاً ، ثم قال : « يا عتاب أتدري على مَن استعملتك ؟ استعملتك على أهل الله فاستوص بهم خيراً » يقولها ثلاثاً ، وجعل له راتباً ، كل يوم درهماً ، فقام في الناس خطيباً ، فقال : أيها الناس أجاع الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقني رسول الله ﷺ درهماً في كل يوم فليست لي حاجة إلى أحد[1] . هذا ملخص من (الإصابة) ، و(السيرة الحلبية) . وأقام رسول الله ﷺ بمكّة تسعة عشر يوماً يصلّي ركعتين[2] ، رواه البخاري .

غزوة حنين

اسم (حنين) لا يخلو منه كتاب من كتب الإسلام ، فتجده في القرآن المجيد ، وفي كتب الحديث ، والتفسير ، والسِيَر ، والتاريخ واللغة ، ولكن موضع حنين غير معروف بالذات . وذلك لأن وادي (حنين) غير ذي زرع ، ولا مسكون ، ولا هو منزل من منازل العرب ، ولا بلد من البلدان ، ولا قرية من القرى ، وقد راجعتُ كثيراً من كتب اللغة مثل لسان العرب ، والقاموس ، والنهاية لابن الأثير ، والمصباح المنير ، والصحاح للجوهري ، وغيرها . كما راجعت بعض كتب التاريخ ،

---

(١) وهو الذي قال عند موته : والله ما اكتسبت في ولايتي كلها إلا قميصاً معقداً كسوته غلامي كيسان . قال ابن عبد البر : فأقام بها أميراً على مكة حتى قبض رسول الله ﷺ وأقره أبو بكر ، فلم يزل عليها إلى أن مات . وكانت وفاته ، فيما ذكر الواقدي ، يوم مات أبو بكر ، وماتا في يوم واحد ، لكن ذلك الطبري أنه كان عاملاً على مكة لعمر سنة إحدى وعشرين .

(٢) قال ابن عباس : ونحن إذا سافرنا فأقمنا تسعة عشر قصرنا وإن زدنا أتممنا ، وكونها كذلك اختاره ابن الصلاح والسبكي وغيرهما لقول البيهقي إنها أصح الروايات .

والتفسير ، لعلي أعثر على وصف الموضع أو بُعده عن مكّة بحساب الأميال ، أو الجهة التي وقعت فيها الحادثة ، فلم يذكر أغلبهم ما يدل على موضعه إلا قولهم : إنه وادٍ بين مكّة والطذائف . والمشهور في العصر الحاضر عند بعض البادية المجاورة لمكّة بهذا الإسم هو جبل بين الجعرانة والبَرُود ، وكذلك مشهور عن (عين الزعفران) التي هي من حسنات السيدة زبيدة بنت جعفر زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد التي جلبتها لمكّة سقياً لأهلها ، إنها عين حنين ، أي منبعها من وادي حنين ، ومجراها من الجهة الشمالية الشرقية بالنسبة لمكّة ، وهذا الموضع قريب من مكّة لا يتجاوز بعده أكثر من عشرة أميال . فلم يطمئن قلبي لذلك حيث يتخالف مع وصف ابن إسحاق للطريق الذي سلكه النبي ﷺ من مكّة إلى حنين ووصفه بواد وعِرٍ ضيّق . فراجعت (فتح الباري شرح صحيح البخاري) بدقّة فوجدت أن الحافظ ابن حجر العسقلاني عيّن موضعه والمسافة التي بينه وبين مكّة فقال : إنه واد إلى جنب ذي المجاز قريب من الطائف بينه وبين مكّة بضعة عشر ميلاً من جهة عرفات . وذكر ابن إسحاق أن منه مدخل نخلة اليمانية ، المسماة في العصر الحاضر (بالزيّمة) وهذا الوادي الذي هو الزيمة أول يودية مر الظهران ، كما تقدم تفصيله في الجزء الأول . ثم بحثت عن ذي المجاز فإذا هو سوق من أسواق[1] العرب في الجاهلية قبل الإسلام ، قال في القاموس : وذو المجاز سوق كانت لهم على فرسخ من عرفة بناحية كبكب . وقال ياقوت في معجمه : وذو المجاز موضع سوق بعرفة على ناحية كبكب عن يمين الإمام على فرسخ من عرفة كانت تقوم في الجاهلية ثمانية أيام ، قال الأصمعي : ذو المجاز ماء من

---

(١) وأعظم هذه الأسواق سوق عكاظ كانوا يقيمون بها شوالاً ، ثم ينتقلون إلى سوق مجنة عشرين يوماً من ذي القعدة ، ثم ينتقلون إلى سوق المجاز أيام الحج . انظر معجم ياقوت .

أصل كبكب وهو لهذيل وهو خلف عرفة . فعلم مما تقدّم موضع (ذي المجاز) بقرب حنين وبينه وبين عرفة ثلاثة أميال . ثم راجعت (معجم البلدان) عن حنين لعلي أجد فيه ما هو أوضح مما تقدم وإذا فيه ما نصه : حنين قريب من مكّة ، وقيل واد قبل الطائف ، وقيل واد بجنب ذي المجاز ، وقيل بينه وبين مكّة بضعة عشر ميلاً ، فوجدت أن القولين الأخيرين يتوافقا مع قول الحافظ ابن حجر ، وناهيك بالحافظ ابن حجر في تحقيقه وتتبعه لأصح الروايات ، فبحثت عن ذلك الموضع ، وجُبْتُ تلك النواحي بنفسي حتى عثرت بحمد الله تعالى بعد صرف وقت لا يستهان به على وادي حنين ، وهو واقع بين (ذي المجاز) وبين (الزيمة) وبينه وبين ذي المجاز أربعة أميال ، فكان من مكّة إلى عرفات عشرة أميال ، ومن عرفات إلى ذي المجاز عن طريق وادي عرنة شمالاً بشرق ثلاثة أميال ، ومن ذي المجاز إلى حنين خمسة أميال ، فيكون مجموع المسافة ١٨ ميلاً ، وذلك يطابق ما ذكره الحافظ ابن حجر من أن بينه وبين مكّة بضعة عشر ميلاً . وأما الوصول إلى (حنين) عن طريق الشرايع فهو إذا توجهت من الشرايع ميمماً نحو الزيمة فتستقبل الفج الذي على جنوب الشرايع الذي يكون منتهاه (ذو المجاز) ، ثم بعد أن تسير نحو أربعة يميال عن الشرايع تنعطف على اليسار فتدخل في واد ضيّق وَعِرٍ فذلك الوادي هو (حنين) ، وطوله نحو ستة أميال ، فإذا سرت فيه تنتهي منه في الزيمة وبينه وبين الزيمة ميلان ، وبذلك يكون بين مكّة وحنين عن طريق الشرايع بحسب سير السيارات ٣٨ كيلومتراً عن نحو ثلاثة وعشرين ميلاً . هذا ما استدللت به على موضع حنين بعد البحث في الكتب ، والجهات ، والمواضع ، بحسب جهودي وعلمي ، وفوق كل ذي عِلْمٍ عليم ، ولا يُلام المرء بعد الإجتهاد . ويطلق على وادي حنين في العصر الحاضر اسم (وادي جدعان) .

وأمـا سبب تسميتهم بحنين ، قـال الحـافظ ابن حجـر في (فتـح الباري) : قال أبو عبيد البكري سمي باسم حنين بن قابثة بن مهْلَائيل ، قال السهيلي في (روض الأنف) بعد أن ذكر ذلك : وأظنه من العماليق .

وأما سبب غزوة حنين هو لما فتح الله تعالى على رسول الله ﷺ مكّة أطاعت له قبائل العرب إلا هوازن ، وهم قبائل (عتيبة) و (ثقيف) ، فإن هاتين القبيلتين كانتا من أشد القبائل طغياناً وكفراً ، فمشت كبار هـوازن وثقيف بعضهـا إلى بعض فأشفقـوا وخافـوا أن يغزوهم رسـول الله ﷺ ، وقالوا : قد فرغ لنا ، فلا مانع له دوننا من أن يغزونا . فحشدوا وتجمّعاو ، وقالوا : والله أن محمداً لاقى قوماً لا يحسنون القتال . فأجمعت هوازن أمرها إلى مالك بن عوف النصري ، واجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها ، واجتمعت نصر ، وجُشَم كلها ، وسعـد بن بكر ، الـذين أرضعوا رسـول الله ﷺ ، وناس من بني هلال ، ولم يشهدها من قيس عيلان إلا هؤلاء ، وغاب عنها من هوازن كعب ، وكلاب ، فلم يشهدها منهم أحد له اسم . وهوازن من أعظم قبائل العرب ، تحتوي على بطون كثيرة ، وكان في بني جُشَم دُرَيْد بن الصِمّة الجشمي ابن بكر بن هوازن ، وكان سنّه يومئذ مائة وستين[1] سنة ، وكان شيخاً كبيراً ومن أعظم فرسان العرب حنكة وممارسة للحروب ، وقد كفّ بصره ولم ينفع إلا برأيه لما له من الخبـرة بميادين الوغى ومواطن البأس .

وكان في ثقيف سيدان لهم من الأحلاف وهما قارب بن الأسود بن مسعـود بن معتب ، وكنانـة بن عبد يـا ليل ، وفي بني مـالـك ذو الخمـار سبيع بن الحارث بن مالك ، وأخوه أحمر بن الحارث ، وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النصري ، فلما أراد مالك بن عوف المسير إلى رسول

---

(١) كما روى أبو صالح عن الليث أو مائة وعشرين سنة كما روى عن ابن اسحق .

الله ﷺ جعل مع الناس أموالهم ، ونساءهم ، وأبناءهم . وكانت هوازن سألت دُرَيْد بن الصِمّة الرياسة عليها ؟ فقال : ما ذاك في عمى بصري وما أستمسك على ظهر الفرس ، ولكن أحضر معكم لأن أشير عليكم برأي على أن لا أخالَف ، فإن كنتم تظنون أني أخالَف أقمت ولم أخرج ؟ قالوا : لا نخالفك . وجاء مالك بن عوف فقال له : لا نخالفك في أمر تراه . فقال له دُرَيْد : يا مالك إنك تقاتل رجلاً كريماً قد أوطأ العرب وخافته العجم ومَن بالشام ، ويجلى يهود الحجاز ، إما قَتْلاً وإما خروجاً على ذل وصغار ، ويومك هذا الذي تلقى فيه محمداً له ما بعده . قال مالك : إني لأطمع أن ترى غداً ما يسرك . قال دريد : منزلي حيث ترى فإذا جمعت الناس سرت إليك .

فلما خرج مالك من عنده لم يخبره أنه يسير بالظعن والأموال مع الناس ، فنزل (بأوطاس) ، وهو موضع بعلو السيل شرقي نخلة على خمسين ميلاً من مكّة ، وعسكر به ، وجعلت الأعداد تأتيه من كل جهة ، وأقبل دُرَيْد بن الصِمّة في شجار[1] له ، وهو يشبه الهودج ، وذلك لكبر سنّه ، فلما نزل دُرَيْد لمس الأرض بيده وقال : بأي وادٍ ينتم ؟ قالوا : بأوطاس . قال : نِعْمَ مَجَال الخيل لا حَزْنٌ[2] ضِرَس ، ولا سَيلٌ دهِس ، ثم قال : مالي أسمع بكاء الصغير ، ورُغَاء البعير ، ونُهَاق الحمير ، ويُعَار الشاء ، وخوار البقر ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ، ونساءهم ، وأبناءهم . قال : أين مالك ؟ قيل : هذا مالك . ودعي له ، فقال : يا مالك إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم كائن له ما

---

(١) الشجار بوزن كتاب : مركب يشبه الهودج غير أنه مشكوف .

(٢) الحزن : ما غلظ من الأرض ، ضد السهل ، والضرس : الغليظ الخشن ، والدهس : اللين السهل .

بعده من الأيام ، مالي أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاء ؟ قال مالك : سقت مع الناس أموالهم ، وأبناءهم ، ونساءهم . قال : ولِمَ ذاك ؟ قال : أردت أن أجعل خلف كل إنسان أهله ، وماله ، وما يُقاتل عنه . فانقض[1] به دُرَيْد وصفَّر به بفمه تزييفاً لرأيه ، ثم قال : راعي ضان والله ، ما له وللحروب ، وصفق له وقال : هل يرد المنهزمَ شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك ، ثم قال دُرَيْد : ما فعلت كعب ، وكلاب ؟ قالوا : لم يشهدها منهم أحد . قال : غاب الحَدّ ، والجِدّ ، ولو كان يوم علاء ورفعة لم تغب عنه كعب ولا كلاب ، ولوددت إنكم فعلتم ما فعلت كعب ، وكلاب ، ثم قال : فمن شهدها منكم ؟ قالوا : عمرو بن عمار ، وعوف بن عامر . قال : ذانك الجذَعان من عامر لا ينفعان ولا يضران ، يا مالك إنك لم تصنع بتقديم البيضة ، بيضة هوازن ، إلى نحور الخيل شيئاً ، ارفعهم إلى متمنَّع بلادهم ، وعُلْيا قومهم ، ثم ألْقَ الصُّبَاء[2] على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك مَنْ وراءك وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك . قال : لا والله لا أفعل ذلك ، إنك قد كبرت وكبر عقلك ، ثم قال لقومه : والله لتطيعُنني يا معشر هوازن أو لأتَّكِئَنّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهري ؟ وكره أن يكون لدُرَيْد بن الصِمّة فيها ذكر أو رأي . قالوا : أطعناك . فجعل مالك يضحك مما يشير به دريد ، فغضب دريد وقال : هذا أيضاً يا معشر هوازن ، والله ما هذا لكم برأي ، إن هذا فاضحكم في عورتكم ، وممكِّن منكم عدوّكم ، ولاحق بحصن ثقيف ، وتاركِكم

---

(١) انقض به : زجره كما تزجره الدابة .

(٢) جمع صابيء يريد جماعة المسلمين لأنهم صبئوا عن دينهم الجاهلي إلى الإسلام .

فانصرفوا واتركوه . فمشى القوم بعضهم إلى بعض فقالوا : والله لئن عصينا مالكاً ليقتلن نفسه ويبقى دريد وهو شيخ كبير لا قتال فيه ، فأجمعوا رأيهم مع مالك . فلما رأى دريد أنهم قد خالفوه قال : هذا يوم لم أشهده ولم يَفُتْني ، ثم قال :

يا ليتني فيها جَذَعْ[1] أخُبُّ فيها وأضَعْ
أقودُ وَطْفَاءَ الزُّمَعْ كأنّها شاةٌ صَدَعْ

ثم قال مالك للناس : إذا رأيتموهم فاكسروا جفُون سيوفكم ثم شدوا شَدّة رَجل واحد . وصَفّ الناس ، فجعل في المقدمة الخيل ، ثم الرجالة المقاتلة ، ثم صفّ خلفهم النساء على الإبل ، ثم صف النعم ، ثم صف الغنم ، كل صف خلف الآخر لئلا يفروا ، وبعث عيوناً له ثلاثة نفر لينظروا إلى رسول الله ﷺ ، فأتوه ، وقد تفرقت أوصالهم ، فقال لهم مالك : ويلكم ، ما شأنكم ؟ قالوا : رجالاً بيضاً على خيول بلق ، فوالله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى ، وإن أطعتنا فارجع بقومك . فقال مالك : أفٍّ لكم ، بل أنتم يجبن العسكر . فلم يردّه ذلك ومضى على ما يريد . ثم قال مالك لدريد : هل من رأي غير هذا فيما قد حضر من أمر القوم ؟ قال دريد ؟ نعم ، نجعل كميناً يكون لك عوناً ، إن حمل القوم عليك جاهدهم الكمين من خلفهم وكررت أنت بمن معك ، وإن كانت الحملة لك لم يفلت من القوم أحد .

فلما سمع رسول الله ﷺ باجتماع هوازن بعث إليهم عبد الله بن أبي

---

(١) أصل الجذع للدواب ثم استعير للشاب القوي يتمنى أن يكون جذعاً لأجل أن يبالغ في الحرب ويمعن فيها . وقوله أخب هو ضرب من السير يكون مع الاسراع ومقاربة الخطا وأضع بمعنى أسرع . وقوله وطفاء الزمع : صفة محمودة في الخيل .

حَدْرَد الأسلمي ، وأمره أن يدخل في الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يبتيه بخبرهم . فانطلق أبو حَدْرَد فدخل فيهم ، فأقام نحو يومين حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله ﷺ ، وسمع من مالك وأمر هوازن وما هم عليه ، ومما سمعه قول لهوازن أن محمداً لم يقاتل قوماً قط قبل هذه المرة وإنما كان يلقى قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فيظهر عليهم ، فإذا كان سَحراً صُفّوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من وراءكم ثم صفوا ثم تكون الحملة منكم واكسروا جفون سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف مكسورة الجفون واحملوا حملة رجل واحد واعلموا أن الغلبة لمن حمل أولاً . ثم أقبل أبو حدرد حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره ، فدعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه فأخبره الخبر فقال عمر : كذب ابن أبي حدرد . فقال ابن أبي حدرد : إن كذّبتني فربما كذّبت بالحق يا عمر ، فقد كذّبت من هو خير مني . فقال عمر : يا رسول الله ألا تسمع ما يقول ابن أبي حدرد ؟ فقال رسول الله ﷺ : « قد كنت ضالاً فهداك الله يا عمر » . ثم جاء رجل آخر فقال : يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم ، بظعنهم ونعمهم وشيائهم ، اجتمعوا إلى حنين . فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله تعالى » فلما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى هوازن ليلقاهم ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدرعاً له وسلاحاً فأرسل إليه ، وهو يومذاك مشرك ، فقال له : « يا أبا أمية أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غداً ؟ » ، فقال صفوان : أغصباً يا محمد ؟ قال : « بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك » . قال : ليس بهذا بأس ، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح . واستعار ﷺ من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح ، فقال له : كأني أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين .

خروجه إلى هوازن

وخرج رسول الله ﷺ إلى هوازن في اثني عشر ألفاً ، منهم ألفان من أهل مكّة ، وعشرة آلاف من أصحابه الذين فتح الله تعالى بهم مكّة ، واستعمل رسول الله ﷺ عتاب بن أسِيْد الأموي على مكّة أميراً على من تخلف بها وعنه من الناس .

وخرج مع رسول الله ﷺ ثمانون من المشركين ، منهم صفوان[1] بن أمية ، وخرج كثير من مكّة ، ركباناً ومشاة ، حتى النساء يمشين على غير وَهْنٍ يرجون الغنائم . فلما قربوا من محل العدو ، صفّ رسول الله ﷺ أصحابه ، وقسم الألوية والرايات على المهاجرين والأنصار ، فأعطى لواء المهاجرين لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر الأنصاري رضي الله عنه ، ولواء الأوس لأُسِيْد بن حضير الأنصاري رضي الله عنه ، وأعطى لكل بطن من الأوس والخزرج لواء وراية يحملها رجلُ منهم ، وكذلك أعطى لقبائل العرب ، لكل قبيلة لواء وراية ، وأعطى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه راية ، وأعطى سعيد بن أبي وقاص رضي الله عنه راية . فجاء رجلُ فارس[2] إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا ، فإذا هوازن جاءت عن بكرة أبيهم[3] بظعنهم ونعمهم وشائهم . فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله تعالى » ، ثم قال : « مَنْ يحرسنا الليلة ؟ » قال أنس بن أبي مَرْثَد : أناْ يا رسول الله . قال : « اركب » ، فركب فرساً له وجاء إلى رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : « استقبل

(١) وهو يومئذ في المدة التي جعل له عليه السلام الخيار فيها .
(٢) هو عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي .
(٣) أي لم يتخلف منهم أحد .

هذا الشِّعْب حتى تكون في أعلاه ، ولا تُغَرَّنَّ من قِبَلك الليلة » . فلما أصبح خرج رسول الله ﷺ إلى مُصَلاّه فركع ركعتين ، ثم قال : « هل أحْسَسْتُم فارسكم ؟ » قالوا : يا رسول الله ما أحسسناه فثُوِّبَ[1] بالصلاة . فجعل رسول الله ﷺ يصلّي وهو يلتفت إلى الشِّعب ، حتى إذا قضى صَلاته وسلّم قال : « أبشروا فقد جاءكم فارسكم » . فجعل ينظر إلى خِلاَل الشجر في الشعب وإذا هو قد جاء حتى وقف على رسول الله ﷺ ، فقال : إني انطلقت حتى كنتُ في أعلا الشّعب حيث أمرني رسول الله ﷺ فلما أصبحت طلعت الشّعِبين كليهما فنظرت فلم أجد أحداً . فقال له رسول الله ﷺ : « هل نزلت الليلة ؟ » قال : لا إلا مُصَليّاً أو قاضي حاجة . فقال له رسول الله ﷺ : « قد أوجبت[2] فلا عليك أن لا تعمل بعدها » .

فلما كان يوم السبت لست خلون من شوال سنة ثمان من الهجرة عبّأ رسول الله ﷺ أصحابه وصفّهم صفوفاً ، ولبس درعين[3] ، وهما (ذات الفضول) و (السعدية) ، ولبس المِغْفَر والبيضة ، وركب بغلته (دلدل)[4] ، واستقبل صفوف أصحابه وطاف عليها بعضاً خلف بعض

---

(١) نادى إليها وأقامها .

(٢) (أوجب فلان) : إذا ما فعل ما يوجب له الجنة أو النار ، والمراد هنا الجنة .

(٣) من هذا يعلم أن تعاطي الأسباب لا يخل بالتوكل ، فها هو سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ قد لبس درعين ولبس المغفر ، وفي أحد لبس اللأمة ، وقد دخل مكة والمغفر على رأسه . وقد قال تعالى : ﴿ **خذوا حذركم** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل** ﴾ ، لهذا لم يبرز للقتال متكشفاً بل اهتم بشأنه تعليماً منه لأمته وإشارة إلى أن ملاقاة الأعداء لا بد له من حزم وتوق ، والتوكل ينبغي أن يكون مقروناً بالتحصن .

(٤) كذا عند ابن سعد وغيره ؛ ونظر فيه الحافظ ابن حجر بأن « دلدل » أهداها له المقوقس وقد روى مسلم عن العباس أنه ﷺ كان على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي وجمع القطب الحلبي باحتمال أنه ركب كلا منهما يومئذ .

ينحدرون ، فحضّهم على القتال ، وبشّرهم بالفتح إن صَدَقوا وصبروا ، وقدم خالد بن الوليد رضي الله عنه في بني سُلَيم وأهل مكّة ، وجعل ميمنة ، وميسرة ، وقلباً ، وكان رسول الله ﷺ في القلب ، ثم مضى ، فقال العباس بن مرداس الأسلمي :

أبْلِغْ هوازنَ أعْلاها وأسْفَلَها ... مني رسالَةَ نُصْحٍ فيه تِبْيانُ
إني أظُنّ رسولَ الله صابِحَكُمْ ... جَيْشاً لهُ في فَضاءِ الأرضِ أركانُ
فيهِمْ سُلَيم أخوكم غيرَ تارِكِكمْ ... والمسلمونَ عبادَ الله غَسّانُ
وفي عِضَادته اليُمْنى بنو أسَد ... والأجْربان بنو عَبْس وذُبْيانُ
تكاد ترجُف منْه الأرْضُ موهبة ... وفي مقدّمهِ أوسٌ وعثمانُ

فقال رجل من جيش رسول الله ﷺ لما رأى الجيش في عِدّته وعُدّته وخيله الذي لم يسبق له مثيل : لن نُغْلَب اليوم من قلّة . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فشق عليه ذلك ، ويُقال أن القائل هو سلمة بن الأكوع ، أو سلامة بن وقش الأنصاري ، قال الحارث بن مالك : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ، ونحن حديثو عهد بالجاهلية ، فسرنا معه إلى حنين ، وكان لكفّار قريش ومَن سواهم مِنَ العرب شجرة عظيمة خضراء يُقال لها (ذات أنواط) يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً ، فرأينا ونحن نسير مع رسول ﷺ سدرة خضراء عظيمة فتنادينا من جنبات الطريق : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ؟ قال رسول الله ﷺ : « الله أكبر قلتم ، والذي نفس محمد بيده ، كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون إنها السنن لتركبُنّ سنَعَ[1] مَن كان قبلكم » ، ثم لما كان ثلثاً الليل

(١) السنن : النهج والطريقة .

عمد مالك بن عوف إليه هوازن فعبأهم في وادي حنين وهو واد أجوف ذو خطوط وشعاب ومضايق ، وفرق الناس فيها وأوعز إليهم أن يحملوا على رسول الله ﷺ . كذا قال ابن إسحاق .

معركة حنين

قال جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه : لما استقبلنا وادي حنين انحدرنا في أودية تهامة فإذا وادي حنين أجوف حَطُوط إنما ننحدر فيه انحداراً ، قال ، وكان في عَمَاية[1] الصبح وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي فكمنوا لنا في شعابه وأنحائه ومضايقه وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا ، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد ، وانشمر الناس راجعين لا يلوي أحد على أحد وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين ثم قال : « أين الناس ، هَلُمّوا إليّ ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله » قال ، فلا شيء حَمَلت الإبل بعضُهَا على بعض ، فانطلق الناس إلّا أنه قد بقي مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهلِ بيته ، وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر ، وعمر ، ومن أهل بيته عليّ بن أبي طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، وربيعة بن الحارث ، وأخوه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وابنه جعفر بن أبي سفيان بن الحارث ، والفضل بن عباس ، وأسامة بن زيد ، وأيمن بن أم أيمن بن عبيد ، قُتِل يومئذ ، وذكر الحافظ ابن حجر في (الفتح) فيمن ثبت مع رسول الله ﷺ قُثَم بن العباس ، وعتبة ، ومعتباً ، ابني أبي لهب بن عبد المطلب ، وعبد الله بن الزبير بن عبد المطلب ، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب ، وعقيل بن أبي طالب وشيبة بن عثمان الحجبي ، بعد أن

---

(١) بقية ظلمته .

أراد اغتيال رسول الله ﷺ فتقدم أمامه يضرب بسيفه وهو يقول : الله أعلم أني أحب أن أقيه بنفسي كل شيء ولو لقيت تلك الساعة أبي لو كان حياً لأوقعت به السيف فجعلت ألزمه حتى تراجع المسلمون فكَروا كَرّة رجُل واحد ، وقربتُ بغلة رسول الله ﷺ فاستوى عليها وخرج في أثرهم . كذا في « الطبقات » لابن سعد ،ب وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذاً برأس بغلته البيضاء وعليّ بن أبي طالب ، والعباس بين يديه وابن مسعود إلى الجانب الأيسر والنبي ﷺ يقول : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب[1] » . قال أهل السير أن المسلمين لما نزلوا وادي حنين تقدمهم كثير ممن لا خبرة لهم بالحرب وغالبهم من شبان مكّة وليس عليهم كبير سلاح . وفي (الصحيح) عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : عجل سرعان القوم وفي لفظ شبان أصحاب رسول الله ﷺ وليس عليهم سلاح وإنما لما حملنا على المشركين انكشفوا ، فأقبل الناس على الغنائم ، وكانت هوازن رماة فاستقبلتا بالسهام كأنها رجل جراد لا يكاد يسقط لهم سهم . وكان أول ما انكشفت خيل بني سليم مولية وتبعهم أهل مكة الطلقا ، وقد قال بعضهم لبعض ممن لم يتمكن الإيمان من قلبه أخذلوه فهذا وقته ، فانهزموا وتبعهم الناس ، وقد وصلت الهزيمة إلى مكة ، وسُرّ بذلك قوم بمكّة لا يزالون في شركهم وأظهروا الشماتة ، وقال قائل منهم : ترجع العرب إلى دِين آبائهم ، وقائل يقول : قُتِل محمد وتفرّق أصحابه ، فسمع بذلك عتاب بن أسِيد ، أمير مكّة ، فقال : إنْ قُتِلَ

---

(١) فيه جواز قول ذلك في الحرب ؛ ومثله قول سلمة : أنا ابن الأكوع . والكلام الموزون بغير قصد ولا يسمى شعراً بدليل وما علمناه الشعر وما ينبغي له مع تلفظه ﷺ بذلك ؛ وقد وقع في القرآن الكريم كثير من ذلك نحو ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ . وانتسب إلى جده لشهرته به ﷺ .

فإن دِين الله قائم والذي يعبده محمد حي لا يموت .

ولما انهزم الناس ورأى مَنْ كان مع رسول الله ﷺ من جُفَاة أهل مكّة الهزيمةَ تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن ، فقال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهي هزيمتهم دون البحر وإن الإزلام لمعه في كنانته . وصرخ كلدة بن الحنبل ، وهو مع أخيه لأمّه صفوان بن أمية وهو مشرك (ألا بطل السّحْر اليوم) فقال له صفوان : أكست فَضّ[1] الله فاك ، فوالله لأن يَرُبّني رجلٌ من قريش - يعني يملك أمري - أحب إلي من أن يَرُبّني رجلٌ من هوازن . ومَرّ رجُل من قريش بصفوان بن أمية وقال : أبْشِر بهزيمة محمد وأصحابه ، فوالله لا يجبرونها أبداً . فغضب صفوان وقال : أتُبَشِّرني بظهور الأعراب ، فوالله لرُبّ رجل من قريش أحب إليّ من رجل من الأعراب . وغضب صفوان لذلك وبعث غلاماً له فقال اسمع لمن الشعار فجاءه فقال : سمعتهم يقولون يا بني عبد الرحمن ، يا بني عبيد الله ، يا بني عبد الله ، فقال ظهر محمد وكان ذلك شعارهم . وقال له عكرمة بن أبي جهل : وكونهم لا يجبرونها أبداً هذا ليس بيدك الأمر بيد الله ليس إلى محمد منه شيء ، إن أديل عليه اليوم فإن له العاقبة غداً . فقال له سهيل بن عمرو : والله أن عهدك بخلافه لحديث . فقال له يا أبا يزيد إنا كنا على غير شيء وعقولنا ذاهبة نعبد حجراً لا يضر ولا ينفع .

قال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه : إنّي لمع رسول الله ﷺ آخذ بحَكَمَة[2] بغلته البيضاء قد شَجَرْتها بها وكنت امرءاً جسيماً شديد الصوت ، قال رسول الله ﷺ حين رأى ما رأى من الناس : « أين أيّها

---

(١) أي كسر أسنانك . ويربني : أي يتولى علي .

(٢) الحكمة : هي ما أحاط من اللجام بحنكي الدابة والعرب تتخذها من القد سيرقد من جلد غير مدبوغ .

الناس ؟ » ، فلم أر الناس يلوون على شيء ، فقال : « يا عباس اصرخ يا معشر الأنصار يا معشر أصحاب السمر » ، وفي رواية البغوي والبيهقي : « يا عباس اصرخ بالمهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة وبالأنصار الذين أووا ونصروا » ـ يعني الشجرة التي بايعوه تحتها بيعة الرضوان ـ وكان تارة ينادي العباس : يا أصحاب سورة البقرة ، فلما سمع المسلمون نداء العباس أقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت على أولادها ، فأجابوا : لبيك ، لبيك . قال العباس : فيذهب الرجل ليثني بعيره فلا يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلي سبيله فيؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا ، وكانت الدعوى أول ما كانت : يا لَلْأنصار ، ثم خَلَصت أخيراً يا للخزرج ، وكانوا صُبُراً عند الحرب ، فأشرف رسول الله ﷺ في ركائبه فنظر إلى مجتَلَد القوم وهم يجتلدون فقال : « الآن حَمِيَ الوطيس » (والوطيس التنور إذا أوقد فيه النار) ـ يعني بلغ القتال أشده ـ وهذه الكلمة أول[1] ما سمعت من رسول الله ﷺ ، فدعا رسول الله ﷺ عند ذلك فقال : « اللهم أنشدك ما وعدتني ، اللهم لا ينبغي لهم أن يظهروا علينا ، كنت وتكون وأنت حي لا تموت تنام العيون وتنكدر النجوم وأنت حي قيوم لا تأخذك سنة ولا نوم ، يا حي يا قيوم » ، وأخذ رسول الله ﷺ حصيات من الأرض ثم قال : « شاهت[2] الوجوه » ، ورمى بها في وجوه المشركين فوقعت في أبصارهم ، وجاهد المهاجرون والأنصار وأهل بيته رضي الله عنهم جهاد المستميت دون رسول الله إذ كان المشركون يفوقون أصحاب رسول الله ﷺ حيث كانوا نيفاً وعشرين ألفاً والمسلمون

---

(١) قال الحافظ وأمثاله ﷺ التي لم يسبق إليها كثيرة كقوله حمي الوطيس ولا ينتطح فيها عنزان والولد للفراش وللعاهر الحجر .

(٢) شاهت الوجوه : قبحت الوجوه .

نحو المائة . ثم ركض رسول الله ﷺ نحو المشركين . قال الحافظ ابن كثير في تفسيره : وثبت رسول الله ﷺ ، وهو راكب يومئذ بغلته الشهباء يسبوقها إلى نحر العدوّ ، والعبّاس عمّه آخذ بركابها الأيمن ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر يثقلانها لئلا تسرع السير ، وهو ينوه باسمه عليه الصلاة والسلام ، ويدعو المسلمين إلى الرجعة : « أين يا عباد الله ، إليّ أنا رسول الله » ثم يقول ﷺ في تلك الحال : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » ، وثبت معه من أصحابه قريب من مائة . ثم قال : وأخذ ﷺ قبضة من التراب ، بعدما دعا ربّه واستنصره ، ثم رمى القوم بها فما بقي إنسان منهم إلاّ أصابه منها في عينيه وفمه ما أشغله عن القتال ثم انهزموا ، فأتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون ، وما تراجع بقية الناس إلاّ والأسرى مجندلة بين يدي رسول الله ﷺ . وقال ابن كثير : وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة ، إنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى وقد انكشف عنه جيشه وهو مع هذا على بغلة ليست سريعة الجري ولا تصلح لفر ، ولا لكر ، ولا لهرب ، ومع هذا يركضها إلى وجوههم ، وينوه باسمه ليعرفه مَن لم يعرفه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ، وما هذا كله إلا ثقة بالله وتوكلاً عليه . قال البراء : كنا والله إذا أحمر البأس نتقي به ، وإن الشجاع منا للذي يحاذيه ، يعني رسول الله ﷺ . قال جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه : بينا ذلك الرجل من هوازن صاحب الراية على جمل يصنع ما يصنع إذ هوى له علي بن أبي طالب رضي الله عننه ورجل من الأنصار يريدانه ، فأتاه علي بن أبي طالب من خلفه فضرب عرقوب الجمل فوقع على عجزه ووثب الأنصاري على الرجل فضربه ضربة أطن قدمه بنصف ساقه فانجعف عن رحله ، قال : واجتلد الناس ، فوالله ما رجعت راجعة الناس من الهزيمة حتى وجدوا الأسارى مكتّفين عند رسول الله ﷺ . وقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن

يقتلوا من قدروا عليه ، واتبعهم المسلمـون يقتلون فيهم حتى قُتِلَ بعض الذرية فنهاهم النبي ﷺ عن قَتْل الذرية[1] . وقال رسول الله ﷺ : « مَن قتـل قتيلاً فله سَلبـه »[2] ، واستلب أبو طلحـة زيد بن سهيـل بن الأسود النجاري الأنصاري رضي الله عنه زوج أم سليم وحده عشرين رَجُلاً بعد أن قتلهم بيده . قال أبو قتادة الأنصاري رضي الله عنه : رأيت يوم (حنين) رجلين يقتتلان ، مسلماً ومشركاً ، قال : وإذا رجل من المشركين يريد أن يعين صاحبه المشرك على المسلم ، فأتيته فضربت يده فقطعتها واعتنقني بيده الأخرى فوالله ما أرسلني حتى وجدت ريح الموت وكاد يقتلني ، فلولا أن الدم نزفه لقتلني ، فسقط ، فضربته فقتلته وأجهضني عند القتال ، ومر به رجل من أهل مكّة فسلبه ، فلما وضعت الحـرب أوزارها وفـزعنا من القوم ، قال رسول الله ﷺ : « مَن قتل قتيلاً فله سلبه » . فقلت : يا رسول الله ، والله لقد قتلتُ قتيلاً ذا سلب فأجهضني عن القتال فمـا أدري من استلبه . فقال رجل من أهل مكّة : صدَق يـا رسول الله ، وسلب ذلـك القتيل عندي ، فأرضه عني من سلبه . فقال أبو بكر الصـدّيق رضي الله عنه : لا والله لا يرضيه منه ، تعمد إلى أسد من أسُود الله يقاتل عن دِين الله تقاسمه سلبه ، اردد عليه سلب قتيله ، فقال رسول الله ﷺ : « صدَق ، أردد عليه سلبه » . قال أبو قتادة : فأخذته منه فبعته فاشتريت بثمنه مخفراً ، يعني بستاناً ، فإنه لأول مال اعتقلته . قال جبير بن مطعم رضي الله عنه :

---

(١) فقال : « ما بال أقوام ذهب بهم القتل حتى بلغ الذرية ، ألا لا تقتل الذرية » . فقال أسيد بن الحضير : يا رسول الله أليس إنما هم أولاد المشركين ؟ فقال ﷺ : « أو ليس خياركم أولاد المشركين ؟ كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب لسانها وأبواها يهودانها أو ينصرانها .

(٢) أي ما يوجد مع المحارب من ملبوس وغيره عند الجمهور . وعن أحمد : لا تدخل الدابة . وعن الشافعي تختص بأداة الحرب .

لقد رأيت ، قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون ، مثل البِجَاد[1] الأسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم ، فنظرت فإذا نمل أسود مبثوت قد ملأ الوادي ، لم أشك أنها الملائكة ، ثم لم يكن إلا هزيمة القوم . (رواه ابن إسحاق) . وذكر محمد بن عمر ، قال : كان من دعاء رسول الله ﷺ ، حين انكشف عنه الناس ولم يبق معه إلا المائة الصابرة : « اللهم لك الحمد وإليك المشتكي وأنت المستعان » . وروى ابن كثير في تفسيره عن أبي يعلى بن عطاء أنه حدّثه أبناء هوازن عن آبائهم أنهم سمعوا صلصلة بين السماء والأرض كإمرار الحديد على الطشت الحديد . وروى ابن جَرير الطبري في تفسيره عن المعتمر بن سليمان بن عوف ، قال : سمعت عبد الرحمن مولى أم برثن حدّثني رجل كان مع المشركين يوم حنين قال : لما التقينا نحن وأصحاب رسول الله ﷺ يوم حنين لم يقوموا لنا حلب شاة ، قال : فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم في آثارهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة البيضاء ، فإذا هو رسول الله ﷺ ، قال ، فتلقّانا عنده رجال بيض حسان الوجوه ، فقال لنا : « شاهت الوجوه ارجعوا » ، فانهزمنا ، وركبوا أكتافنا فكانت إياها . فهذا خبر وجود الملائكة[2] مع رسول الله ﷺ يوم حنين ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا ﴾ .

فهزم المشركين شَرّ هزيمة حتى تركوا النساء والذرية والأموال بمن ثبت بين يدي رسول الله ﷺ ، وهم المائة من المهاجرين والأنصار وأهل بيته ، الذين سقحوا هوازن حسياً بالسيوف والرماح ، وكان رسول الله ﷺ في هذا الموقف أشجع الناس ، وكان أعظم أصحابه بأساً من حاذاه ،

---

(١) البجاد : الكساء ، وجمعه بجد .

(٢) وكان سيما الملائكة يوم حنين عمائم حمر أرخوها بين أكتافهم . وقال ابن عباس : كانت عمائم خضر . ويحتمل أن بعضها خضر وبعضها حمر .

وقاتل خالد بن الوليد رضي الله عنه قتال المستميت حتى أثخنته الجراح ، وقال كثير من أصحابه الذين كانوا معه أنه لم يرجع المنهزمون إلا والأسارى والأموال عند رسول الله ﷺ . وقال أبو بشير المازني رضي الله عنه يصف الهزيمة : فاختلطت صفوفنا وانهزمنا مع المقدمة ، وأكثرنا يومئذ غلام شاب ، وقد علمت أن رسول الله ﷺ متقدم فجعلت أقول : يا لَلأنصار بأبي وأمي عن رسول الله ﷺ تولون ؟ وأكر في وجوه المنهزمين ليس لي همة إلا النظر إلى سلامة رسول الله ﷺ ، حتى صرت إلى رسول الله ﷺ وهو يصيح : « يا لَلأنصار » ، فدنوت من دابته والتفت من ورائها وإذا الأنصار قد كَرّوا كَرّة رجل واحد ورسول الله ﷺ واقف على دابته في وجوه العدو ، ومضت الأنصار أمام رسول الله ﷺ يقاتلون ورسول الله ﷺ ساير معهم يفرجون العدو عنه حتى طردناهم فرسخاً ، وتفرّقوا في الشعاب حتى فلوا من بين أيدينا ، فرجع رسول الله ﷺ إلى منزله ، وقبّته قد ضُرِبَتْ له والأسرى مكتّفون حولها وإذا نفر حول قبّته ، وفي قبّته زوجتاه : أمّ سلمة ، وميمونة ، وحولها النفر الذين يحرسون رسول الله ﷺ ، وهم : عباد بن بشر ، وأبو مايلة ، ومحمد بن مسلمة .

ولما هزم الله المشركين من أهل (حنين) ومكّن رسول الله ﷺ منهم قالت امرأة من المسلمين :

غلَبَتْ خيلُ الله خيلَ اللاّتِ وخيلُه أحقُّ بالثّباتِ

وأخذ الصحابة يقتفون أثر هوازن إلى أوطاس ، فأدرك ربيعة بن رفيع السلمي ، وهو ابن الدغنة دُرَيْد بن الصمّة ، فأخذ بخطام جمله وهو يظن أنه امرأة لأنه كان في شجار له شبه الهودج ، فإذا هو برجل فأناخ به ، فإذا شيخ كبير ، وإذا هو دُرَيْد بن الصمة ، ولا يعرفه الغلام ، فقال له دريد : ماذا تريد بي ؟ قال : أقتلك . قال : ومَن أنت ؟ قال : أنا ربيعة بن رُفيع

السلمي ، ثم ضربه بسيفه فلم يغن فيه شيئاً ، فقال له دريد : بئس ما سلّحتك أمك ، خُذْ سيفي هذا من مؤخر الرحل ثم اضرب له وارفع عن العظام وأخفض عن الدماغ فإني كذلك كنت أضرب الرجال ، ثم إذا أتيت أمك فاخبرها أنك قتلت دريد بن الصمّة ، فرُبّ يوم والله قد منعت فيه نساءك . قال ربيعة : لما ضربته فوقع تكشف فإذا عجانه وبطون فخذيه مثل القرطاس من ركوب الخيل اعراء ، فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله إياه ، قالت : أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثاً[1] .

وقد استمر القتل في بني مالك من ثقيف ، فقتل منهم سبعون رجلاً تحت رايتهم ، فيهم عثمان بن عبد الله بن ربيعة بن الحارث ، وكانت رايتهم مع ذي الخِمَار ، فلما قُتِل أخذها عثمان بن عبد الله فقاتل بها حتى قُتِل . فلما بلغ رسول الله ﷺ قَتْله قال : « أبعده الله ، فإنه كان يُبْغِضُ قريشاً » . وكان قُتِل مع عثمان بن عبد الله غلام له نصراني اغرل[2] ، فبينا رجل من الأنصار يسلب قتلى ثقيف إذ كشف العبدَ يسلُبُه فوجده اغْرَلَ ، فصاح بأعلى صوته : يا معشر العرب يعلم الله أن ثقيفاً غُرْل ، قال المغيرة بن شعبة رضي الله عنه : فأخذت بيده وخشيت أن تذهب عنا في العرب ، لأنه كان من ثقيف ، قال ، فقلت : لا تقل ذلك فداك أبي وأمي إنما هو غلام نصراني ، ثم جعلت أكشف له عن القتلى وأقول له ألا تراهم مختتنين كما ترى . وكانت راية الأحلاف مع قارِب بن الأسود ، فلما انهزم الناس أسْنَدَ رايته إلى شجرة وهرب هو وبنو عمه وقومه من الأحلاف ، فلم يقتل من الأحلاف غير رجلين ، رجل من بني غِيَرَة يقال له وهب ، والآخر من بني كُنَّة يقال له الجُلَاح ، فقال رسول الله ﷺ حين بلغه قَتْل الجُلَاح :

---

(١) وقيل أن الذي قتله الزبير بن العوام ، وقيل عبد الله بن قبيع .
(٢) أغرل : غير مختون ، ومن عادة العرب الختان .

« قُتِلَ اليوم سيد شباب ثقيف الا ما كان من ابن هنيدة » ، يعنب بابن هُنَيدة الحارث بن أُوَيس . والتفت رسول الله ﷺ فرأى أم سُلَيم ابنة ملحان الأنصارية مع زوجها أبي طلحة وهي حازمة وسطها ببرد لها وأنها لحامل بعبد الله بن أبي طلحة ومعها جمل أبي طلحة ، وقد خشيت أن يَعُزّها[1] الجمل فأدنت رأسه منها فأدخلت يدها في خزامته[2] مع الخِطَام ، وكانت مع زوجها في قتال القوم حتى هزمهم الله تعالى ، فقال لها رسول الله ﷺ : « أم سليم » ؟ قالت : نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله أقْتُل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك فإنهم لذلك أهل . فقال لها رسول الله ﷺ : « أو يكفي الله يا أم سليم » ، وكان معها خِنْجَر ، فقال لها زوجها أبو طلحة : ما هذا الخنجر معك يا أم سليم ؟ قالت : خنجر أخذته إن دنا مني أحد من المشركين بعجتُهُ به . فقال أبو طلحة : ألا تسمع يا رسول الله ما تقوم أم سليم الرمصاء[3] . وهذه أم سليم هي أم أنس بن مالك الأنصاري خادم رسول الله ﷺ .

وكانت هزيمة المشركين شر هزيمة ، فمنهم مَن أتى الطائف ومعهم

---

(١) أي يغلبها .

(٢) الخزامة : حلقة من شعر تجعل في أنف البعير .

(٣) الرمصاء : التي يخرج القذى من عينها . وعن أنس قال : مات ابن لأبي طلحة من أم سليم فقالت لأهلها : لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه . فجاء فقال : ما فعل ابني ؟ فقالت : هو أسكن ما كان ، فقربت إليه عشاء فأكل وشرب ثم تصنعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك فوقع بها فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها قالت : يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوماً أعاروا عاريتهم أهل بيت وطلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوا ؟ قال : لا . قالت : فاحتسب ابنك . فغضب ، ثم انطلق رسول الله ﷺ فأخبره بما كان ، فقال رسول الله ﷺ : « بارك الله لكما في غابر ليلتكما » . قال : فحملت بعبد الله . ولعبد الله هذا تسعة أولاد كلهم قد قرءوا القرآن . وإنما هذا لأجل ما لأم سليم من رابطة الجأش وعدم الجزع .

مالك بن عوف رئيس هوازن ، وعسكر بعضهم بأوطاس ، وتوجه بعضهم نحو بجيلة ، ولم يكن فيمن توجه نحو نخلة إلا بنو غِيَرَة من ثقيف . روى محمد بن عمر عن شيوخ من ثقيف قالوا : ما زال رسول الله ﷺ في طلبنا فيما نرى ونحن مولون حتى أن الرجل ليدخل حصن الطائف وأنه ليظن أنه على أثره من رعب الهزيمة . وروى الإمام أحمد عن أنَس بن مالك رضي الله عنه قال : كان في المشركين رجل يحمل علينا فيدقنا ويحطمنا ، فلما رأى ذلك رسول الله ﷺ نزل فهزمهم الله تعالى فولوا ، فقام رسول الله ﷺ حين رأى الفتح فجعل يُجاء بهم أسارى رجل ، رجل ، يبايعونه على الإسلام ، فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ : إن عليّ نذراً لئن جيء بالرجل الذي كان منذ اليوم يحطمنا لأضربن عنقه . فسكت رسول الله ﷺ . قال : يا نبي الله ، تبت إلى الله . وأمسك رسول الله ﷺ عن مبايعته ليوفي الآخر بنذره ، وجعل ينظر إلى رسول الله ﷺ ليأمره بقتله ، وهاب رسول الله ﷺ ، فلما رأى رسول الله ﷺ الرجل لا يصنع شيئاً بايعه ، فقال : يا رسول الله نذري . قال : « لم أمسك عنه منذ اليوم إلا لتوفي نذرك » . فقال : يا رسول الله ألا أومأت إليّ . قال : « إنه ليس لنبي أن يومىء » .

فلما استقر رسول الله ﷺ في قبّته دخل عليه شيبة بن عثمان الحجبي ، وما دخل عليه أحد غيره ، فقال له رسول الله ﷺ : « يا شيبة ، الذي أراد الله خير مما أردت بنفسك » . قال شيبة : ثم حدثني ﷺ بكل ما أضمرته في نفسي مما لم أذكره لأحد قط ، فقلت أني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . ثم قلت : استغفر لي ؟ قال : « غَفَرَ الله لك » .

وقد جرح خالد بن الوليد رضي الله عنه ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فمشى بين المسلمين بعد أن رجعوا إلى رحالهم من قتال المشركين ويقول : « مَن يدلّني على رحل خالد بن الوليد ؟ » فسعى عبد الرحمن بن

أزهر رضي الله عنه بين يديه ، وهو غلام محتلم ، فصار يقول : مَن يدل على رحل خالد بن الوليد ؟ حتى دل عليه ، فإذا خالد مستند إلى مؤخرة رحله قد أثقل بالجراحة ، فأتاه رسول الله ﷺ فنظر إلى جراحه ، فتفل فيها فبرىء .

قال سلمة بن الأكوع رضي الله عنه : بينما نحن نتضحى مع رسول الله ﷺ إذا رجل على جمل أحمر فأناخه ثم انتزع طلقاً من حقبه فقيّد به الجمل ، ثم تقدّم فتغدى مع القوم وجعل ينظر وفينا صعفة ورقة من الظهر وبعضنا مشاة إذ خرج يشتد فأتى الجمل فأطلق قيده ، ثم أناخه ثم قعد عليه ، فاشتد به الجمل واتبعه رجل من أسلم من أصحاب رسول الله ﷺ على ناقة ورقاء فقال رسول الله ﷺ : « أطلبوه واقتلوه » . قال سلمة : فخرجت أشتد ، فكنت عند ورك الناقة ، ثم تقدمت حتى كنت عند ورك الجمل ، ثم تقدمت حتى أخذت بخطام الجمل فأنحنه ، فلما وضع ركبته على الأرض اخترطت سيفي فضربت رأس الرجل فغدى ، ثم جئت بالجمل أقوده عليه رحله وسلاحه ، فاستقبلني رسول الله ﷺ والناس معه فقال : « مَن قتل الرجل » قالوا : ابن الأكوع . قال : « له سلبه أجمع » .

وأسلم يومئذ كثير من كفّار مكّة وغيرهم لما رأوا الله تعالى لرسوله ﷺ وللمؤمنين بمائة رجل من أصحابه على هوازن ومَن معهم من ثقيف وغيرهم من المشركين البالغين نيفاً وعشرين ألفاً . ولأجل أن لا يكون القارىء في ريب من قولنا أن الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ مائة رجل من أصحابه وبهم كانت هزيمة هوازن ومَن معهم ، فأذكر هنا الروايات الواردة في ذلك .
روى الترمذي ، من حديث ابن عمر بإسناد حسن ، قال : لقد رأيتنا يوم حنين وأن الناس لمولِّين وما مع رسول الله ﷺ مائة رجل ، قال الحافظ ابن حجر العسقلاني إمام المحققين في (فتح الباري شرح صحيح البخاري) : وهذا ـ يعني حديث الترمذي ـ أكثر ما وقفت عليه من عدد من

ثبت يوم حنين . وروى أحمد والحاكم من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال : كنت مع النبي ﷺ يوم حنين فولى الناس وثبت معه ثمانون رجلاً من المهاجرين والأنصار فكنا على أقدامنا ولم نولهم الدبر وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة وهذا لا يخالف حديث ابن عمر فانه نفى أن يكون مائة وابن مسعود أثبت أنهم ثمانون . انتهى . وفي (سبيل الهدى والرشاد) روى البيهقي عن حارثة بن النعمان رضي الله عنه قال : لقد أحرزت من بقي مع رسول الله ﷺ حين أدبر الناس فقلت مائة واحد . وروى ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لقد رأيتنا يوم حنين وأن الفئتين لموليتان وما مع رسول الله ﷺ مائة رجل . وروى الإمام أحمد والطبراني والحاكم وأبو نعيم والبيهقي برجال ثقات عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنت مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى الناس وثبت معه ثمانون رجلاً من المهاجرين والأنصار فنكصنا على أعقابنا نحواً من ثمانين قدماً ولم نولهم الدبر . وروى البزار عن أَنس رضي الله عنه أن أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ضُرِب كل منهم يومئذ بضعة عشر ضربة وابن مسعود أيضاً ، ومن الأنصار أبو دجانة وحارثة بن النعمان كذا عند محمد بن عمر ، وسعد بن عبادة ، وأبو بشير المازني ، وأسيد بن حضير رضي الله عنهم ، ومن أهل مكّة شيبة بن عثمان الحجبي كما تقدّم ، ومن نساء الأنصار أمّ سليم بنت ملحان أم أَنس بن مالك ، وأم عمارة نسيبة بنت كعب ، وأم الحارث جدة عمارة بنت غزية ، وأم سليط بنت عبيد . قال محمد بن عمر : يُقال أيضاً أن المائة الصابرة يومئذ ثلاثة وثلاثون من المهاجرين وستة وستون من الأنصار ، انتهى . فهؤلاء مجموعهم تسعة وتسعون ، والظاهر تمام المائة يكون شيبة بن عثمان الحجبي وهو مكّي ولم يعتبر من المهاجرين ولا من الأنصار كما هو ظاهر .

وروى ابن جَرير في تاريخه من طريق ابن اسحقا عن العباس بن

عبد المطلب رضي الله عنه قال : إنّي لمع رسول الله ﷺ آخذ بحَكَمَة بغلته البيضاء قد شجرتها بها ، قال ، وكنتُ امرأ جسيماً شديد الصوت ، قال ، ورسول الله ﷺ يقول حين رأى الناس ما رأى : « أين أيها الناس » ، فلما رأى الناس لا يلوون على شيء قال : « يا عباس ، اصرخ يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة » ، فناديت يا معشر الأنصار يا معشر أصحاب السمرة ، قال ، فأجابوا أن لبيك ، لبيك ، قال ، فيذهب الرجل منهم يريد ليثني بعيره فلا يقدر على ذلك فيأخذ درعه فيقذفها في عنقه ويأخذ سيفه وترسه ثم يقتحم عن بعيره فيخلي سبيله في الناس ثم يؤم الصوت حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ حتى إذا اجتمع إليه مائة رجل استقبلوا الناس فاقتتلوا ، فكانت الدعوى أولاً يا لَلأنصار ثم جعلت أخيراً يا لَلْخزرج ، وكانوا صُبُراً عند الحرب ، فأشرف رسول الله ﷺ في ركابه فنظر إلى مجتَلَد القوم وهم يجتلدون ، فقال : « الآن حَمِي الوطيس » ، انتهى . وفي حديث جابر بن عبد الله المتقدم : فوالله ما رجعت راجعة الناس من الهزيمة حتى وجدوا الأسارى مكَتّفين عند رسول الله ﷺ .

وذكر الحافظ ابن كثير في تفسيره : في قصة حنين جملة روايات وفيها أن الذين صبروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين مائة رجل ، منها رواية جابر بن عبد الله : حتى اجتمع إلى رسول الله ﷺ مائة ، فاستعرض الناس فاقتتلوا ، قال ، فوالله ما رجع الناس إلا والأسارى عند رسول الله ﷺ ملقون . ومنها ، من رواية ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : كنتُ مع رسول الله ﷺ يوم حنين فولى عنه الناس وبقيت معه في ثمانين رجُلاً من المهاجرين والأنصار ، قدمنا ولم نولهم الدبر ، وهم الذين أنزل الله عليهم السكينة . وروى محمد بن عمر ، قال : كان من دعاء رسول الله ﷺ حين انكشف عنه الناس ولم يبق معه إلا المائة الصابرة ، كما تقدّم ذكر ذلك . وفي (الصحيحين) عن البراء بن عازب رضي الله عنهما : أن رجلاً قال

له : يا أبا عمارة أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين ؟ فقال : لكن رسول الله ﷺ لم يفر ، إن هوازن كانوا قوماً رماة فلما لقيناهم وحملنا عليهم انهزموا ، فأقبل الناس على الغنائم ، فاستقبلونا بالسهام ، فانهزم الناس ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته البيضاء وهو يقول : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » . فهؤلاء الصحابة الذين ضروا وقعة حنين يحدّثون أنه لم يثبت مع رسول الله ﷺ ، بعد الهزيمة ، أكثر من مائة . وهذا جابر يقول : ما رجعت راجعة الناس من الهزيمة حتى وجدوا الأسارى مكَتّفين عند رسول الله ﷺ ، فهل بقي ، بعد ذلك ، للقارىء ريب أو شكّ في ذلك ؟ والحكمة في ذلك أن الله سبحانه وتعالى له في خلقه شؤون وخوارق . فلما كان بعض الصحابة أعجب بكثرة الجيش لكونه كان أعظم جيش خرج مع رسول الله ﷺ من يوم أمر بالقتال إلى ذلك التاريخ عَدداً ، وعُدّة ، وقال : لن نغلب اليوم من قلة . فأراد الله سبحانه وتعالى أن يريه ، هو ومن يظن ظنه ، أن النصر بيد الله تعالى لا بيد القوة وحدها ، فانهزموا في أثناء المعركة ، ولما ثبت مع رسول الله ﷺ مائة رجل كتب الله له النصر بالمائة ، ولم ترجع راجعة الناس إلا والأسارى والغنائم بين يدي رسول الله ﷺ ، ومما يؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمّ وَلّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمّ أَنْزَلَ اللّهُ سَكِيْنَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ . فقوله تعالى : وعلى المؤمنين الذين ثبتوا ، لا يدل على أن مَن لم يثبت ليس بمؤمن ، فإذا قلت لرجل : أنتَ مؤمن ، فهل يكون غيره ليس بمؤمن ؟ كلا ، حيث أن هذه اللفظة لا تدل على الحصر بمعنى الذين ثبتوا هم المؤمنون ، والذين لم يثبتوا ليسوا بمؤمنين ، فهذا ليس بمعقول ، وإنما كان الفضل في هذه الوقعة لمن ثبت لا لمن فَرّ وانهزم ، مع أن كثيراً ممن انهزم له مواقف سبقت في الوقائع المتقدمة تدل على شدة بأسه وقوة

جلادته في الحروب ، ولكن ذلك كان بقضاء الله وقدره . ومَنْ تَتَبّع التفاسير يعلم ذلك . كما أنه ورد أن الذين ثبتوا في الإبتداء مع رسول الله ﷺ أربعة : العباس ، وعلي ، وأبو سفيان بن الحارث ، وعبد الله بن مسعود . ثم ذكر الإمام النووي في شرح مسلم ، أنه ثبت معه اثنا عشر رجلًا . وعدَّهم ابن اسحاق تسعة ، فقال : ثبت معه العبّاس ، وابنه الفضل ، وعلي ، وأبو سفيان بن الحارث ، وأخوه ربيعة ، وأسامة بن زيد ، وأخوه لأمّه أيمن بن أم أيمن ، وأبو بكر ، وعمر . ووقع في شِعْر العباس بن عبد المطلب عشرة فقط ، وذلك قوله :

نُصرنا رسول الله في الحرب تسعة وقد فرّ من قد فرّ عنه فاقشعوا
وعاشِرنا وافى الحِمَام بنفْسه

وكل ذلك صحيح كان في أول الهزيمة ، ثم لما أمر رسول الله ﷺ العباس أن يصرخ يا معشر الأنصار فتوارد القوم على نداء العباس ، فبلغوا مائة رجُل كما قدّمنا ، فحازوا النصر من الله تعالى ، وأمدّهم الله تعالى بالملائكة كما جاء في القرآن الكريم ﴿ وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا ﴾ ، يعني الملائكة ، لتثبيت المؤمنين وتشجيعهم وخذلان المشركين وجبنهم ، لا للقتال[1] ، لأن الملائكة لم تُقاتِل ، وهو قول أكثر المفسرين . وليس ذلك بعيداً عن تصورات العقل الصحيح ، فقد أثبت التاريخ أنه حصل ما يقرب من ذلك لغير الأنبياء فما بالك بالأنبياء صلوات الله عليهم الذين يقاتلون

(١) وفي « زاد المعاد » قال : والملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين في هاتين الغزاتين ، يريد بدراً وحنيناً . والجمهور على أنها لم تقاتل يوم حنين لأن الله تعالى قال : ﴿ وأنزل جنوداً لم تروها ﴾ ولا دلالة فيه على قتال . وفي تفسير ابن كثير المعروف من قتال الملائكة إنما كان يوم بدر وقال ابن مرزوق وهو المختار من الأقوال ، وفي قول أنها لم تقاتل حتى في بدر وهو ثالثها .

لإعلاء كلمة الله تعالى وإبادة المعاندين . حيث إن القاعدة عند الأمم السالفة في حروبها أن الفوز والنصر يكون بيد القائد ، لأن القائد عادة يكون أمام الجيش ، فإذا ثبت ، ثبت معه قومه ، وإذا قُتِل ولم يكن في القوم مَن ينوب عنه هُزِم جيشه ، ولذلك كان القائد لجيش المسلمين في حنين رسول الله ﷺ ، فلما ثبت لم يؤثر عليه هزيمة الناس وكان في النتيجة النصر له ، ولما هُزِم قائد هوازن مالك بن عوف كان من هزيمته هزيمة قومه ، ولذلك أمثال كثيرة في التاريخ ، فمن ذلك وقعة أُحُد لما صاح ابن قمئة أن محمداً قد مات فَرّ الناس ومعظمهم دخل المدينة وكانت الهزيمة ، مع أنه لم يُقْتَل في تلك الوقعة من المسامين غير سبعين رجلاً ومعظمهم من الرماة ، وكذلك يوم بَدْر لما قُتِل صناديد قريش فَرّ المشركون وهم نحو ألف ، مع أن جميع من قُتِل منهم لم يتجاوز السبعين ، وغير ذلك من الأمثلة التاريخية الصحيحة . ولم آت بما أتيت به هنا لإقناع الجاهل الأحمق ، أو الغبي المعاند ، أو المُلْحد الأرعن ، لأن هؤلاء قد أعمى الله أبصارهم وبصائرهم ، وطمس عقولهم وقلوبهم ، فلا يسمعون ولا يبصرون ، ولا يعقلون ولا يتصورون . وإنما أتيت بما استطردته من الأدلة لإزالة الشك عن فكر المتبصر من صحة النقل في ذلك ، والتاريخ مرجعه النقل الصحيح لا الفكر السقيم .

الغنائم

بعد أن انتهى رسول الله ﷺ من حُنَين أمر بالغنائم أن تُجْتَمع ، ونادى مناديه : « مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يغل » ، وجعل الناس غنائمهم في موضع حيث استعمل عليها رسول الله ﷺ . وروى الحاكم بسند صحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، قال : أخذ رسول الله ﷺ يوم حُنَين وبرة من بعير ثم قال : « يا أيها الناس أنه لا يحل لي مما

أفاء الله تعالى عليكم قَدْر هذه إلا الخُمس ، والخُمس مردود عليكم فأدوا الخيط والمخيط ، وإياكم والغلو ، فإنه عاد على أهله يوم القيامة » وكان عقيل بن أبي طالب دخل على زوجته وسيفه ملطّخ بدم فقالت : إني علمت أنك قاتلتَ اليوم المشركين فماذا أصبت من غنائمهم ؟ . . . فقال : هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك . فدفعها إليها ثم خرج ، فسمع منادي رسول الله ﷺ يقول : مَن أصاب شيئاً من المغنم فليرده ، فرجع عقيل رضي الله عنه إلى امرأته فقال : والله ما أرى إبرتك إلا قد سُلِبَتْ منك . فأخذها فألقاها في الغنائم . وجاء رجل بكَبّة من شَعْر فقال : يا رسول الله أضرب بهذه بردعة لي ؟ فقال رسول الله : « أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لك » . وأتى رسول الله ﷺ يوم حُنَين في قبائلهم يدعوهم ، وأنه ترك قبيلة من القبائل وجدوا في بردعة رجُل منهم عقداً من جذع غلولاً فأتاهم رسول الله ﷺ فكبّر كما يكبّر على الميت . إذا تأمّلت ذلك تعلم أن رسول الله ﷺ كان يعلِّم أصحابه كيف يكون حفظ الأمانة والتساوي فيما بينهم ، ولا يسمح لأحدهم أن يمتاز على غيره ولا بإبرة ولا بوبرة من شَعْر ، مع أن ذلك ، بالنسبة لما غنم المسلمون من هوازن ، لا يعد شيئاً ، ولكن الأمانة إذا أدِّيت في الشيء التافه تؤدي في الشيء الكبير ، وإذا وقع التساهل في الحقير ضاع العظيم ، فلهذا ساد الإسلام والمسلمون في ذلك العهد على غيرهم .

قال ابن سعد : كان السبي في حنين ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة وأربعة آلاف أوقية فضة . وروى عبد الرزاق عن سعيد بن المسيب ، قال : سبى رسول الله ﷺ يومئذ ستة آلاف سبي من امرأة وغلام ، فجعل عليهم رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب . وقال البلاذري : إنه بديل بن ورقاء الخزاعي ، وروى الطبراني عن بديل بن ورقاء رضي الله عنه أن رسول

الله ﷺ أمر أن تحبس السبايا والأموال بالجعرانة حتى يقدم ، فحبست .
وقال ابن إسحاق : وجعل رسول الله ﷺ على الغنائم مسعود بن عمرو الغفاري ، وسميت الجعرانة[1] باسم امرأة كانت تلقب بذلك ، وبقيت الغنائم بالجعرانة إلى أن انتهى رسول الله ﷺ من غزوة الطائف . وبين حُنَين والجعرانة نحو عشرة أميال ، والظاهر في اختيار الجعرانة[2] مستودعاً للغنائم لأنه مضيق محكم ولم يكن مستطرقاً وفيه بئر غزيرة لأجل السقيا ، أما وادي حنين فهو أولاً مستطرق وثانياً ليس فيه ماء ، والله أعلم . وفي هذه الغزوة سمي طلحة بن عبيد الله طلحة لكثرة انفاقه على العسكر .
وأخذ المنهزمون من المسلمين يتراجعون إلى رسول الله ﷺ حتى عادوا كلهم إلى المعسكر .

وكان البشير الذي بَشّر أهل المدينة بفوز رسول الله ﷺ وهزيمة هوازن ، نهيك بن يوس الأشهلي ، فخرج في ذلك اليوم ممسياً فأخذ في أوطاس حتى خرج على عمره فإذا الناس يقولون هزم محمد هزيمة لم تهزم هزيمة مثلها قط ، وظهر مالك بن عوف على عسكره ، قال نهيك : فقلت الباطل تقولون ، والله لقد ظفّر الله تعالى رسوله ﷺ وغنمه نساءهم وأموالهم ، قال ، فلم أزل أطأ الخبر حتى انقطع بمعدن بني سُلَيم أو قريباً منها ، فقدمت المدينة وقد سرت في أوطاس ثلاث ليال ، وما كنت أمشي على راحلتي أكثر مما كنت أركبها ، فلما انتهيت إلى المصلّى ناديت : أبشروا يا معشر المسلمين بسلامة رسول الله ﷺ والمسلمين ، وقد ظفّره الله

---

(١) ويوجد بالجعرانة مسجد والطريق إليها ممهد (مسفلت) لأجل من يطرقها ، وماء بئرها شديد العذوبة وهذه المرأة من تميم وقيل من قريش ؛ قال البرهان الحلبي : قيل وهي التي نقضت غزلها من بعد قوة واسمها ريطة .
(٢) قال في الإمتاع : وانتهى عليه الصلاة والسلام إلى الجعرانة ليلة الخميس لخمس خلون من بذي القعدة والسبي والغنائم بها محبوسة .

تعالى بهوازن وأوقع بهم فسبى نساءهم وغنم أموالهم وتركت الغنائم في يديه تجمع ، فاجتمع الناس اليّ يحمدون الله تعالى على سلامة رسول الله ﷺ ، والمسلمين ، ثم انتهيت إلى بيوت أزواج رسول الله ﷺ فأخبرتهن فحمدن الله تعالى على ذلك ، قال : وكانت الهزيمة الأولى التي هزم فيها المسلمون قد ذهبت في كل وجه حتى أكذب الله تعالى حديثهم .

معركة أوطاس

قال القاضي عياض : أوطاس موضع حرب حُنَين . وقال أبو عبيد البكري : يوطاس واد في ديار هوازن ، وهناك عسكروا هم وثقيف ثم التقوا بحنين . والغالب أنه واقع في علو السيل بين حنين ووادي قرن ، ويبعد قريباً عن مكة خمسين ميلاً . ولما انصرف رسول الله ﷺ من حُنَين وعلم أن قسماً من هوازن وثقيف عسكروا بأوطاس بعث أبا عامر عبيد بن سليم الأشعري اليماني ، عمّ أبي موسى الأشعري ، في طلب الفارّين من هوازن وثقيف إلى أوطاس ، فخرج إليهم أبو عامر ، وخرج معه فرسان الصحابة ، وكان مالك بن عوف وأصحابه هوازن على ثنية أوطاس ، فلما طلعت عليهم خيل أصحاب رسول الله ﷺ قال لأصحابه : ماذا ترون ؟ فقالوا : نرى قوماً واضعي رماحهم بين آذان خيلهم طويلة بوادهم ، فقال : هؤلاء بنو سُلَيم ، ولا بأس عليكم منهم . فلما أقبلوا سلكوا بطن الوادي ، ثم طلعت خيل أخرى تتبعها ، فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : نرى قوماً عارض زماحهم أغفالاً على خيلهم . فقال : هؤلاء الأوس والخزرج ، ولا بأس عليكم منهم . فلما انتهوا إلى أصل الثنية سلكوا طريق بني سُلَيم ، ثم طلع فارس ، فقال لأصحابه : ماذا ترون ؟ قالوا : نرى فارساً طويل الباد واضعاً رمحه على عاتقه عاصباً رأسه بملاءة حمراء . فقال : هذا الزبير بن العوام ، وأحلف باللات ليخالطنكم ، فاثبتوا له . فلما انتهى الزبير إلى

أصل الثنية أبصر القوم فصمد لهم ، فلم يزل يطاعنهم حتى أزاحهم عنها ، وتبعت خيل رسول الله ﷺ من سلك في نخلة من الناس ولم تتبع من سلك الثنايا ، قال ابن هشام : إن أبا عامر الأشعري لقي يوم أوطاس عشرة إخوة من المشركين ، فحمل على أبي عامر أحدهم فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه ، فقتله أبو عامر ، ثم حمل عليه آخر فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه ، فقتله أبو عامر ، ثم جعلوا يحملون عليه رَجُلاً ، رَجُلاً ، ويحمل أبو عامر وهو يقول ذلك حتى قتل تسعة وبقي العاشر ، فحمل على أبي عامر وحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول : اللهم اشهد عليه ، فقال الرجل : اللهم لا تشهد عليّ . فكفّ عنه أبو عامر فأفلت ، ثم أسلم بعد فحسن إسلامه . فكان رسول الله ﷺ إذا رآه قال : « هذا شريد أبي عامر » . ورمى أبا عامر أخوان ، العلاء ، وأوفى ، ابنا الحارث بن خيثم بن معاوية ، فأصاب أحدهما قلبه والآخر ركبته فقتلا أبا عامر وولى أبو موسى الأشعري ، فحمل عليهما فقتلهما ، انتهى . هذا ما رواه ابن هشام ، وفي البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : فَرُمِيَ أبو عامر في ركبته ، رماه جشمي بسهم فأثبته في ركبته ، فانتهيت إليه فقلت : يا عم مَن رماك ؟ فأشار إلى أبي موسى فقال : ذاك قاتلي الذي رماني . فقصدت له فلحقته ، فلما رآني ولى فاتبعته وجعلت أقول لـه : ألا تستحي ، ألا تثبت ، فكفّ ، فاختلفنا ضربتين بالسيف ، فقتلته ، ثم قلت لأبي عارم : قَتَل الله صاحبك . قال : فانزع هذا السهم . فنزعته ، فنزا منـه الماء ، قال : يا ابن أخي اقرىء النبي السلام وقل له استغفر لي ؟ واستخلفني أبو عامر على الناس فمكث يسيراً ثم مات ، فرجعت ، فدخلت على النبي ﷺ في بيته على سرير مُرْمَل[1] وعليه فراش قد أثر رمال السـرير في ظهـره

(١) أي معمول برمال ، وهي الحبال التي يضفر بها الأسرة ، وقوله عليه فراش . قال

وجنبيه ، فأخبرته بخبرنا ، وخبر أبي عامر ، وقال قل له استغفر لي ، فدعا بماء فتوضأ ثم رفع يديه[1] فقال : « اللهم اغفر لعبيد أبي عامر » . ورأيت بياض إبطيه ، ثم قال : « اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس » ، فقلت ولي فاستغفر ، فقال : « اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً » . وأبو عامر هذا قد أسلم قديماً وهاجر إلى الحبسة . انتهى .

وبلغ رسول الله ﷺ أن خالد بن الوليد رضي الله عنه قتل امرأة والناس مُتَقَصِّفُون عليها ، فقال رسول الله ﷺ لبعض مَن معه : « ادرك خالداً فقل له إن رسول الله ﷺ ينهاك أن تَقْتل وليداً أو امرأة أو عَسيفاً[2] » . وقال رسول الله ﷺ للمجاهدين : « إن قدرتم على بِجَاد رجل من بني سعد بن بكر فلا يُفْلَتَنّكم » . وكان قد أحدث حَدَثاً[3] فلما ظفر به المسلمون ساقوه وأهله ، وساقوا معه الشّيْماء بنت الحارث بن عبد العُزّي أُخْتَ رسول الله ﷺ من الرضاع ، فعُنُفوا عليهآ في السّيَاق ، فقالت للمسلمين : تعلمون والله إني لأخت صاحبكم من الرضاع . فلم يصدقوها حتى أتوا بها إلى رسول الله ﷺ ، فلما انتهى بها إلى رسول الله ﷺ قالت :

القابسي الذي أحفظه في غير الصحيحين ما عليه فراش ، قال وأظن لفظة ما سقطت لبعض الرواة ، وتابعه عياض وغيره على ذلك ، قالوا : وقد جاء في حديث عمر في تخيير النبي ﷺ أزواجه على رمال سرير ليس بينه وبينه فراش فقد آثر الرمال بجنبه . وعلى رواية اثبات الفراش لا ينافي نفيه في حديث عمر ولا ينافي في تأثير الرمال بالجنب إذ ربما أثرت مع الفراش لعدم ثخافته كما لا يلزم من كونه رقد على غير فراش في قصة عمر أنه لا يكون على سريره دائماً فراش .

(١) وفي هذا دلالة على ندب رفع اليدين في الدعاء ، وقد ثبت رفع اليدين في مواطن كثيرة فوق ثلاثين موطناً كما قال الإمام النووي .

(٢) العسيف : الخادم ؛ والأجير المستهان به والمملوك .

(٣) فانه قطع رجلاً مسلماً وحرقه بالنار .

يا رسول الله إني أختك من الرضاع ، قال ﷺ : « وما علاقة ذلك ؟ » قالت : عضة عضضتنيها في ظهري وأنا متوركتُك . فعرف رسول الله ﷺ العلامة فبسط لها رداءه فأجلسها عليه وخيّرها ، وقال : « إن أحببتِ فعندي محببة مُكْرَمة ، وإن أحببتِ أن أمتّعك وترجعي إلى قومك فَعَلْتُ ؟ » فقالت : بل تَمتّعني وتردني إلى قومي . فمتعها رسول الله ﷺ وردّها إلى قومها وأعطاها غلاماً اسمه مكحول وجارية فزوجت احدهما الأخرى ، فلم يزل فيهم من نسلهم بقية . فلما انهزم المشركون من أوطاس وظفر المسلمون بالغنائم والسبايا عادوا إلى رسول الله ﷺ .

هدم الصنم ذي الكفين

لما أراد رسول الله ﷺ المسير إلى الطائف ، بعث الطُفَيْل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه إلى ذي الكفين وهو صنم[1] عمرو بن حُمَمَة الدوسي ليهدمه ، وأمره أن يستمد قومه ويوافيه بالطائف ، فخرج سريعاً إلى قومه فهدم ذا الكفين وجعل يحثي النار في وجهه[2] ، وانحدر معه من قومه أربعمائة سراعاً[3] ، فوافوا رسول الله ﷺ بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام[4] ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « يا معشر الأزد من يحمل رايتكم ؟ »

---

(١) وكان من خشب وقال له : أفش السلام وابذل الطعام واستحي من الله كما يستحي الرجل ذا هيئة من أهله إذا أسأت فأحسن ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين .

(٢) ويقول : يا ذا الكفين لست من عبادكا ، ميلادنا أقدم من ميلادكا . أنا حشت النار في فؤادكا .

(٣) وقد كان الطفيل مطاعاً في قومه شريفاً شاعراً لبيباً .

(٤) ومعه دبابة ومنجنيق . ويقال بل اتخذ المنجنيق سلمان الفارسي وقدم بالدبابة خالد بن سعيد بن العاص من جرش .

فقال الطفيل : مَن كان يحملها في الجاهلية ، النعمان بن الرازية ، قال : « أصبتم » .

أسماء من استشهد بحنين وأوطاس

وإليك أسماء من استشهد يوم حُنَين وأوطاس :

(١) أيمن بن عبيد القرشي من بني هاشم .

(٢) يزيد بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، جمع به فرس له يقال له (الجناح) فقتل .

(٣) سراقة بن الحارث بن عدي من بني العجلان الأنصاري .

(٤) أبو عامر الأشعري .

هذا ما ذكره ابن هشام عن ابن إسحاق ، ومجموعهم أربعة نفر في موقعتين عظيمتين كبيرتين بعد أن قَدّر الله سبحانه وتعالى على المسلمين بالإنهزام في أول المعركة بحُنَين ، ولم يُقاتِل في المعركة سوى مائة رجل مع رسول الله ﷺ ، وهم الذين قدر الله تعالى لهم أن يهزموا هوازن ومَن معهم مِنَ المشركين ، ولم يتلاحق الجيش إلا بعد أن هزم الله تعالى المشركين على يدهم ، ولم يقتل يوم حُنَين في تلك المعركة الدامية العظيمة التي قال فيها رسول الله ﷺ : « حَمِيَ الوطيس » سوى رجلين اثنين من الأربعة المذكورين حيث أن الثالث ، وهو يزيد بن زمعة ، جمح به فرسه فقُتِل ، والرابع أبو عامر ، وهو الذي قُتِل بأوطاس بعد أن قَتَل تسعة مبارزة . فهل يخطر في عقل إنسان ، أو مَرّ على قلب بشر أن معركة دامية يُقاتِل فيها مائة رجل أكثر من عشرين ألف مُقاتِل ، ولم يُقْتَل من تلك الفئة القليلة سوَى رجلين ، ويكون للقلة الضئيلة الفوز والنصر على عدوهم ، ذلك نصر الله تعالى قَدّره لرسله عليهم الصلاة والسلام ، والصادقين من عباده ، ولا شك أن هذا أعظم معجزة لرسول الله ﷺ ، وأعظم خارقة من

خوارق العادات التي لا تُقاس على العقل ، والقاعدة ، والعادة . يقول في ذلك ابن القيم ، في كتابه (زاد المعاد) : كان الله عز وجل قد وعد رسوله وهو صادق الوعد ، إنه إذا فتح مكّة دخل الناس في دِين الله أفواجاً ودانت له العرب بأسرها ، فلما تم له الفتح المبين اقتضت حكمة الباري تعالى ين أمسك قلوب هوازن ومَن تبعها عن الإسلام ، وأن يجمعوا ويتألبوا لحرب رسول الله ﷺ والمسلمين ليظهر أمر الله تعالى ، وتمام إعزازه لرسوله ﷺ ، ونصره لدِينه ، ولتكون غنائمهم شكراناً لأهل الفتح ، وليظهر الله سبحانه وتعالى رسوله وعباده وقهره لهذه الشوكة العظيمة التي لم يلق المسلمون مثلها ، فلا يقاومهم بعدُ أحد من العرب ، فاقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن أذاقهم أولاً مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عَدَدهم وعُدَدهم وقوة شوكتهم ، ليطأطىء رؤوساً رفعت بالفتح ، ولم تدخل بلده وحرمه كما دخله رسول الله ﷺ واضعاً رأسه منحنياً على فرسه ، حتى أن ذقنه تكاد أن تمسّ سرجه ، تواضعاً لّه وخضوعاً لعزته أن أحل له حرمه وبلده ، ولم يحلّه لأحد قبله ولا لأحد بعده ، وليبين سبحانه وتعالى لمن قال : لن نُغْلَب اليوم عن قلة ، ان النصر إنما هو من عنده ، وأنه مَن ينصره فلا غالب له ، ومَن يخذله فلا ناصر له غيره ، وأنه سبحانه وتعالى هو الذي تولى نصر رسول الله ﷺ ودِينه ، لا كثرتكم التي أعجبتكم فإنها لم تغن عنكم شيئاً فوليتم مدبرين ، فأنزل الله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تَرَوْها ، فبذلك تم النصر لرسوله ﷺ وللمؤمنين والحمد لله رب العالمين .

تاريخ الطائف وغزوة ثقيف

الطائف بلد واقع شرق مكة ، وعرضه إحدى وعشرين درجة ، وطوله أربعون درجة ونصف وربع درجة ، وحوله بساتين ، وهو مشهـور بحسن مصيفه وكثرة فواكهه ، وجودة ثماره ، ولطافة هوائه ، وعذوبة مائه ، وهو يرتفع عن سطح البحر بألف وتسعمائة وسبعين (١٩٧٠) متراً . وصيفه في غاية اللطف والإعتدال ، فلا تبلغ فيه درجة الحرارة أكثر من اثنتين وثلاثين درجـة بميزان (سنتيغـراد) في أشد حـالات الصيف ، وتتراوح فيـه مدة الصيف درجة الحرارة بين العشرين والثلاثين . وأما في الشتاء فتتراوح فيه درجة الحرارة بين الخمس ، والخمس عشرة درجة ، ولا تبلغ الصفر إلا نادراً ، وإذا بلغت الصفر فلا تمكث إلا بضع دقائق ، فهو لطيف الطيف لطيف الشتاء ، وهواؤه معتدل وإلى النشوفة أقـرب . وله من مكّـة ثلاث طرق ، أحدها طريق اليمانية الذي تسير منه السيارات ، ويبلغ طوله خمسة وثمانين ميلاً . وطريق ثاني من اليمانية أيضاً تسير منه الجمال عن طريق (ريع المنحوت) ، ويبلغ طوله نحـو سبعين ميلاً . وطـريق ثالث يسمى طريق (كَرَا) وهو جبل عظيم يبلغ ارتفاعـه عن سطح البحـر (٢٢٠٠) متر ، وهو متصل بسلسة جبال (السراة) من الجهة الشمالية ، ويقال لهذه السلسلة الحجاز أيضاً . وعلى سطح جبل (كَرَا) جملة قُرى ، وبساتين ، ومزارع ، وفاكهته من أجمل فواكه الحجاز ، ويسمى سطحـه (الهَدَا) ، وبين سطحه ومكّة نحو أربعين ميلاً ، ويبلغ طول سطحه ، من المشرق إلى المغـرب ، نحو أربعـة أميال ، ومنـه إلى الطائف ، على طـريق (فـرن المنازل) المسمّى الآن بوادي محـرم ، نحو سبعـة أميال ، وتبلغ درجـة الحرارة في الهَدَا أقل من الطائف بدرجتين في الشتاء والصيف .

والطائف بلد قديم ، وصفّه المؤرخون بكثرة الأعناب ، والنخيل ،

والفواكه . قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في (فتح الباري) : (الطائف) هو بلد كبير مشهور ، كثير الأعناب والنخيل ، على ثلاثة مراحل[1] ، أو مرحلتين ، من جهة الشرق ، واسم الأرض (وجّ) سميت برجل وهو عبد الحي من العمالقة (وهو أول من نزل بها) اهـ . وسبب تسميته[2] بالطائف هو أن الدمون بن عبد الملك بن مالك بن مرتع الكِندي من حضرموت قَتَل ابن عم له يقال له عمرو بحضرموت ، فأتى الطائف ، وقصد مسعود بن معتب الثقفي ، ومعه مال كثير ، وكان تاجراً ، فقال له : أحالفكم لتزوجوني ، وأزوجكم ، وأبني لكم طوفاً عليكم مثل الحائط لا يصل إليكم أحد من العرب . قالوا : فابن . فبنى بذلك المال (طوفاً) عليهم ، فسميت الطائف ، وتزوج إليهم ، فزوّجوه ابنة ، وله عقب وتناسلوا بالطائف ، ولما خرجت القبائل في الفتوحات الإسلامية سكن من ولده الكوفة . قال ياقوت في (معجم البلدان) : وبعض ولد الدمون بالكوفة ولهم بها خطة مع ثقيف ، وكان قبيصة بن الدمون هذا على شرطة المغيرة بن شعبة ، إذ كان على الكوفة . ثم قال : وكانت الطائف تسمى قبل ذلك (وَجاً) بوَجّ بن عبد الحي من العماليق وهو أخو (أَجَا) الذي سمي به جبل طَيّ . وقال عرّام : الطائفَ ذات مزارع ونخل ، وأعناب ، وموز ، وسائر الفواكه ، وبها مياه جارية ، وأودية تنصب منها إلى تبالة . وجل أهل الطائف ثقيف وحِمْيَر ، وقوم من قريش ، وهو على ظهر جبل غزوان ، وبغزوان قبائل هذيل . ثم قال ياقوت يَصِف الطائف : بُلَيْدة

(١) بالنظر إلى عمران مكة على الأحول وباعتبار آخر ما ينتهي إليها من توابعها المنسوبة إليها .

(٢) ذكر المؤلف وجهاً واحداً من أسباب تسمية الطائف بالطائف وخامسها هو أنها كانت بالشام فنقلها الله إلى الحجاز بدعوة إبراهيم ، ولم أقف على ترجيح لأحد الخمسة الوجوه أو اعتماد غيرها .

صغيرة على طرف واد ، وهي محلتان إحداهما عن هذا الجانب يقال لها (طائف ثقيف) ، والأخرى على هذا الجانب يقال لها (الوهط) ، والوادي بين ذلك ، تجري فيه مياه المدابغ التي يدبغ فيها الأديم ، يصرع الطيور رائحتها إذا مرت بها ، وبيوتها لاطئة حرجة وفي أكنافها كروم على جوانب ذلك الجبل ، فيها من العنب العذب ما لا يوجد مثله في بلد من البلدان ، وأما زبيبها فيضرب بحسنه المَثَل ، وهي طيبة الهواء شامية ، ربما جمد فيها الماء في الشتاء ، وفواكه أهل مكّة منها ، والجبل الذي هي عليه يقال له غزوان .

والظاهر من قول ياقوت أن المحلة التي سماها (الوهط) هي الردم الواقع على جنوب الطائف بين (حوايا) و (أم نوبي) وتسمى الآن بالطائف القديم ، وليس هو الوهط المنسوب إلى عمرو بن العاص . قال ياقوت : الوهط المكان المطمئن المستوى ينبت العضاه ، والسمر ، والطلح ، وهو مال كان لعمرو بن العاص بالطائف ، وهو كَرْم كان ألف ألف عود على ألف ألف خشبة (أي مليون عود) ، فحج سليمان بن عبد الملك فمر بالوهط فقال : أحب أن أنظر إليه . فلما رآه قال : هذا أكرم مال لولا أن هذه الحرة في وسطه ، فقيل له ليست بحرة ولكنها مشكاح الزبيب ، وكان زبيبه جمع في وسطه ، فلما رآه ظنه حرة سوداء ، ثم قال : وقال ابن موسى : الوهط قرية بالطائف على ثلاثة أميال من وَجّ كانت لعمرو بن العاص اهـ . وهذا يدل على أن الوهط الموجود اليوم غرب الطائف بجنوب هو الذي كان به مال عمرو بن العاص ، وهو اليوم في حال جدب لا يوجد فيه أكثر من مائة عود عنب . ويُستفاد من كلام ياقوت وغيره من المؤرخين ، أنه كان بالطائف عدة معامل دبغ في القديم ، وكان أدم الطائف تهدى إلى الملوك ، وقد أهدي منها إلى النجاشي ، ملك الحبشة ، وإلى قيصر ملك الروم . . لنفاستها واتقان دبغها ، وقد تأخرت

هذه الصناعة تأخراً عظيماً[1] حتى تفوق عليها ما يدبغ في الخارج .

وكان سبب نزول ثقيف الطائف ، وغرس حبلة العنب به ، هو ما رواه ياقوت عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، قال : إن ثقيفاً والنخع كانا ابن خالة فخرجا منتجعين ومعهما أعنز لهما وجدي ، فعرض لهما مصدق لبعض ملوك اليمن ـ أي جابي الضرائب ـ فأراد أخذ شاة منهما ، فقالا : خُذْ ما شئت إلا هذه الشاة الحلوب ، فإنا من لبنها نعيش وولدها . فقال : لا آخذ سواها . فرفقا به فلم يفعل ، فنظر أحدهما إلى صاحبه وهمّاً بقتله ، ثم أن أحدهما انتزع له سهماً فلق به قلبه ، فخَرّ ميتاً . فلما نظرا إلى ذلك قال أحدهما لصاحبه أنه لن تحملني وإياك الأرض أبداً ، فإمّا أن تغرّب وأنا أشرّق ، وإما أن أغرّب وتشرّق أنت ؟ فقال ثقيف : فإني أغرّب . وقال النخع : فأنا أشرّق . وكان اسم ثقيف قسياً ، واسم النخع جسراً ، فمضى النخع حتى نزل بيشة من أرض اليمن ، ومضى ثقيف حتى أتى وادي القرى ، فنزل على يهودية عجوز لا ولد لها ، فكان يعمل نهاراً ، ويأوي إليها ليلاً ، فاتخذته ولداً لها واتخذها أمّاً له . فلما حضرها الموت قالت له : يا هذا ، أنه لا أحد لي غيرك ، وقد أردت أن أكرمك لألطافك إياي ، انظر إذا أنا مت وواريتني فخذ هذه الدنانير فانتفع بها ، وخذ هذه القضبان ، فإذا نزلت وادياً تقدر فيه على الماء فاغرسها ، فإني أرجو أن تنال من ذلك فلاحاً بيناً . ففعل ما أمرته به ، فلما مات دفنها وأخذ الدنانير ، والقضبان ، ومضى سائراً حتى إذا كان قريباً من (وَجّ) ، الذي هو الطائف ، إذا هو بأمة حبشية ترعى مائة شاة فطمع فيها وهَمّ بقتلها وأخْذ

---

(١) هذا في زمان المؤلف وهو معاصرنا وبعد وفاته أقول قد ازداد تأخر هذه الصناعة فترة ثم أعقبها نشاط ملموس ، فقد فتح أحد أصحاب الأموال مصنعاً للدباغة بجدة على الطريقة الحديثة مسايرة للنهضة الحديثة واشتغلت فيه أيد سعودية ، والتوجيه للصناعة آخذ في الازدياد .

الغنم ، فعرفت ما أراد ، فقالت : أنك أسررت فيّ طمعاً لتقتلني وتأخذ الغنم ولئن فعلت ذلك لتذهبن نفسك ولا تحصل من الغنم شيئاً ، لأن مولاي سيد هذا الوادي ، وهو عامر بن الظرب العدواني ، وأني لأظنك خائفاً طريداً ؟ قال : نعم . فقالت : فإن أدلك على خير مما أردت . فقال : وما هو ؟ قالت : أن مولاي يقبل إذا طفلت الشمس للغروب فيصعد هذا الجبل ثم يشرف على الوادي فإذا لم ير فيه أحداً وضع قوسه وجفيره وثيابه ، ثم انحدر رسوله فنادى من أراد اللحم ، والدَّرْمَك ، - دقيق الحواري - والتمر ، واللبن ، فليأت دار عامر بن الظرب ، فيأتيه قومه فاسبقه أنت إلى الصخرة وخذ قوسه ، ونباله ، وثيابه ، فإذا رجع وقال من أنت ؟ فقل رجل غريب فانزلني ، وخائف فأجرني ، وعَزَب فزوجني . ففعل ثقيف ما قالت له الأمة ، وفعل عامر صاحب الوادي فعله ، فلما أن أخذ قوسه ونشابه وثيابه وصعد عامر قال له : مَن أنت ؟ فأخبره ، وقال أنا قسي بن منبه ، فقال : هات ما معك ، فقد أجبتك إلى ما سألت . وانصرف وهو معه إلى (وَجّ) وأرسل إلى قومه كما كان يفعل . فلما أكلوا ، قال لهم عامر : ألست سيدكم ؟ قالوا : بلى . قال : وأين سيدكم ؟ قالوا : بلى . قال : ألستم تجبرون مَن أجرت ، وتزوّجون من زوّجت ؟ قالوا : بلى قال : هذا قسيّ بن منبه بن بكر بن هوازن وقد زوّجته ابنتي فلانة ، وأمّنته ، وأنزلته منزلي . فزوّجه ابنة له يقال لها زينب . فقال قومه : قد رضينا بما رضيت . فولدت له عوفاً ، وجشماً ، ثم ماتت ، فزوّجه أختها ، فولدت له سلامة ، ودارساً ، فانتسبا في اليمن ، فدارس في الأزد ، والآخر في بعض قبائل اليمن . وغرس قسيّ تلك القضبان بوادي (وَجّ) فنبتت ، فلما أثمرت قالوا : قاتله الله كيف ثقف عامراً حتى بلغ منه ما بلغ وكيف ثقف هذه العيدان حتى جاء منها ما جاء ، فسميّ ثقيفاً من يومئذ ، فلم يزل ثقيف مع عدوان حتى كثر ولده وربلوا ، وقي

جأشهم ، وجرت بينهم وبين عدوان هنات وقعت في خلالها حرب انتصر فيها ثقيف ، فأخرجوا عدوان عن أرض الطائف واستخلصوها لأنفسهم ، ثم صارت ثقيف أعز الناس بلداً ، وأمنعه جانباً ، وأفضله مَسْكناً ، وأخصبه جناباً ، مع توسطهم الحجاز ، وإحاطة قبائل مضر ، واليمن ، وقضاعة ، بهم من كل وجه ، فحمت دارها ، وكادحت العرب عنها ، واستخلصتها وغرست فيها كرومها ، وحفرت بها أطواءها ، وكظائمها ، وهي من أزد الشراة ، وكنانة ، وعذرة ، وقريش ، ونصر بن معاوية ، وهوازن جمعاً ، والأوس والخزرج ، ومزينة ، وجهينة ، وغير ذلك من القبائل ، ذلك كله يجري والطائف تسمّى (وَجاً) إن أن كان ما كان مما تقدم ذكره من تحويط الحضرمي عليها وتسميتها حينئذ الطائف . انتهى .

هذا حاصل ما ذكره ياقوت في معجمه ، وقد تقدّم ما ذكره الحافظ ابن حخجر في (فتح الباري) ، ولم يكن هناك تعارض بين الروايتين ، فظهر مما تقدّم أن أول من سكن الطائف العمالقة ، ثم جاء بعد ذلك اسم عدوان ، وهو من العمالقة ولنسله بقية بالطائف إلى هذا العصر ، ثم أتى ثقيف من هوازن وهم (عتيبة) إلى الطائف ، وبعد أن تراحم مع عدوان تغلب عليهم ، وهذه من سنن تقلبات الدهر ، فاستقل بالطائف . ثم جاء الدمون الحضرمي فبنى السور على بلدة الطائف ، ثم سمي بسبب ذلك السور (الطائف) بعد أن كان اسمه (وَجّ) ، ولا يزال اسم الوادي المنحدر من جنوب الطائف الغربي إلى شماله الشرقي الذي مبدؤه من جبل برد يسمّى حتى الآن (وادي وَجّ) .

قال ياقوت : وعرضها ـ أي بلدة الطائف ـ إحدى وعشرون درجة ، وبالطائف عقبة ـ هي جبل كَرَا ـ وهي مسيرة يوم للطالع من مكّة ، ونصف يوم للهابط إلى مكّة عمرها حسين بن سلامة وسدها ابنه ، وهو عبد نوبيّ وَزَرَ لأبي الحسين بن زياد صاحب اليمن في حدود سنة ٤٣٠ فعمر هذه

العقبة عمارة يمشي في عرضها ثلاث جمال بأحمالها فعلم من ذلك أن طريق (جبل كَرًا)[1] قد اعتنى بعمارته منذ تسعمائة سنة ، وكانت عمارته ، على ما وصف ياقوت ، أعظم مما هي عليه اليوم حيث يقول أن عرض الطريق يسع سير ثلاثة جمال بأحمالها فيكون عرض الطريق نحو عشرة أمتار ، وأما الآن فلا يتجاوز[2] عرضه مترين .

والطائف هو مصيف أهل مكة من قديم الزمان ومعظم حدائقه ملك

(١) بالأمس كانت الجمال والحمير تعبر أن طريق (كرا) ، الجبل العظيم الشامخ ، وهما يحملان من مدينة الطائف أنواع الفواكه الشهية اللذيذة الطعم من عنب ورمان وسفرجل وتين وخوخ وعناب ، إلى أم القرى بلد الله الحرام . ولتعاريج هذا الطريق ووعورته وصعوبة مرتقاه يلاقي المسافرون إلى الطائف متاعب عظيمة ، لأنهم يخشونه طلوعاً على أقدامهم لا على الدواب ، ولولا قصر المسافة بالنسبة لطريق اليمانية لما هان على الإنسان أن يسلكه على قدميه نحو الساعة ونصف الساعة ليصل أعلاه ، وفعلاً طرقت مرة في ذلك الحين عام ١٣٤٥ هـ مع والدي بصحبة الشيخ عبد الله بيلا خادم العلم الشريف بأم القرى والمتوفى بها عام ١٣٥٦ هـ رحمه الله تعالى فنالنا النصب والتعب ـ واليوم في العهد الفيصلي ، تم إنشاء طريق (كرا) هذا بعد أن أنفقت عليه الحكومة بسخاء مبلغاً لا يستهان به من الريالات لتكسير الجبال وتمهيدها وبناء دائر الطريق وسفلتته وبناء مراكز للشرطة والهلال الأحمر حتى أصبح صالحاً للسير . وقد بلغ طول طريق الطائف المعبد من مكة إلى الطائف تسعة وثمانين كيلومتراً تقطعها السيارة في ساعة وربع الساعة وقدرت تكاليفه بمائة وثمانين مليوناً من الريالات العربية . وافتتح هذا الطريق في اليوم الثالث من شهر صفر عام ١٣٨٥ هـ تحت رعاية الملك المعظم فيصل بن عبد العزيز آل سعود ، وكنت كغيري في مشاهدة المهرجان المقام بهذه المناسبة يغمرنا الفرح والسرور لإزالة تلك العقبات التي كانت تنتاب المسافرين ، وأصبح من الميسور الطلوع والنزول ، وفي إمكان أرباب الوظائف والمصطافين الطلوع عصر كل يوم والنزول صباحاً في طمأنينة وراحة . فادع لمن رعى هذا الطريق بالتوفيق والمزيد منه .

(٢) وأما الآن ، عام ١٣٨٦ هـ ، فعرضه يسع أكثر من سيارتين ، يزيد المعبد منه على عشرة أمتار .

لأهل مكة . قال البلاذري في (فتوح البلدان) : كان بمخلاف الطائف قوم من اليهود طردوا من اليمن ، ويثرب ، فأقاموا بها للتجارة ، فوضعت عليهم الجزية ، ومن بعضهم ابتاع معاوية أمواله بالطائف ، وكان للعباس بن عبد المطلب رحمه الله أرض بالطائف ، وكان الزبيب يحمل منها فينبذ في السقاية للحاج ، وكانت لعامة قريش أموال بالطائف يأتونها من مكّة فيصلحونها ، فلما فتحت مكّة وأسلم أهلها طمعت ثقيف فيها حتى إذا فتحت الطائف أقرت في أيدي المكيين وصارت الطائف مخلافاً من مخاليف مكة . انتهى . ولا يزال لأهل مكّة بالطائف في هذا العصر أملاك من عقار ، وبساتين . وأجمل دور الطائف مع كثير من الحدائق هي اليوم ملك لأهل مكّة . وقد سبق مما يؤيد ذلك أن النبي ﷺ لما طلع إلى الطائف يدعو ثقيفاً إلى الإسلام وإلى نصرته ووقع عليه ما وقع منهم وذهب إلى (المثناة) وجد هناك عتبة وشيبة ابني ربيعة في أموالهما ، فكانت المثناة في ذلك التاريخ لابنا ربيعة بن عبد شمس . هذا ما كان من أمر الطائف في العصور المنصرمة .

وأما حالة الطائف في هذا العصر الحاضر فإن البلدة لا تزال في موضعها القديم حيث لم يذكر التاريخ أنها تحولت عن موضعها الأصلي ، ولا هناك آثار تدل على ذلك ، غير الردم والآكام الموجودة جنوب الطائف بين (حواية) و(أم نوبي) ، وقد ذكرنا فيما تقدّم أنها إحدى القريتين اللتين كان يطلق على أحدهما (الطائف) وهي المحاطة بالسور ، وعلى الأخرى (الوهط) وهي الردم المذكور . ولا يزال هذا السور موجوداً إلى الآن[1] ، والظاهر أنه كلما وهن تجدد . وحول الطائف من جهاته الأربع

---

(١) وفي عام ١٣٨٦ هـ لم يبق من هذا السور أثر فإنه هدم لغرض التوسعة واتصال العمران المنتشر حواليه .

جملة قرى ، وأودية ، وحدائق ذات بهجة ، فأما ما كان من الجهة الشرقية فوادي (نخب) وهو يحوي على جملة بساتين ودور لأهلهـا ، وبه وادي النمل ، وفيه مسجد يقال أنه مأثور ، ويبعد هذا الوادي عن الطائف نحو ثلاثة أميـال . ثم وادي (لِيَّةَ) وهـو أعظم أوديـة الطائف على الإطـلاق خصـابة ، وأكثرها ثمـاراً ، وأبهجها منـظراً ، وفيـه جملة قـرى ومنـازل للمصـطافين ، ويبلغ طولـه من الغرب إلى الشـرق نحو عشـرين ميـلاً ، ويحتوي على مئات البساتين ، وهو يبعد عن الطائف سبعة أميال من طرفه الغربي ، وأول قراه مما يلي الطائف قرية (عوف) . ثم في جنوب لِيَّـة أودية (ثِمالةَ) وهي خصبة إلا أنها أقل خصابة من (لِيَّةَ) ولا تقل ثمارها جودة عنها ، وأحسن ثمارها العِنَب ، والرّمّان ، والسّفَـرْجَلَ . وفي بـلاد ثُمالَة (السّدّ السّمَلقي) ، وهو على بعد عشرين ميلاً من الطائف ، ويبلغ طوله نحو[1] مائة وأربعين متراً ، وعرضه ثمانية أمتار ، وارتفاعه من وسطه نحو عشرة أمتار ، وأما طرفاه فأقل من ذلك لأنهما بنيا على سفحي سلسلة الجبال المنصر بينها الوادي ، وهو مبني بالحجـارة الكبار والجص بنيـاناً محكماً متيناً ، والظاهر أنه بني في زمن استيلاء العمالقة على الطائف ، وبانيه صاحب سطوة أو سيادة ، لأنه لا يتسنى لأفراد الناس بناء مثل ذلك والسدّ واقع في وسط الوادي ، فالقسم الغربي منه يسمى (الشرقي) وهو علو الـوادي ، وينحدر سيله من جبـال نمرة واللحيـان ، والقسم الشرقي يسمى (جرجه) . وفي منتهى السّدّ من الجهة الشمالية فتق غير طبيعي ينحدر منه السيل إلى وادي الأصيفر ، ووادي الصخيرة ، ووضعية السّـدّ تدل على ثلاث حالات ، الأولى أن وضعه كان بصفة خزان يمنع انحدار

---

(١) وفي منزل الوحي طوله نحو الثمانين متراً والخمسة والعشرين متراً في ارتفاعه ، أما عرض سطحه فيزيد على عشرة أمتار ، والظاهر من إتيان كل منهما بنحو أن ذلك على وجه التقريب فيمكن النقص والزيادة .

السيل إلى أسفل الوادي . ثم بعد أن هلك واضعه جاء بعده قوم آخرون ففتقوا ذلك الفتق في سلسلة جبال الوادي من الجهة الشمالية حتى صار انحدار السيل إلى وادي الأصيفر . والثانية ، أنه وضع سداً ليمنع السيل من اجتراف المزارع الواقعة بأسفل الوادي ، فبعد أن أحكم السد فتق فتقاً في سلسلة الجبال الشمالية وحوَّل انحداره عن وادي جرجه إلى وادي الأصيفر . الثالثة أنه وضع السّدّ ليمنع انحدار السيل إلى وادي جرجه ، وحَوّله إلى وادي الأصيفر ، من الفتق الذي فتقه لسقيا وادي الصخيرة وحرمان وادي جرجه ، وفي هذه الحالة يكون صاحبه متغلباً . هذا ما ظهر لي من حال وضعية السّدّ ، بسبب الفتق الواقع في شماله ، ولولا ذلك الفتق لما احتاج الأمر إلى هذه الإحتمالات ، ولم أقف على شيء في تواريخ الطائف يدلنا على اسم واضع[1] السد والزمن الذي بني فيه والله أعلم . وفي شرق بلاد ثُمَالة حدائق ومزارع ، منها المعادن ، وبقران ، وأما ما كان من الأودية والحدائق في الجهة الغربية من الطائف فالسلامة ، وقَروَة ، وكانت القريتان منذ عشرين سنة عامرتين بالدور والبساتين والسكان ، وأما الآن قد تدمرتا من جراء الحرب[2] العمومية ، ومعظمهما ملك لأهل مكّة . ووادي قرن المنازل والغديرين والدار البيضاء ، وهي على خط واحد . ويحتوي كل منهم على عدة دور وبساتين وثمارهم من أجود الفواكه ، وسقايتهم من الآبار ، كما أن سقاية عموم ما تقدم من قرى

---

(١) وفي المدة الأخيرة تجد فيهما بنايات ضخمة على شكل حديث والبساتين لا تذكر .

(٢) ورأيت في كتاب « منزل الوحي » أن تاريخ بنائه قيل يرجع إلى عهد معاوية بن أبي سفيان في صدر الإسلام وأن الحجة في ذلك الكتابة المنقوشة على أحد أحجاره فقد نقلها عبد الله باشا باناجي بالفوتوغرافيا في أوائل هذا القرن وبعث بها إلى مصر حيث حلت رموزها فإذا فيها أمر ببنائه عمرو بن العاص بأمر أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان .

وبساتين من الجهة الشرقية والغربية من الآبار . غير أن في الدار البيضاء عين مدمرة لم يعتن بها . وكذلك مما يلي الطائف من الجهة الغربية الجنوبية وادي المثناة ، والوهط ، والوهيط ، وهذه الأودية الثلاثة هي على مسيل وادي (وَجّ) وكلها تحتوي على دُوْر وبساتين ، إلا أن المثناة أخصبها ، وكلها لأهل مكّة ، وثمارها من أوسط الفواكه حسناً . غير أن الوهط لا يعد شيئاً بالنسبة لما كان عليه زمن عمرو بن العاص ، بل أنه أصبح لا يحوي على أكثر من بضعة بساتين ، وتسقى الأودية الثلاثة بالعيون لكل واد منها عين خاصة به .

وأما ما يلي الطائف من الجهة الشمالية من قرى ومزارع وبساتين فكثيرة جداً ، الأول من سور الطائف (شبرة) قد أنشأها الشريف عبد الله بن محمد بن عون ، أمير مكّة سابقاً ، واشترى عين السلامة وأجراها إلى شبرة وجعل سقاية بلدة الطائف منها ، وهي على هذا الحال إلى اليوم ، وبها ثلاثة قصور من أعظم قصور الحجاز ، وهي قصر الرياض ، وقصر شبرة القديم ، وقصر شبرة الجديد[1] ، ثم أم خبز ، والخرمان ، والقطبية ، وقملة ، والجال ، والعقيق ، وهذه عبارة عن قرى صغيرة وبساتين وبها دور لسكنى أهلها ، ثم المليساه ، ثم القيم ، ثم المريسة ، وأم الحمض ، ورحاب ، وَرَيّحَة ، وشُوَيْحِط ، والحويّة ،

---

(١) والقصر الجديد يقف فخماً جميلاً حتى يومنا هذا كالعملاق وسط شبرة وأمامه مسجد جديد حديث (جامع الملك) انتهى من بنائه عام ١٣٨٦ هـ . ومشى التراكتور على أرض شبرة ومسحها بعد أن اقتلعت الأشجار وبقيت الآبار ، والغاية من ذلك هو انتفاع الشعب بهذه المساحة الكبيرة واتساع رقعة المدينة ، ووضع خطط هندسية معتبرة تجعل المدينة في مظهر فاخر ؛ وشاهدت ذلك ممسوحاً عام ١٣٨٦ هـ ، زمن اصطيافي بالطائف ، وكل هذا بعد أن انتقلت ملكيتها إلى جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز ، زاده الله توفيقاً .

والقديرة ، ثم وادي شرب ، ثم العقرب ، ثم الأخيضر ، وهذه القرى متتابعة ومتقاربة وبها دُور وبساتين ومزارع .

وأما ما يلي الطائف من الجهة الجنوبية فقرية حواية ، وأم نوبي ، وشِهَار ، وهي قريبة من سور الطائف كقرب السلامة ، وقروة ، وشبرة ، وهي تحتوي على دُور وبساتين . ثم جبال الشفا وهي جملة سلاسل جبال تتخللها قرى وبساتين ومزارع ، وأهلها من بني سفيان ، وبها جبال يُقال له (قُرْنِيْت) وهو أعلى جبال الطائف ، ويبلغ ارتفاعه عن سطح البحر نحو ألفين وأربعمائة متر ، ومزارع تلك القرى على الأمطار والآبار .

وحول الطائف جملة جبال في بعض صخورها كتابات بعضها مخطوطة بالخط الكوفي ، والبعض بالعربي ، منها جبل (السكارى) وهو غربي الطائف وجبل (الشهداء) وهو شرقي الطائف ، وجبل يُقال له (الرُّدّفْ) وهو جنوب الطائف ، ويوجد أيضاً بعض كتابات في غير هذه الجبال ، وكلّها لا تدل على تاريخ ، أو حادث ، بل جلها تحتوي على اسم كاتبها بغير تاريخ ، وذكر وقائع .

هذا حاصل ما وقفت عليه ملخصاً[1] من تاريخ الطائف ، ولم أستطع

---

(١) لقد أفاد وأحسن المؤلف ، رحمه الله ، فلخص تاريخ الطائف بقسميه القديم والحديث حسب مرئياته وتحرياته إلى حين وفاته عام ١٣٥٦ هـ بالطائف ؛ وأقول وأنا مصطاف بالطائف عام ١٣٨٦ هـ : أن الطائف اليوم غيره بالأمس ، فقد ظهر في حلة قشيبة تسر الناظرين وتفتح أساريرهم ، وبالأخص يوم أن زال ذلك السور المحيط بالمدينة لأجل التوسعة واتصال العمران واعطائها الجمال الفارع .
هذا ومما يدعو اليوم لإقبال المصطافين وتوجه السائحين لهذه المدينة الحلوة بجمالها وبهوائها العليل والتي تعتبر بحق مصيفاً للمملكة هو ما تشاهده بعينيك بادىء بدء منذ قدومك عليها : (١) كثرة المواصلات الحديثة المتعددة وتوفرها في أي وقت من ليل أو نهار . (٢) تعبيد الطريق وسفلتته من مكة المكرمة إلى هذه

تدوين أكثر من ذلك حيث لا يسع هذا المؤلَف زيادة عمّا تقدّم ، فقد أوضحت للقارىء الكريم حالة الطائف قديماً وحديثاً بغاية الإيجاز وتركت الإسهاب لفرصة أخرى . وأما المسجد الموجود اليوم بالطائف المسمّى مسجد عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، فالذي يظهر لي أنه هو المسجد الذي بناه المغيرة بن شعبة ، وأبو سفيان بن حرب حين بعثهما

المدينة بمسافة ٨٩ كيلومتراً . (٣) تقدم العمران وانتشار العمارات الشاهقة على الطراز الحديث . (٤) وجود العديد من الفنادق الجميلة تستقبل زوارها وترحب بهم . (٥) الشوارع المنظمة الفسيحة وهي تزدهي بما غرس في الرئيسية منها من أشجار متشابكة الغصون . (٦) الحديقة الحديثة أو المنتزه الشعبي الحديث الكبير ، الجاري للعمل فيه ، الواقع من أمام مستشفى الملك فيصل إلى مفترق الطرق من شبرة ، وسيزود بطوله المديد بالأشجار الباسقة والأزهار الذكية العطرة والزروع النضرة . (٧) البحث عن المياه وتوفرها ليصل إلى كل مكان ؛ ورأيت عمل مد المواسير الكبيرة يجري بهمة لتصل إلى الأحياء ، أما الخزان الكبير الواقع بالمثناة من الجهة الغربية الجنوبية ، فعلى وشك الإتمام وهو يسع عشرة ملايين جالون ماء تحت اشراف عين زبيدة والعزيزية لسقيا الطائف المترامية الأطراف . (٨) تعميم الكهرباء إلى دور الحكومة والبيوت والمحلات التجارية عموماً والشوارع الرئيسية والفرعية ، ولا ننسى طريق (كرا) بوضعه الحالي والهدى بتقدمه ، وفي القريب طريق اليمانية وكذلك الطريق الجديد المعبد من الشميس من الأرض الحلال حتى البستان المعروف ببستان الجفالي ثم يلتقي بطريق نعمان ليمر منه من لم يمكنهم المرور من الأرض والحرام ، لتتأكد أن هذا المصيف سينال حظاً أوفى من النهوض والتقدم ، وحركة الاصطياف ستتضاعف عليه من كل مكان لما فيه من المتعة والراحة .

وهنا أقف وأتمنى أن لو تمهدت الطرق الموصلة إلى الأمكنة التي يرتادها المصطافون عصر كل يوم لقضاء فترة من الزمن لاستنشاق الهواء الطلق كطريق الردف وغدير البنات وطريق السداد من المستشفى إلى البساتين من الجهة الجنوبية وطريق المثناة من الجنوبية الغربية وأملي أن يتحقق ذلك في القريب ، لأن الشعب عهد في حكومته السعي المتواصل في رفاهيته ، ولقد أنجزت من المشاريع ما هو أعظم من هذا بكثير والله الموفق .

رسول الله ﷺ لهدم (اللات) صنم ثقيف ، كما سيأتي تفصيل ذلك في الجزء الرابع ، وإذا لم يكن هو المسجد بعينه فيكون في موضعه .

وقد جاء في تاريخ ابن فهد القرشي الهاشمي المكي ، نقلاً عن (شفاء الغرام) للفاسي ، أنه يوجد مسجد ينسب إلى النبي ﷺ في مؤخر المسجد الذي فيه قبر عبد الله بن عبّاس ، وأنه في جداره القبلي من خارجه حجر مكتوب فيه : (أمرت السيدة أم جعفر زبيدة بنت جعفر أم ولاة عهد المسلمين أطال الله بقاها بعمارة مسجد رسول الله ﷺ بالطائف) ، وفيه أن ذلك سنة اثنتين وتسعين ومائة . وقال أيضاً : والمسجد الذي فيه قبر ابن عبّاس أظن أن المستضيء العباسي عمّره مع ضريحه واسمه في المنبر الذي بهذا المسجد ، واسم الملك المظفر صاحب اليمن مكتوب في القبّة التي فيها ضريح ابن عبّاس بسبب عمارته لها .

وجاء أيضاً في تاريخ ابن فهد المذكور ، أنه كان مكتوب على قبر ابن عبّاس ما صورته : (أنه عمل باسم الملك المستضيء بأمر الله العباسي سنة اثنتين وتسعين وخمسماية) ، وأنه وجد على باب القبة التي فيها القبر العباسي : (أنه عمل باسم الملك المظفّر يعني يوسف بن عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن سنة خمس وسبعين وستمائة) ، وجاء فيه أيضاً أنه في آخر مسجد ابن عبّاس مسجد صلى فيه النبي ﷺ في آخر المسجد تجاه القبة الأخيرة مما يلي الباب الشرقي وقبالته قبة أخرى وبجانبها محراب لم يثبت فيه شيء . اهـ. فهذا كل ما ذكره ابن فهد في تاريخه عن المسجد الذي ينسب إلى رسول الله ﷺ وأنه شرقي مسجد ابن عبّاس . ولم يكن لهذا المسجد في العصر الحاضر أثر وربما أدمج في مسجد ابن عبّاس . وعلى كل حال فكل ما ورد لا يدل دلالة قاطعة على أن مسجد رسول الله ﷺ هو هذا ، أو أن النبي ﷺ بنى مسجده في ذلك الموضع المذكور ، وإنما كان ذلك يؤيد ما قلناه أن المسجد الموجود اليوم هو المسجد الذي

بناه المغيرة وأبو سفيان بموضع (اللات) وذكر بعض مؤرخي الطائف أن القبة التي على يسار الداخل إلى المسجد المذكور بقرب الباب والتي هي الآن مستودع للكتب الموقوفة على المسجد هي مسجد رسول الله ﷺ ، وهذا يحتاج إلى تحقيق والله أعلم .

وأما المسجد الذي بناه رسـول الله ﷺ في (وادي العقيق) ، كما سيأتي في هذه القصة ، فلم يعرف موضعه اليوم .

غزوة الطائف

وقعت غزوة الطائف في شهر شوال سنة ثمان من الهجرة . وسبب هذه الغزوة أنه لما قلَّت ثقيف من أوطاس إلى الطائف أغلقوا عليهم أبواب المدينة واستعدوا بكل ما لديهم من الأمـوال ومواد القتـال ، وأدخروا مـا يكفيهم للحرب سنة فعزم رسول الله ﷺ على حـربهم ، وقدّم خـالد بن الوليد رضي الله عنـه على مقدمـة الجيش . ثم سار رسـول الله ﷺ إلى الطائف من (حُنَين) فسلك طريق نخلة اليمانية ـ وهو الطريق الذي ينعطف على الزيمة من وادي الشرائع ـ وكانت حنين بين الزيمة والشرائـع ، في ذلك المضيق الواقع شرق الشرائع . والزيمة هي أول نخلة اليمانية ، كما قدّمنا توضيحه . وكان وادي الزيمة خصباً كثير النخل والثمار ، وأما اليوم فهو أجدب ليس فيه أكثر من عشرة بساتين ـ ثم من نخلة اليمـانية سلك مصعـد (البِهيْتَاه) حتى أتى أوطـاس ـ وهو عُلوّ السيـل الكبير ـ المسمّى قديماً (نخلة) ، وهذا المسيل ينحدر من قرن المنازل على السيل الكبير المسمّى قديماً بنخلة ، ثم ينحدر منه على (نخلة الشامية) ، وهو وادي الليمون المسمّى الآن (بالمضيق) ، وهـذا الوادي خصب وأكثـر زراعته الليمون ، والموز ، والنخل . ومن نخلة الشامية ، واليمانية ، إلى مكّة ليلة على الجمال ، وذلك نحو ثلاثين ميلاً ، وبين السيل المعبر عنه بنخلة ومكّة

ليلتان ، وهو قريب من خمسين ميلاً ، وهـذا القياس يتفق مـع ما ذكـره المؤرخون أن بين نخلة ومكّة ليلتين ، وبين نخلة والطائف مرحلة . وقد ظهر من سير رسول الله ﷺ أنه لمـا أتى السيل ، الـذي هو نخلة وعُلوّة (أوطـاس) ، يمم إلى جهة الجنـوب وسلك الـوادي الـذي هـو مصب السيـل ، ثم سلك أوطاس من جنـوب السيل حتى أتى قـرن المنـازل ـ المسمى الآن (الدار البيضاء) ومنها (قرن) ـ ثم سلك على (المُلَيْح) وهي المسماة الآن (مسرة السفلى) ، ثم سلك على (المليسـاه) ومنها على (قملة) ومنهـا سلك طريق بين قصعـان ، وسيسدَ ، فـأتى (بُحْرَة الـرُّغَـاء) ، وهـذا المـوضـع من (لِيَـة) ، والـظاهـر أنـه المسمى الآن (القويسم) أو (المختلطة) وهو مما يلي وادي (الزوران) وسط (لِيّة) قبل (خدّ الحاج) ، وهو موضع فسيح ولا يوجد موضع يشبه ما وصفه ابن اسحاق من الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ غير هذا الطريق . فلما أتى رسول الله ﷺ بحرة الرُّغاء من (لِيّة) ابتنى بها مسجداً فصلّى فيه ، وأمر رسول الله وهو بلِيّة بحصن مالك بن عوف فهدم ، فأقاد يومئذ ببُحْرة الرُّغَاء حين نزلها بدم ، وهو أول دم أقيد[1] به في الإسلام ـ والقود القصاص ـ ، وكان معه من النساء أم سلمة وميمونة رضي الله عنهما ، ثم سلك في طريق يقال لها الضّيْقَة ، فلما توجه فيها رسول الله ﷺ سأل عن اسمها فقال : « ما اسم هذه الطريق ؟ » فقيل له : الضّيْقَة . فقال : « بل هي اليُسْرَى » . وهو اسمها اليوم . ثم خرج منها على نَجْب حتى نزل تحت سدرة يقال لها (الصادرة) قريباً من مال رجل من ثقيف ، فأرسل إليه رسـولِ الله ﷺ : (إما أن تخْرُج وإما أن نُخْرِب عليك حائطك) ، فأبى أن يخرج ، فأمر رسول الله ﷺ بإخراجه . ثم مضى رسول الله ﷺ حتى نزل الطائف فضرب

---

(١) وذلك أن رجلاً من بني ليث قتل رجلاً من هذيل فقتله به .

به عسكره ، فرمى أهل الطائف عسكر رسول الله ﷺ ، فقَتَلوا أناساً من أصحابه بالنبل ، وذلك أن العسكر اقترب من حائط الطائف فكانت النبل تنالهم ، ولم يقدر المسلمون على أن يدخلوا حائطهم لأنهم أغلقوه دونهم . فلما أصيب أولئك النفر من أصحابه بالنبل وضع عسكره عند مسجده[1] الذي بالطائف ، وحاصرهم حصاراً شديداً بضعاً وعشرين ليلة ، وقاتلهم قتالاً شديداً ، وتراموا بالنبل ، ورماهم بالمنجنيق ، وكان رسول الله ﷺ أول من رمى بالمنجنيق في الإسلام - وقد استعمل المنجنيق عند العرب قديماً ، فقد استعمله في الجاهلية جُذَيمة بن مالك الدوسي الأبرش ، وكان من ملوك الطائف ، وكان أهل الطائف لهم علم بصنعة المنجنيق ، والدبابات ، والضبور ، والدبابات من آلات الحرب يدخل فيها الرجال فيدبون بها إلى الأسوار لينقبوها ، والضبور مثل رؤوس الأسفاط يتقى بها في الحرب عند الإنصراف . وأرشد سلمان الفارسي رسول الله إلى رمي أهل الطائف بالمنجنيق وقال له : إنا كنا بأرض فارس ننصب المنجنقيات على الحصون فنصيب من عدونا . فنصب سلمان الفارسي رضي الله عنه المنجنيق . ولما رمى رسول الله ﷺ أهل الطائف بالمنجنيق أحدث في جدار السور شدخة ، فدخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ

---

(١) قال في « بهجة المحافل » : لما قتل جماعة من أصحابه ﷺ انتقل بعيداً من الحصن وضرب هناك قبتين لعائشة وأم سلمة وصلى بينهما ، وهو موضع مسجده الذي بالطائف اليوم ، وفي ركنه الأيمن القبلي قبر جد الأمة أبو العباس عبد الله بن العباس رضي الله عنهما . وقوله عائشة خطأ ، لأن زينب وأم سلمة معه من نسائه لا عائشة رضي الله عنها . وفي سيرة ابن هشام نقلاً عن ابن إسحق ، قال : فلما أسلمت ثقيف بنى على مصلى رسول الله ﷺ عمرو بن أمية بن وهب بن معتب بن مالك مسجداً . وفي السيرة الحلبية ارتفع ﷺ إلى موضع مسجد الطائف الآن . أقول وقد زيد أضعاف المسجد القديم في الجهة القبلية لازدحام المسجد القديم بالمصلين يوم الجمعة فجرت الزيادة لذلك .

تحت دبابة ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلوا منهم رجلا ، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف فوقع الناس فيها يقطعون . وتقدّم أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة إلى الطائف فناديا ثقيفاً أن أمّنونا حتى نكلمهم ؟ فأمّنوهما ، فدعوا نساء من نساء قريش وبني كنانة ليخرجن إليهما وهما يخافان عليهن السبّاء فأبين ، منهن آمنة بنت أبي سفيان كانت عند عروة بن مسعود ، والفِرَاسيّة بنت سويد بن عمرو ، والفُقَيْميّة أميمة بنت الناسىء أمية بن قَلْع ، فلما أبين عليهما قال لهما ابن الأسود بن مسعود : يا أبا سفيان ، يا مغيرة ، ألا أدلكما على خبر مما جئتما له أن مال الأسود بن مسعود حيث قد علمتما ـ وكان رسول الله ﷺ نازلاً بوادي العقيق ، وهو بين مال الأسود وبين الطائف ، وكان مال الأسود جهة القيم ـ أنه ليس بالطائف مال أبعد رِشَاء ، ولا أشد مُؤنة ، ولا أبعد عمارة ، من مال ابن الأسود ، وأن محمداً إن قطعه لم يُعْمَر أبداً ، فكلماه ، فليأخذْهُ لنفسه أو ليدعه لله والرحم ، فإن بيننا وبينه من القرابة ما لا يُجْهَل . فتركه رسول الله ﷺ ، فأقبل خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى أهل الطائف في نفر من أصحابه ، فدار بالحصن ونظر إلى نواحيه ، ثم وقف في ناحية من الحصن فينادى بأعلا صوته : ينزل إليّ بعضكم أكلّمه وهو آمن حتى يرجع أو اجعلوا ليْ مثل ما جعلت لكم وأدخل عليكم حصنكم أكلّمكم ؟ قالوا : لا ينزل إليك رجُل منا ، ولا تصل إلينا ، وقالوا : يا خالد ، إن صاحبكم لم يلق قوماً يحسنون قتاله غيرنا . فقال خالد رضي الله عنه : فاسمعوا من قولي ، نزل رسول الله ﷺ بأهل الحصون والقوة بيثرب وخيبر ، وبعث رَجُلاً واحداً إلى فدك فنزلوا على حكمه ، وأنا أحذركم مثل يوم بني قريظة ، حصرهم رسول الله ﷺ أياماً ثم نزلوا على حكمه ، فقتل مقاتلتهم في صعيد واحد ، ثم سبى الذرية ، ثم

دخل مكّة فافتتحها ، وأوطأ هوازن في جمعها ، وإنما أنتم في حصن ناحية من الأرض لو ترككم لقتلكم من حولكم ممن أسلم . قالوا : لا نفارق دِيننا . فنادى خالد رضي الله عنه : مَنْ يُبَارز ؟ فلم يطلع إليه أحد ، ثم كرر ذلك فلم يطلع إليه أحد ، وناداه من داخل السور عبد يا ليل : لا ينزل إليك أحد منا ، ولكن نقيم في حصننا ، فإن به من الطعام ما يكفينا سنين ، فإن أقمت حتى يذهب هذا الطعام خرجنا إليك بأسيافنا جميعاً حتى نموت عن آخرنا .

تقول ثقيف إن محمداً ﷺ لم يلق رجالاً أشد منهم بأساً ، وهم في حصنهم مثل الضب في جحره ، فلما دعاهم خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى البراز أحجموا عنه ، فأين بأسهم ، وشجاعتهم ، ألا يستحيون من قولهم هذا ، فمثلهم كمثل يهود بني قينقاع حين قالوا مثل قول ثقيف ، فما لبثوا أن أذعنوا إلى التسليم ، وكأنهم يظنون أن أسُود الإسلام يؤثر فيهم القول المجرد ، وهم ، هم في شجاعتهم وممارستهم للحروب ، فلا يصدّهم تهديد ولا وعد ووعيد ، فالتهديد لا يؤثر في الأبطال وإنما يؤثر في الجبناء ، ولم يكن سور الطائف أشد متانة من حصون خيبر ، وإنما كان رسول الله ﷺ يطمع في إسلامهم ، لأن إسلامهم عنده أفضل من قتلهم ، وقد حصل ما كان يرغبه رسول الله ﷺ ، كما سيأتي .

واستأذن رسول الله ﷺ عيينة بن حصين في أن يأتي ثقيفاً في حصنهم ليدعوهم إلى الإسلام ، فأذن له في ذلك . فأتاهم ، فدخل في حصنهم - يعني سور الطائف - فقال لهم : تمسكوا في حصنكم ، فوالله لنحن أذل من العبد ، ولا تعطوا بأيديكم ولا تتأثروا . فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال له : « ما قلت لهم يا عيينة ؟ » قال : أمرتهم بالإسلام ودعوتهم إليه وحذرتهم النار ودللتهم الجَنّة . فقال رسول الله ﷺ : « كذبت ، إنما قلت لهم كذا » ، وقصّ عليه القصة ، فقال : صدقت يا رسول الله ، أتوب إلى الله

وإليك من ذلك ، ونادى رسول الله ﷺ : « أيما عبد نزل الحصن وخرج إلينا فهو حر » ، فخرج منهم بضعة عشر رجلاً ، ونزل منهم رجل في بَكَرَة ، فقيل له أبو بكرة . وكان عبداً للحارث بن كَلَدة فأعتقهم رسول الله ﷺ ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ، فشقّ ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة ، وقالت خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون : يا رسول الله اعطني أن فتح الله عليك الطائف حلى بادية بنت غيلان ؟ أو حلى الفارعة بنت عقيل ؟ وكانتا من أحلى نساء ثقيف . فقال لها رسول الله ﷺ : « وإن كان لم يؤذن لنا في ثقيف يا خولة » . فذكرت خولة ذلك لعمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، فدخل على رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ما حديث حدثتنيه خولة ، زعمت أنك قلت لها ؟ قال : « قلته » . قال : أو ما أذن الله فيهم يا رسول الله ؟ قال : « لا » . قال أو أذن بالرحيل ؟ قال : « بلى » . واستشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلي في الذهاب أو المقام . فقال له : يا رسول الله ، ثعلب في حجر ، إن أقمت أخذته وإن تركته لم يضرك . فأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطّاب رضي الله عنه فأذن في الناس بالرحيل ، فلما استقبل الناس نادى سعيد بن عبيد بن أسد بن أبي عمرو ابن علاج إلا أن الحي مقيم ، قال عيينة بن حصن : أجل ، والله مجدة كرام . فقال له رجل من المسلمين : قاتلك الله يا عيينة أتمدح المشركين بالإمتناع من رسول الله ﷺ ؟ وقد جئت تنصر رسول الله ﷺ ؟ فقال عيينة : إني والله ما جئت لأقاتل ثقيفاً معكم ، ولكن أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أسأها لعلها تلد مني رجلاً ، فإن ثقيفاً قوم مناكير .

هذا عيينة بن حصين ، اعرابي جاف ، ومن طبيعة الأعراب الصلافة والجفاء والطمع في المغانم ، ولم يؤثر الإسلام في قلوبهم بسرعة كما يؤثر في قلوب الحَضَر ، وإنما إذا تمكّن الإسلام من قلوب الأعراب الجفاة لا

يزعزعه شيء ، وقد تسامح رسول الله ﷺ عن عيينة بن حصن كثيراً لما يعلم من جفاء الأعراب كما هي عادته في استعمال اللين والتسامح مع أمثال هؤلاء ، ثم بكثرة احتكاك عيينة في المسلمين تقوّى إيمانه منه في الإسلام منافع كثيرة . فالمصلحون لهم طرق مخصوصة في جلب القلوب وتدريبها على الإصلاح . ورسول الله ﷺ سيد المصلحين وإمامهم وقدوتهم وصاحب التشريع في الإصلاح .

فاستعد الناس للقتال ، فلما قاتلوا في اليوم الثاني أصابتهم جراح ، فقال رسول الله ﷺ : « إنا قافلون إن شاء الله » ، فسروا بذلك وأذعنوا وجعلوا يرحلون ورسول الله ﷺ يضحك تعجباً من سرعة تغير رأيهم ، لأنهم رأوا أن رأيه أبرك من رأيهم فرجعوا إلى رأيه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « قولوا : لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » . ولما ارتحلوا واستقبلوا قال ﷺ : « قولوا : آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون » . وقيل : يا رسول الله ادع على ثقيف أهل الطائف ، فقال ﷺ : « اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم مسلمين » . ولقيه ﷺ ، في طريقه إلى الجعرانة ، سراقة ، وهو واضع الكتاب الذي كتبه له رسول الله ﷺ عند الهجرة بين اصبعيه وينادي أنا سراقة وهذا كتابي ، فقال له رسول الله ﷺ : « هذا يوم وفاء ومودة ، أدنوه » ، فأدنوه منه ، وساق إليه الصدقة ، وسأله عن الضالة من الإبل ترد حوضه الذي ملأه لإبله هل له في ذلك من أجر ؟ فقال له ﷺ : « نعم ، في كل ذات كَبِد حرّاً[1] أجر » .

وقال بُجَيْر بن زُهَير بن أبي سلمى يذكر حُنيناً وأوطاس والطائف :

---

(١) حرى كعطش بالقصر من الحر : وهو تأنيث حران وهي للمبالغة ؛ يريد أنها لشدة حرها قد عطشت ويبست من العطش ، المعنى المفاد حرارة كل حي يسقيه الماء أجر ومثل السقي كل خير وصل إليه ، وهو عام مخصوص بالحيوان المحترم وهو ما لم يؤمر بقتله . قاله النووي .

كانتْ عُلالَةُ يَوْمَ بَطْنِ حُنَينٍ وغداةَ أوطاسٍ ويوم الأبْرَقِ
جَمَعَتْ بإغواء هوازنُ جَمْعَها فَتَبَدّدوا كَالطّائِرِ المُتَمَزّقِ
لَمْ يَمْنعوا منّا مقاماً واحداً إلاّ جِدارَهُمُ وبَطْنَ الخَنْدقِ
ولَقَد تَعَرّضْنَا لكيما يخرُجُوا فَتَحَصّنوا مِنّا بِبَابٍ مُغْلَقِ
تَرْتَدُّ حَسْرَانا إلى رَجْراجَة شَهْبَاءَ تَلْمَعُ بالْمَنَايا فَيْلَقِ
مَلْمُومَةٍ خَضْراءَ لو قَذَفُوْا بها حِضْناً لَظَلّ كَأنّهُ لَمْ يُخْلَقِ
مَشْيَ الضِّرَاء على الهَرَاسِ كأنّنا قُدُرٌ تَفرّقُ في القِيادِ وتَلْتَقِ
في كلّ سابغَةٍ إذا ما اسْتَحْصَنَتْ كالنّهي هَبّتْ ريحُهُ المُتَرَقْرِقِ
جُدْلٌ تمسّ فضولُهُنّ نِعالَنَا مِنْ نَسْجِ داود، وآلِ مُحَرِّقِ

اسماء من استشهد بالطائف

قال ابن إسحاق : استشهد بالطائف من المسلمين مع رسول الله ﷺ :

(١) سعد بن سعيد بن العاص الأموي القرشي .

(٢) عرفطة بن جناب بن الأسد بن الغوث ، حليف بني أمية .

(٣) عبد الله بن أبي بكر الصدّيق التيمي ، رمي بسهم فمات منه بالمدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ .

(٤) عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي ، من رمية رمي بها يومئذ .

(٥) عبد الله بن عامر بن ربيعة من بني عدي حليف بني مخزوم .

(٦) السائب بن الحارث بن عدي .

(٧) أخوه عبد الله بن الحارث السهمي .

(٨) جليحة بن عبد الله من بني سعد بن ليث الليثي .

واستشهد من الأنصار من بني مازن بن النجار رجلين وهما :

(٩) المنذر بن عبد الله من بني ساعدة .

(١٠) رقيم بن ثابت بن ثعلبة الأوسي . رضي الله عنهم أجمعين .

فجميع من استشهد بالطائف من أصحاب رسول الله ﷺ عشرة رجال ، سبعة من قريش واثنان من الأنصار ، ورجل من بني ليث .

قد قضت إرادة الله تعالى أن يُقْتَل أربعة في المعركتين العظيمتين الداميتين الهائلتين وهما حُنَين ، وأوطاس ، ويفتح الله تعالى على المسلمين بذلك ، ويُقْتَل في حصار الطائف عشرة رجال بدون فتح . فهذا الذي يجعل الإنسان أن يعتقد بقضاء الله تعالى وقدره ، وهذا من أعظم الأسباب التي تجعل الإنسان يجزم بصحة التاريخ في تثبيت الوقائع ، فلو أن هناك تدليس في الحوادث التاريخية الصحيحة لجعلوا أكثر القتلى وقوعاً في المنهزمين يوم حُنَين ، ونفوه عمن حضر الطائف حيث لم يكن هناك لإبراز ولا هجوم ، ولا كر وفرّ ، كما حصل في الواقعتين الآنفتين ، ولكن التاريخ أمين على الحوادث ، فهو يؤدي لكل ذي حق حقه .

تقسيم أموال هوازن أو غنائم حنين

ثم خرج رسول الله ﷺ حين انصرف عن الطائف على دَحْنا حتى نزل الجعرانة فيمن معه من الناس ، ومعه من هوازن سَبْي كثير ، وقد تقدّم إحصاء السبي والغنائم . وقدم وفد هوازن على رسول الله ﷺ مسلمين فقالوا : يا رسول الله إنّا أصْلٌ وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخْفَ عليك ، فامنن علينا مَنّ الله عليك ؟ وقام زهير أبو صُرَد ، أحد بني سعد بن بكر من هوازن ، فقال : يا رسول الله ﷺ إنما في الحظائر عَمّاتك وخالاتك وحواضنك اللآئي كن يكفلنك ، وإنا مَلَحْنَا[1] ـ أي أرضعنا ـ للحارث بن

(١) ولو أنا ملحنا .

أبي شِمَر أو للنعمان بن المنذر ، ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به رجونا عـطفه وعـائدتـه علينا ، وأنت خيـر المكفولين ، فقـال رسـول الله ﷺ : « أبناءكم ونساؤكم أحَبّ إليكم ، أمْ أمـوالكم ؟ » فقالـوا : يا رسـول الله خَيّرْتَنَا بين أموالنا وأحسابنا ، بل تَرُدّ إلينا نساءَنَا وأبناءنا فهو أحَبّ إلينا فقال لهم : « أما ما كان لي ولبني عبد المطّلب فهو لكم وإذا ما أنا صلّيت الظُهر بالناس فقوموا فقولوا إنا نستشفع رسول الله ﷺ إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله ﷺ في أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم » . فلما صلّى رسول الله ﷺ بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم » . فقـال المهاجـرون : وما كـان لنا فهـو لرسـول الله ﷺ ، وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو رسول الله ﷺ ، فقال الأقرعُ بن حابس : أما أنا وبنو تميم فلا . وقـال عُيَيْنة بن حصْن : أمـا أنا وبنـو فَزَارة فـلا . وقال عباس بن مِرْدَاس : أما أنا وبنو سُلَيم فلا . فقالت بنو سُلَيم : بلى +، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ . قال عباس بن مرداس لبني سُلَيم وهنّتُّموني . فقال رسول الله ﷺ : « أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي فله بكل إنسان ستّ فرائض[1] من أول سَبْي أصيبُه » . فرُدُّوا إلى هوازن ومن معهم من الناس أبناءهم ونساءهم .

وأعطى رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه جارية يقال لها رَيْطَة بنت هلال بن حَيّان من بني سعد بن بكر . وأعطى بن عفّان رضي الله عنه جارية يقال لها زينب بنت حيان . وأعطى عمر بن الخطّاب رضي

---

(١) ثلاث حقاق وثلاث جذاع ، والحقاق : جمع حقة ، وهي الناقـة إذا استكملت السنة الثالثة في شبابها . والجذاع : جمع جذعة ، وهي التي استكملت الرابعة ودخلت في الخامسة .

الله عنه جارية وهبها لعبد الله بن عمر ابنه ، فبعث بها عبد الله إلى أخواله من بني جُمَح لِيُصْلحوا منها ويهيؤها حتى يأتيهم ، فلما خرج من المسجد وجد الناس يشْتَدّون ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : ردّ علينا رسول الله ﷺ نساءنا وأبناءنا . فقال لهم : تلكم صاحِبتُكم في بني جُمَح فاذهبوا فخذوها . فذهبوا إليها فأخذوها . وأما عيينة بن حصن فأخذ عجوزاً من عجائز هوازن ، فلما ردّ رسول الله ﷺ السبايا بست فرائض أبى أن يردّها ، فقال له زهير أبو صُرَد : خذها عندك ، فوالله ما فوهها ببارد ، ولا ثديها بناهد ، ولا بطنها بوالد ، ولا زوجها بواجد ، ولا رَدّها بماكد ، فردها بست فرائض حين قال له زهير ما قال . والفريضة واحدة من الإبل كبيرة في السن . ولقي عُيَيْنة بن حصن ، الأقرع بن حابس ، فشكا إليه ذلك ، فقال : إنك والله ما أخذتَها بيضاءَ غريرة ، ولا نَصَفا وثيرَة .

وسأل رسول الله ﷺ وفد هوازن عن مالك بن عوف النصري ، رئيس جموع هوازن يوم حُنَين ، ما فعل ، فقالوا : هو بالطائف مع ثقيف . فقال رسول الله ﷺ : « أخبروا مالكاً أنه إن أتاني مُسْلماً رددت إليه أهلَه وماله وأعطيته مائةً من الإبل » . فأتِي مالكٌ بذلك ، فخرج إليه من الطائف ، وقد كان مالك خاف ثقيفاً على نفسه أن يعلموا أن رسول الله ﷺ قال له ما قال فيحبسوه ، فأمر براحلته فهُيِّئَتْ له ، وأمر بفرس له فأتِي به إلى الطائف ، فخرج ليلاً ، فجلس على فرسه فركضه حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تُحْبس ، فركبها فلحق برسول الله ﷺ فأدركه بالجعرانة ، أو بمكّة ، فرد عليه أهلَه وماله وأعطاه مائة من الإبل فحسُنَ إسلامه ، فقال مالك بن عوف حين أسلم :

ما إن رأيتُ ولا سَمِعْتُ بِمِثلِه ... في النّاسِ كُلِّهم بِمِثْلِ محمّدِ
أوفى وأعْطى للجزيْل إذا اجْتُدى ... ومَتى تَشَأْ يُخْبِركَ عمّا في غدِ

وإذا الْكَتيبَةُ عَرّدَتْ أنيابُها بالسَّمْهَرِي وضَرْبَ كُلِّ مُهَنَّدِ
فَكَأنَّهُ لَيْثٌ أشْبَالِهِ وسْطَ الهباءة خَادِرٌ في مَرْصَدِ

فاستعمله رسول الله ﷺ على مَنْ أسْلَمَ مِنْ قومه . وتلك القبائل ثُمَالَة ، وسَلَمة ، وفَهْم ، فكان يُقاتل بهم ثقيفاً ، لا يخرج لهم سَرْحٌ إلا أغار عليهم .

هذا ما كان من لطف النبي ﷺ برئيس هوازن ، الذي قادَ بالأمسِ جَمْعاً عظيماً من قبائل هوازن وثقيف ليبيد رسول الله ﷺ وأصحابه ، بل والإسلام ، ووقع منه ما وقع بحُنَين ، ولو تمكّن من رسول الله ﷺ والمسلمين لما رحم رجُلاً منهم ، فلما تمكّن منه رسول الله ﷺ عطف عليه ، وأرسل إليه بأنه إذا أتى مُسْلِماً يرد عليه ماله وولده ويعطيه مائة من الإبل . فهذا العطف وهذا التسامح وهذا اللطف هو من خصائص رسول الله ﷺ وحده لا يشاركه فيه إنسان قط ، لا ممن سبقه ، ولا ممن عاصره ، ولا ممن أتى بعده ، إلى اليوم ، وإلى يوم البعث والنشور ، والتاريخ شاهد على ذلك . وبهذه المكارم دَخَل الناس في دِين الله أفواجاً ، فاضطر مالك بن عوف أن يمدح النبي ﷺ بما تقدّم ، فقال أبو محجن بن حبيب بن عمرو بن عُمَير الثقفي ، لما رأى من مالك بن عوف ما رأى :

هَابَتِ الأَعْداءُ جَانِبَنَا ثُمّ تَغْزُونَا بَنُو سَلَمَهْ
وَأَتَانا مالِكٌ بِهِمُ نَاقِضاً لِلْعَهْدِ والحُرُمَهْ
وأتَوْنا في مَنَازِلنا ولَقَدْ كُنّا أولي نِقْمَهْ

ولما فرغ رسول الله ﷺ من رَدّ السبايا إلى أهلها ركب واتبعه الناس يقولون : يا رسول الله أقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم ، حتى ألجأوه إلى شجرة ، فاختطفت عنه رداءه ، فقال ﷺ : « ردّوا عليَّ ردائي أيها الناس ، فوالله أن لو كان لكم بعدد شجر تِهَامَة نعم لقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتموني

بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً » . ثم قام ﷺ جنب بعير فأخذه وبَرَه من سَنَامه فجعلها بين أصْبُعَيْه ثم رفعها ، ثم قال : « أيها الناس والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخُمُس ، والخمسُ مردود عليكم فأدوا الخيط والمخيط ، فأن الغُلُول يكون على أهله عاراً وناراً وشَناراً يوم القيامة » .

وأعطى رسول الله ﷺ المؤلّفة قُلُوبُهُم ، وكانوا أشرافاً من أشراف الناس يتألّفهم ويتألّف بهم قومَهم ، فأعطى أبا سفيانَ بن حرب مائة بعير ، وأعطى ابنه معاوية مائة بعير ، وأعطى حكيم بن[1] حِزام مائة بعير ، وأعطى بُصَيْر بن الحارث بن كَلَدة من بني عبد الدار مائة بعير ، وأعطى الحارث بن هشام مائة بعير ، وأعطى سُهَيل بن عمرو مائة بعير ، وأعطى خُوَيْطِب بن عبد العزى بن أبي قيس مائة بعير ، وأعطى العلاء بن جارية الثقفي حليف بني زُهْرة مائة بعير ، وأعطى عُيَيْنَة بن حِصْن مائة بعير ، وأعطى الأقرع بن حابس التميمي مائة بعير ، وأعطى مالك بن عوف النَّضْري مائة بعير ، وأعطى صفوان بن أمية مائة بعير . قال ابن اسحاق : فهؤلاء أصحاب المئين ، وأعطى دون المائة رجالاً قريش منهم مَخْرَمة بن نوفل الزُّهري ، وعُمَير بن وهب الجُمَحي ، وهشام بن عمرو أخو بني عامر بن لؤي . قال ابن اسحاق : لا أحفظ ما أعطاهم وقد عرفت دون المائة . وذكر الحافظ ابن القيم في (زاد المعاد) أفراداً من هؤلاء منهم من أعطي خمسون من الإبل ومنهم من أعطي أربعون . قال ابن اسحاق :

---

(١) وسأله مائة أخرى فأعطاه ، ثم سأله مائة أخرى فأعطاه ، ثم قال له : يا حكيم هذا المال خضر حلو ، من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه باشراف نفس لم يبارك فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى . فأخذ حكيم المائة الأولى وترك ما عداها وأقسم أنه لا يطلب أحداً غيره ﷺ حتى يموت ؛ وفعلاً لم يقبل من أبي بكر الصديق عطاءه ولا من عمر بن الخطاب رضي الله عنهم .

وأعطى سعيد بن يربوع بن عنكَشَة بن عامر بن مخزوم خمسين من الإبل ، وأعطى عدي بن قيس السّهمي خمسين من الإبل ، وأعطى عباس بن مرداس أباعِر فسَخِطها فعاتب فيها رسول الله ﷺ ، فقال عباس بن مرداس يعاتب رسول الله ﷺ :

أَصْبَح نَهْبِي ونَهْبُ العُبَيْـ ـدِ[1] بينَ عُيَيْنَةَ والأقْرَعِ
وقد كنتُ في الحَرْبِ ذا تُدْرَىءٍ فَلَمْ أُعْطَ شَيْئاً ولَمْ أُمْنَعِ
إلّا أفائِل أُعْطِيْتُهَا عَديدَ قَوائِمِها الأربَعِ
وما كانَ حِصْنٌ ولا حابِسٌ يَفُوقان شَيْخي[2] في المجْمَعِ
وما كنتُ دون امرىء منهما ومَنْ تضعِ اليومَ لا يُرْفَعِ

فقال النبي ﷺ : « اذهبوا به فاقطعوا عني لسانه » . فأَعْطَوْه حتى رضِيَ ، فكان ذلك قطعَ لسانه الذي أمر به رسول الله ﷺ ، وكان عطاؤه في المرة الأولى أربعين بعيراً ، ثم أعطي أخيراً حتى كمل المائة بعير . وذكر ابن هشام أناساً لم يذكرهم ابن اسحاق ممن أعطاهم رسول الله ﷺ ، وهم طليق بن سفيان بن أمية ، وخالد بن أسد بن أبي العِيص بن أمية ، وشيبة بن عثمان بن أبي طلحة الحجبي ، وأبو السنابل بن بَعْكك من بني عبد الدار ، وعِكْرمة بن عامر بن هشام بن عبد مناف بن عبد الدار ، وزهير بن أبي أمية بن المغيرة ، وخالد بن هشام بن المغيرة ، وهشام بن الوليد بن المغيرة ، وسفيان بن عبد الأسد المخزومي ، والسائب بن أبي السائب بن عائذ المخزومي ، ومطيع بن الأسود بن حارثة العدوي ، وأبو جهم بن حذيفة بن غانم العدوي ، وعُمَيْر بن وهب بن خلف الجمحي ، ونوفل بن معاوية بن عروة الديلي ، وعلقمة بن علاثة بن عوف الكلابي ،

---

(١) يعني فرسه .
(٢) يعني والده وجده .

وخالد بن هوذة بن ربيعة العامري ، وحرملة بن هوذة العامري . فهؤلاء أهل العطاء من غنائم حُنَين . وقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ : يا رسول الله أعطيت عُيَيْنة بن حِصْن ، والأقرع بن حابس مائة ، مائة ، وتركت جُعَيل بن سراقة الضّمْري . فقال رسول الله ﷺ : « أما والذي نَفْس محمد بيده لَجُعَيل بن سُرَاقة خيرٌ من طِلَاع الأرض كلهم مثل عُيَيْنة بن حِصْن والأقرع بن حابس ولكن تألّفتهما ليُسْلما ووكلت جُعَيل بن سُراقة إلى إسلامه » . وروى ابن اسحاق ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، قال : جاء رجل من بني تميم يقال له ذو الخُوَيْصِرَة[1] فوقفت عليه وهو يعطي الناس فقال : يا محمد قد رأيتُ ما صنعتَ في هذا اليوم . فقال رسول الله ﷺ : « أجل ، فكيف أنت ؟ » فقال : لم أرك عَدَلْتَ . قال ، فغضب النبي ﷺ ثم قال : « ويحك ، إذا لم يكن العدل عندي فعند مَن يكون ؟ » فقال عمر بن الخطّاب[2] رضي الله عنه : يا رسول الله ألا أقتلُه ؟ فقال ﷺ : « لا ، دَعْه ، فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدِين حتى يخرجوا منه كما يخرج السّهْمُ من الرمية[3] يُنْظَر في النّصْل فلا يوجد شيء ثم في الفُوقِ فلا يوجد شيء سَبَقَ الفرْثَ والدّمَ » . قال السهيلي في شرح سيرة ابن هشام : فكان كما قال ﷺ وظهر صدق الحديث في الخوارج[4] . انتهى .

ولما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى في قريش وقبائلِ العرب ولم

---

(١) وهو غير ذي الخويصرة اليماني الذي بال في المسجد .

(٢) وقيل : قال خالد بن الوليد ألا اضرب عنقه . قال الإمام : النووي رحمه الله تعالى ولا تعارض لأن كل واحد منهما استأذن فيه .

(٣) الرمية : هي الطريدة التي يرميها الصائد .

(٤) الخوارج : قوم يكفرون مرتكب الكبيرة ويحكمون بحبوط عمل مرتكبها وتخليده في النار ، ويحكمون بأن دار الإسلام تصير بظهور الكبائر فهي دار كفر ولا يصلون جماعة .

يُعْطِ الأنصارَ شيئاً قال حسان ثابت يُعاتب في ذلك :

اثتِ الرسُولَ فقُلْ يا خيرَ مؤتَمنٍ ... للمؤْمنين إذا ما عدّدَ البَشَرُ

عَلامَ تُدْعَى سُلَيمٌ وهي نازحةٌ ... قُدّامَ قَوْم هُمْ آوَوْا وهم نَصَروا

سَمّاهُمُ الله أنْصاراً بنَصْرهم ... دِينَ الهُدَى وعَوانُ الحَرْب تستعِرُ

وسارَعُوا في سبيلِ اللهِ واعْترفُوا ... للنّائباتِ وما خانوا وما ضَجِرُوا

والناس ألْب علينا فيكَ ليسَ لنا ... إلا السيّوفَ وأطْرافَ القنا وَزَرُ

نُجالِدُ الناسَ لا نُبْقي على أحَدٍ ... ولا نُضَيّع ما تُوْحي به السُّوَرُ

ولا تَهرّ جُنَاة الحرب نادَينَا ... ونحنُ حين تَلَظّى نارُها سُعُرُ

كما رددنا بِبَدْرٍ دونَ ما طَلَبُوا ... أهلَ النّفاق وفينا يُنْزَلُ الظَّفَرُ

ونحنُ جُنْدُكَ يوم النَعْفِ من أُحُدٍ ... إذا حزّبتْ بَطَراً أحْزَبَها مُضَرُ

فما وَنَيْنَا وما ضمنا وما خَبَروا ... مِنّا عِثَاراً وكُلُّ النّاس قد عَثَرُوا

وروى ابن اسحاق ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، قال : لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب ولم يكن في الأنصار منها شيء ، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم حتى كثر منهم القالةُ[1] ، حتى قال قائلهم : لقي والله رسول الله ﷺ قومَه ، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحي من الأنصار قد وَجَدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبتَ قَسَمْت في قومك وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء . قال رسول الله ﷺ : « فأين أنت من ذلك يا سعد » ؟ قال : يا رسول الله ما أنا إلا من قومي . قال :

---

(١) وهي القول الرديء . وفي رواية سيوفنا تقطر من دمائهم وهم يذهبون بالغنم ، وإن كان من أمر الله تعالى صبرنا وإن كان من أمر رسول الله ﷺ استقيناه .

« فاجمعْ لي قومك في هـذه الحظيـرة[1] » . قال ، فخـرج سعد فجمـع الأنصار في تلك الحظيـرة . قال ، فجـاء رجال من المهـاجرين فتـركهم فدخلوا وجاء آخرون فردّهم ، فلما اجتمعوا أتاه سعد فقال : قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار . فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قـال : « يا معشـر الأنصار ، مـا قـالَـةٌ بلغتني عنكم وَجِـدَةٌ[2] وجدتموها على أنفسكم ، ألم آتكم ضُلاّلاً فهداكم الله ؟ وعالةً فأغنـاكم الله ؟ وأعداء فألَّف الله بين قلوبكم ؟ » قالوا : بلى ، والله ورسـوله أَمَنُّ وأفْضَلُ . ثم قال : « ألا تجيبوني يا معشر الأنصار ؟ » قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ، لله ورسوله المنّ والفضْلُ . قال ﷺ : « أما والله لو شئتم لقلتم فَلَصَدَقْتُم ولَصُدِّقْتُم أتيتنا مُكَذَّباً فصدّقنـاك ، ومخذولاً فنصـرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك ، أَوَجَدْتُم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لَعَاةَ من الدنيا تألّفْتُ بها قوماً لِيُسْلِموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا تَرْضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رِحَالكم ؟ فوالذي نفْس محمّد بيده لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار ولو سلك الناس شعْباً وسلكت الأنصار شعْباً لسلكتُ شعْبَ الأنصار ، اللهم ارحم الأنصـار ، وأبنـاء الأنصـار » . قـال ، فبكى القـوم حتى أخضَلُوا لِحَاهم ، وقالـوا : رضينا بـرسول الله قَسْمـاً وحظاً . ثم انصـرف رسول الله ﷺ ، وتفـرّقوا . وأمـر رسول الله ﷺ زيـد بن ثابت بـإحضار الغنـائم والناس ، ثم فرضها على الناس ، فكانت سهامهم لكل رجُلٍ أربعاً من الإبل وأربعين شاة ، فإن كان فرساً أخذ اثني عشر بعيراً وعشرين ومـائة شاة . هذا ما ذكره الحافظ ابن القيم في (زاد المعاد) .

---

(١) وهي قبة من أدم .

(٢) الجدة : الغضب .

حاصل ذلك أن رسول الله ﷺ أعطى للمؤلّفة قلوبهم ما أعطاهم من العطاء الجزيل وهو من الخُمس ولم يكن من مجموع الغنائم ، ولكونه لم يعط الأنصار من ذلك علاوة على حصتهم من الغنائم ، وجدوا في أنفسهم ما وجدوا ، فقالوا ما قالوا ، وذلك لأنهم كانوا يؤملون أن ينالوا من رسول الله ﷺ أكثر من غيرهم لمناصرتهم لرسول الله ﷺ ومؤازرتهم له ، وربما ظنوا أن الذين حازوا على العطاء الجزيل هم أعظم مكانة عند رسول الله ﷺ منهم ، ولم يفطنوا للحكمة التي من أجلها أعطى رسول الله ﷺ المؤلّفة من الخُمس دونهم حتى قال بعضهم : يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم . فهذه الصفة هي من صفات البشر التي أوجدها الله تعالى في خلقه عامة ، إلا من عصم الله ، وذلك أن كل إنسان تشمله العناية بأن يكون مقرباً من ولاة الأمر تجده حريصاً على أن يكون هو المختص بجزيل عطاياهم دون غيره ، وإذا وجدهم نفحوا غيره بأكثر منه وجد في نفسه ما وجد الأنصار في أنفسهم بدون أن يتبصر في السبب الذي جعل ولي الأمر يبرّ غيره بالعطاء الجزيل دونه ، ولذلك لما راجع سعد بن عبادة الأنصاري رسول الله ﷺ أمرْه بإحضار الأنصار وأفهمهم الحكمة في كونه منح المؤلفة قلوبهم دونهم ولم يكن في ذلك العطاء مأثرة لهم على الأنصار ، أو المهاجرين ، الذين سبقوهم إلى الإسلام ، كما أنه لم يعط رسول الله ﷺ السابقين الأولين من المهاجرين من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص وأمثالهم شيئاً من ذلك ، بل أنه ساوى في تقسيم الغنائم بين المهاجرين والأنصار ومن دونهم على السواء ، ولذلك قنع الأنصار بذلك ورضوا وندموا على ما وقع منهم ، وذلك لأنهم فهموا أنه سبب وجيه وانه هو الذي صار عليه رسول الله ﷺ في دعوته الناس إلى الإسلام من جلب القلوب إلى الله تعالى والإيمان به بكل الطرق الممكنة من عفو ، ولطف ، ولين ، وكرم ،

وسخاء ، وغض الطرف ، والتسامح ، لأن غرض النبي ﷺ دخول العالم بأجمعه في الإسلام ، سواء كانوا أقاربه أو قبائله أو عشيرته أو عرباً أو عجماً أو زنوجاً ، وسواء كانوا أصدقاء أو أعداء على حد سواء ، فجلّ بغيته إصلاح البشر ليس إلا ، وذلك بالتي هي أحسن ، ولم يجرد السيف إلا اضطراراً إذا أعيته الحيلة ، وأما المال والغنائم فلم يكن لهما عنده قيمة وتجده أشد ما يكون ضاناً بالمال أولاً على نفسْه ثم على أقربائه ثم على أعز أصحابه وأصدقائه وأعظم ما يكون سخياً على من يتألف قلوبهم ، والدليل على ذلك أنك لم تجد رجُلًا واحداً من هؤلاء الذين نالوا العطاء الجزيل من بني هاشم أو بني المطلب مع أن كثيراً منهم تأخر إسلامه بعد الفتح ، وبعد حُنَين ، والطائف ، ثم نتج من تأليف رسول الله ﷺ قلوب قريش وغيرهم من قبائل العرب بذلك العطاء الجزيل الذي أبهر عقولهم أن أصبحوا من أحسن الناس إسلاماً ، وبإسلامهم دانت كل قبائل العرب للإسلام ، وما مضت مدّة وجيزة من ذلك حتى توافدت وفود العرب إلى رسول الله ﷺ من كل جانب ، كما سيوضح قريباً ، فظهر من ذلك أن عمل رسول الله ﷺ من أجلِّ الأعمال حكمة وتدبيراً .

قال الحافظ ابن القيم رحمه الله تعالى : اقتضت حكمة الله تعالى أن غنائم الكفّار لما حصلت ثم قسمت على مَن لم يتمكن الإيمان من قلبه ما بقي فيه من الطبع البشري في محبة المال فقسمه فيهم لتطمئن قلوبهم وتجتمع على محبته لأنها جُبِلَتْ على حُبِّ مَن أحسن إليها ، ومنع أهل الجهاد من أكابر المهاجرين ورؤساء الأنصار مع ظهور استحقاقهم لجميعها ، لأنه لو قسم ذلك فيهم لكان مقصوراً عليهم بخلاف قسمته على المؤلفة لأن فيه استجلاب قلوب أتباعهم الذين كانوا يرضون إذا رضي رئيسهم ، فلما كان ذلك العطاء سبباً لدخولهم في الإسلام ولتقوية قلب مَن دخل فيه قبلُ ، تبعهم من دونهم في الدخول ، فكان في ذلك عظيم

المصلحة ، ولذلك لم يقسم فيهم من أموال أهل مكّة عند فتحها قليلاً ولا كثيراً مع احتياج الجيوش إلى المال الذي يعينهم على ما هم فيه ، فحرك الله قلوب المشركين لغزوهم ، فرأى كثيرهم أن يخرجوا معهم بأموالهم ، ونسائهم ، وأبنائهم ، فكانوا غنيمة للمسلمين ولو لم يقذف الله في قلب رئيسهم أن يسوقهم معه هو الصواب لكان الرأي ما أشار إليه دريد فخالفه فكان ذلك سبباً لتصييرهم غنيمة للمسلمين ، ثم اقتضت تلك الحكمة أن تقسم تلك الغنائم في المؤلّفة ويوكل من قلبه ممتلىء بالإيمان إلى إيمانه ، ثم كان من تمام التأليف رد من سبي منهم إليهم ، فانشرحت صدورهم للإسلام فدخلوا طائعين راغبين ، وجبر ذلك قلوب أهل مكّة بما نالهم من النصر والغنيمة عما حصل لهم من الكسر والرعب ، فصرف عنهم شر مَنْ كان بجاورهم مِن أشدّ العرب ، هوازن وثقيف ، بما وقع بهم من الكسرة وبما قيض لهم من الدخول في الإسلام ، ولولا ذلك ما كان أهل مكّة يطيقون مقاومة تلك القبائل مع شدّتها وكثرتها .

هذا ملخص ما قاله ابن القيم . وقد أسهب في (زاد المعاد) من شرح الحكم في أمثال ذلك مما لا يستغنى عنه . وروى ابن الجوزي عن أَنس رضي الله عنه ، قال : كان الرجل يأتي النبي ﷺ وسلم لشيء يعطاه من الدنيا فلا يمسي حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما فيها . انتهى .

عمرة الجعرانة

فلما انتهى رسول الله ﷺ من تقسيم غنائم حُنَين وإعطاء المؤلفة خرج من الجعرانة معتمراً وأمر ببقايا الفيء فحُبِسَ بمَجَنّة بناحية مَرّ الظّهْران ، ودخل مكّة ليلاً ، واستمر يُلَبِّي حتى استلم الحجر الأسود ، ثم رجع من ليلته وأصبح بها كبائت ، ولم يسق هدياً بهذه العمرة ، وحلق

رأسه ﷺ أبو هند الحجّام ، بعد أن أقام بـالجعرانـة ثلاث عشـرة ليلة ، وكانت هذه العمرة في شهر ذي القعدة سنة ثمان من الهجرة .

عودته إلى المدينة

فلما فرغ رسول الله ﷺ من عمرته انصرف راجعـاً إلى المدينـة ، واستخلف على مكّـة عتّاب بن أسِيْـد الأموي وخَلّف معـه معاذ بن جَبَـل الأنصاري رضي الله عنهما يفقّه الناس في الدِين ويعلّمهم القرآن . واتَّبعَ رسولُ الله ﷺ بقايا الفيء وقدِم المدينة في اليوم الرابع والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ثمان من الهجرة ، وكانت غيبته أكثر من ثمانين يوماً والله أعلم .

خاتمة

بحمده تعالى وحسن توفيقه قد انتهى ما أردنا جمعه تعليقاً على هذا الجزء الثالث من الكتاب الجليل المسمى (حياة سيد العرب) ، وكان ذلك بمكة المكرمة ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ١٣٨٦ هـ وإني أرجو من كل من يطلع على هذا الكتاب أن يتبرع بالدعوات الصالحات لي ولوالدي وللمسلمين والمسلمات ، ولكل من يسعى لنشره وإشاعته بين الناس . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الراجي عفو ربه
زكريا بن عبد الله بيلا
خادم العلم الشريف وعضو إدارة المسجد الحرام
كان الله له عوناً

الفهـــرس

مقدمة المؤلف ٤

سرية محمد بن سلمة الأنصاري وسرايا أخرى ٨

غزوة بني الحيان ١٢

عمرة الحديبية ٣٦

شروط صلح الحديبية ٤٨

بيعة الرضوان ٥٤

غزوة ذي قرد ٧٠

كتبه إلى الملوك ٧٤

غزوة خيبر ٨٢

زواجه على صفية بنت حيي ١١٢

تقسيم أموال خيبر ١١٨

غزوة وادي القرى ١٢٢

التعامل مع اليهود على أرض خيبر ١٢٦

سرية عمر بن الخطاب إلى تربة ١٣٦

عمرة القضاء ١٤٠

إسلام خالد بن الوليد وعثمان بن طلحة وعمرو بن العاص ١٤٦

سرية مؤته ١٥٦

سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل ١٦٨

غزوة فتح مكة ١٨٦

خطبة الفتح ٢٢٦

سرية خالد بن الوليد إلى بني جزيمة.................. ٢٤٢
غزوة حنين.................. ٢٤٨
خروجه إلى هوازن.................. ٢٥٦
معركة حنين.................. ٢٦٠
معركة أوطاس.................. ٢٧٨
تاريخ الطائف وغزوة ثقيف.................. ٢٨٤
غزوة الطائف.................. ٢٩٨